

# التفسير التحليلي

للشطر الأول

من سورة ال عمران

تأليف  
شاكر نعمة بكري الكبيسي



سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة

(٦٠)

جمهورية العراق

ديوان الوقف السني

مركز البحوث والدراسات الإسلامية

# التفسير التحليلي

## للشطر الأول من سورة آل عمران

شاكر جمعة بكري الكبيسي

م٢٠٠٩

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ



## الإهداء

إلى من تلقاني بكرم الضيافة  
وقربني بصلة الأخوة وشجعني في  
مواصلة البحث أخي وزميلي الدكتور  
صالح كرامة قمرزوي عميد كلية  
التربية في المهرة.  
أقدم بحثي هذا وفاءً وجباً.

الباحث

# المقدمة



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه حماة الدين، وعلى من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فأقدم لطلبة القرآن هذا البحث المتواضع في تحليل الشطر الأول من سورة آل عمران المباركة بعد أن عشت معها ما يزيد على ثلاثة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

جلست إلى آل عمران أولاً، لأستمع ما تتلوه عليّ من بيّنات، وما ترويه من أخبار، وما تحكيه من قصص، حتى إذا استبان حدودها، واستعلنت ملامحها، وظهرت صورتها، وتميزت قسماتها. حاورت نصوصها بلو ولماذا وكيف ثم أردفتها بلعل وأخواتها، طامعاً في اكتشاف سر الجمال فيما أظهرت وروعة البيان حيث تعطرت ثم استأذنتها للسمر معها، فإذا بها تكني عن سر مكتوم خلف الرسوم، وأومات لي إلى مفتاح أبوابه فإذا هي حروف المعاني وأثارها وصياغة الأفعال وأستارها وتقديمها وتأخيرها إلى غير ذلك من أدوات العربية وآلاتها فدعاني الولع بها أن أخلو وإياها في ساعات من الليل آخره، توسلت إليها بمن أنزلها أن تدخلني في محارمها لتلقي حجابها، وتكشف سترها وبعد أن أخذ مني الطمع كل مأخذ، سارقتها النظر، فكلما وقعت عيني على طرف من زينتها، قلت: باسم الله، وتناولت ما وصلت إليه يدي، وأسعفت فيه آلتني، واحتالت عليه حيلتي، فجمعت ما التقطت في هذا المجموع مما زعمت فيه أنه نهاية جهدي وغاية أمري وحسبي أنني أعترف أنّ في قرائني من هو أطول بدأً وأكمل آلة وأوسع حيلة.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### طريقتي في تحليل النصوص

أجمل لقرائي طريقتي في تحليل النصوص في النقاط الآتية:

أولاً: تركت الحديث عن أسباب النزول إلا فيما مست إليه الحاجة أو دعت إليه الضرورة لأن أسباب النزول غير ما أنا بسبيله من قانون التحليل.

ثانياً: ألفت جميع ما عندي من أفكار وآراء مسبقة عن النص، وطرحته نفسي أمامه، يخاطبني خطاب من لم يسمع عنه شيئاً، وفتحت له آفاق نفسي كلها، فإذا تأدى إليّ معنى أو أكثر من معانيه عارضت ذلك بما تأدى إلي من سبقني حسب ما يسمح به الزمان والمكان وسجلت ما أحسب أنه راجحاً بعد ذكر ما تأدى من المعاني إلى غيري إن رأيت في ذلك مصلحة.

ثالثاً: عمدت إلى إعادة الكلم إلى جذورها، أستقصي حقائقها؛ مجردة ومزينة لأتعلم سر نقلها وانتقالها.

رابعاً: رزت حروف المعاني مع عمالها في سياقها فأثبت ما عن لي أنه الأقرب إلى تأدية المعنى وأنا على يقين أن ذلك من مطارح العراك لغة وبياناً.

خامساً: أجهدي تغليب كلمات الجمل تقديماً وتأخيراً، صلة وحذفاً، عطفاً وذكرأ، لأقرر سر العدول عن جميع هذه الوجوه إلى صورة النص في صياغته.

سادساً: كنت آخذ ما تأدى إليّ من المعنى وأحاول صياغته في صورة أخرى لأضع يدي على سر الإعجاز في الإيجاز فأثبتته.

سابعاً: حضرت بما عندي من الموروث الثقافي، أستعين به في اكتشاف مخزون النص، فكانت معارفي على تواضعها لا تبخل عليّ في الإيماء إلى معنى أو الإشارة إلى سر أو إلى الاثنتين معاً.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ثامناً: سافرت إلى عصر نزول النص أستقرئ أثره النفسي والاجتماعي والعسكري يوم نزوله والإعلان به وسجلت بعض ذلك تدريباً للطالب وجلاءً لوجه من وجوه التحليل بعد أن تراكم عليه غبار الزمن.

تاسعاً: كثيراً ما كانت تضعف أدواتي في فتح كنوز النص فأطلب العون من كل ما أتوهم فيه معيناً فإذا أعياني الطلب طرحت نفسي بين يدي ربي بالافتقار والعجز وبالاستغفار والإنابة متوسلاً ضارعاً، فكانت أحياناً تشرق على روعي وعقلي بعض أنوار المعاني في النص أحس أنها كانت قريبة مني فلم أرها فأسارع إلى تدوينها مخافة احتجابها ثانية.

عاشراً: نظمت ما قصدت إلى تحليله من أي آل عمران في أربعة عشر فصلاً يحتوي كل فصل من الآيات ما أتوهم أن بينها أصرة، وأوسعت لها صدر الفصل لتكون أول ما يباشرها النظر ويعانقها اللقاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



## التمهيد

### في معنى التفسير التحليلي

نقدم فيه تعريفاً باسم الكتاب وعنوانه من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية ليكون القارئ على بينة مما قصدنا إليه في هذا الكتاب، وتتبعه بتمهيد حول سورة آل عمران عموماً.

#### أولاً: التعريف اللغوي:

اسم الكتاب مركب من كلمتين — التفسير والتحليل — ومعرفة المركب متوقفة على معرفة أجزائه لهذا جعلنا لكل كلمة منهما تعريفاً الخاص بها.

أ- كلمة التفسير:

التفسير: مصدر الفعل المضعف — فسّر — فهو من باب التفعيل جاء في المغني في تصريف الأفعال: "أن الأغلب في فعل أن يكون للتكثير إما في الفعل نحو: جَوَلْتُ وطَوَّقْتُ أي أكثرت الجولان والطواف أو أن يكون في الفاعل نحو: مَوَّتَ الإبل أي كثر فيها الموت أو يكون التكثير في المفعول نحو: غَلَقْتُ الأبواب أي الأبواب الكثيرة ولهذا لم يجز: غَلَقْتُ الباب"<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فكلمة التفسير فيها دلالة على الكثرة في الفعل والكثرة في المفعول ولا تدل على كثرة الفاعل إلا بتكلف، هذا هو المعنى الصرفي للكلمة، وإليك المعنى القاموسي، يقال: فسّر الشيء أي أبانه، والفسر: البيان وكشف المغطى؛ ويقال: "فسرت الحبة أي ظهرت إذا نبئت وبانت على وجه الأرض"<sup>(٢)</sup>.

#### ب- كلمة التحليل:

التحليل: مصدر الفعل المضعف — حلّل — وهو من باب التفعيل أيضاً فيأتي

(١) المغني في تصريف الأفعال: ص: ١٠٧-١٠٨.

(٢) اللسان ج ١، ٢٦١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فيه ما ذكرنا في التفسير فأغنى عن إعادته، وأما المعنى القاموسي لكلمة التحليل فهو التجزئة والتفكيك تقول: "حلَّ العقدة أي فتحها ونقضها"<sup>(١)</sup> فإذا أردت التكثير قلت: حلَّ العقد أي فككها.

### ثانياً: التعريف الاصطلاحي:

"التفسير التحليلي" هو تبين معاني الكلم القرآني إفراداً وتركيباً بواسطة تفكيك الآيات والجمل والكلمات إلى أجزائها ليعطى كل جزء ما تستحقه من البيان.

ثالثاً: سورة آل عمران: مدنية وآياتها مائتان

أسماء سورة آل عمران: "الزهاء، الأمان، الكنز، المعينة، المجادلة، سورة الاستغفار، طيبة"<sup>(٢)</sup>

سبب نزولها عند الجمهور: "أنه وفد على رسول الله ﷺ وفد نجران وكانوا ستين راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم: أميرهم؛ العاقب عبد المسيح، وصاحب رحلهم؛ السيد الأيهم، وعالمهم؛ أبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، وذكر من جلالتهم وحسن شارتهم وهياتهم وأقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ﷺ ويزعمون تارة أنه الله وتارة أنه ولد الإله، وتارة ثالث ثلاثة ورسول الله ﷺ يذكر لهم أشياء من صفات الله تعالى وانتفائها عن عيسى ﷺ وهم يوافقونه على ذلك ثم أبوا إلا جحوداً ثم قالوا: يا محمد ألسنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال "بلى" قالوا: فحسبنا فأنزل الله فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية منها، إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهاال"<sup>(٣)</sup>.

(١) اللسان: ج٣، ص: ٣٠٠.

(٢) البحر المحيط: ج٣، ص: ٩.

(٣) المصدر نفسه: ج٣، ص: ٩.

# الفصل الاول

في أدلة الوجدانية  
والرسالة



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### الفصل الأول

#### في أدلة الوحدانية والرسالة

﴿الذِّكْرُ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ (الآيات ١-٦)

﴿الذِّكْرُ﴾

الحروف المقطعة جميعها لا يدخلها التحليل بأي شكل من أشكاله فلا مجال لإدخالها في موضوعنا هذا لذا رأينا أن نتخفف الحديث عنها.

﴿اللَّهُ﴾

أكثر المفسرين على أن لفظ الجلالة اسم علم للذات الإلهية لأنه لو كان اسماً مشتقاً من أله يأله كما يذهب إليه بعض المفسرين لكانت دلالته على الذات الإلهية من باب دلالة المجرم على أفرادها فلا يمتنع صدقه على غير الذات الإلهية وذلك يبطل دلالة كلمة الوحدانية على وحدانية الله تعالى، ضرورة صدق المشتق على المفهوم الكلي من غير تعيين<sup>(١)</sup>، ويؤيد القول بالعلمية: أن الاسم — الله — يجوز وصفه بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بدون العكس<sup>(٢)</sup>، ولو قلنا ان

(١) التفسير الكبير ج: ١، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٢) المصدر نفسه.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الاسم - الله - ليس علماً على الذات لم يبق بأيدينا اسم أخص منه في الدلالة عليها، وبذلك ينبغي أن يكون للذات الإلهية اسم علم يدل عليها وهذا يتعارض مع نص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾<sup>(١)</sup> ولفظ الجلالة - الله - هو "الاسم الوحيد الذي لم يتسم به غير الله"<sup>(٢)</sup>، وأقرب أقوال القائلين بالاشتقاق: أنه من إله يأله، تقول: أله إلى فلان إذا سكن إليه.

وعلى رأيهم أن كلمة -الله- أصلها: الإله، فحذفت الهمزة للتخفيف فصار: الله ولو كان ما يذهبون إليه صحيحاً لكان نظم الآية مرتباً فكيف يصح النظم فيها على هذا المعنى: الإله لا إله إلا هو، وسواء قلنا إن الألف واللام للجنس أو للعهد فلا يخرجنا من هذا الارتباك.

### ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

من المتفق عليه عند علماء اللغة، إن الإثبات بعد النفي هو من أقوى صيغ الحصر وذلك أن النفي للجنس فيكون المعنى: لا إله موجود إلا هو أو لا إله في الوجود إلا هو.

### ﴿الْيَاءُ﴾

أصل حي: حيي بياعين فأدغمت الياء في الياء وقيل أصلها: حيو فاجتمعت الياء والواو وكان السابق منهما ساكناً فقلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء<sup>(٣)</sup>.

(١) مريم: ٦٥.

(٢) التفسير الكبير: ج ١، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٣، ص: ٨.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وتطلق الحياة على كل من يصح منه أن يعلم ويقدر هذا قول المتكلمين وذكره الرازي رحمه الله واعترض عليه بأن هذا المعنى لا يصح أن يكون صفة مدح يمدح بها الله تعالى لأن هذا المعنى للحياة تتصف به الحيوانات بله الإنسان فكيف يمدح به الخالق جل شأنه؟ وأجاب رحمه الله تعالى بما يأتي: "إن الحي في أصل اللغة ليس عبارة عن هذه الصفة بل كل شيء كان كاملاً في جنسه فإنه يسمى حياً ألا ترى أن عمارة الأرض الخربة تسمى: إحياء الموات. قال تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾<sup>(١)</sup>، إلى أن قال رحمه الله: "لأن المفهوم من الحي: هو الكامل ولما لم يكن مقيداً.. دل على أنه كامل على الإطلاق والكامل في الحياة أن يكون غير قابل للعدم لا في ذاته ولا في صفاته.."<sup>(٢)</sup>.

والحياة صفة معنوية يتصف بها الخالق والمخلوق نقول عن الخالق إنه حي ونقول عن المخلوق: إنه حي ولكن لما كان الخالق عَلَمٌ واجب الوجود كانت حياته واجبة ولما كان قديماً كانت حياته قديمة ولما كان باقياً كانت حياته باقية وهذا على خلاف اتصاف المخلوق بالحياة فلما كان وجوده جائزاً كانت حياته جائزة ولما كان فانياً كانت حياته فانية ولما كان حادثاً كانت حياته حادثه، وهذا شأن الصفات المعنوية المنسوبة إلى الخالق جل اسمه والتي يصح نسبتها إلى المخلوقين يجب ملاحظة هذا الفارق فيها، ولعل تحلية الاسم - حي - بالألف واللام الدالان على الكمال هي التي جعلت هذه الصفة من الصفات التي مدح بها الخالق نفسه.

(١) الروم: ٥٠.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣، ص: ٩٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿الْقِيَوْمُ﴾

قيوم: صيغة من صيغ المبالغة أصلها: قيوم فقلبت الواو الأولى ياءً وأدغمت في الياء، قال مجاهد: القيوم: "القائم بتدبير أمر الخلق إيجاباً ورزقاً وغير ذلك"<sup>(١)</sup>، ويأتي في القيوم ما ذكرناه في الحي من أن الألف واللام فيه للكمال وأن هذا الاسم يدل على قيومية الحق أزلاً وأبداً وأن قيوميته واجبة لذاته عَلَيْهِ السَّلَامُ بخلاف اتصاف المخلوقين بهذه الصفة، وجاء في قراءة - القِيَام - وهي أيضاً من صيغ المبالغة ولكنها أقل من القيوم ﴿زُلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مَصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ

### وَالْإِنْجِيلَ

### ﴿زُلَّ﴾

من المزيد على الثلاثي: نزل بحرف واحد الذي هو التضعيف وإنما جاءت هذه الزيادة لتعذر نسبة النزول إلى القرآن نفسه فلا يقال: نزل القرآن، وإنما اختيرت نزل على أنزل وكلتاها تفيد التعدية لأن نزل تفيد التكرير ومن المعلوم أن القرآن أنزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة وللدلالة على مكانة القرآن الكريم وشدة حمله وإنزاله كما نقول حملت زيدا كذا إذا كان ما حملته ثقيلاً ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، وللتفريق بين القرآن الكريم وبين الكتابين - التوراة والإنجيل - لأن الثلاثة جاء ذكرهم في هذه الآية.

وقد يزداد على هذا أيضاً أن أنزل تعني مصاحبة المنزل للمنزل بخلاف نزل، والقرآن لا يتأتى فيه ذلك لعدم تحمل الطاقة البشرية حمله مرة واحدة

(١) التفسير الكبير: ج: ٣، ص: ٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ومصدق هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سُلِّقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ومصدقه أيضاً ما كان يطرأ على النبي ﷺ حين يتلقى القرآن من الشدة والضيق حتى إنه ليتفقد عرفاً في اليوم الشديد البرد كما حكى ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

### ﴿عَلَيْكَ﴾

قدم الجار والمجرور للاختصاص أي نزل عليك لا على غيرك، وفيه رد على الغلاة الذين يقولون إن القرآن أنزل على علي عليه السلام، ولكن جبريل انحرف فيه إلى محمد ﷺ والشيعية الإمامية يتبرعون من هذا القول ومن قائله. و(على) من حروف الجر التي تفيد الاستعلاء ولا يخفى ما يفيد هذا الحرف في هذا الموقع حيث التنزيل من الخالق إلى المخلوق ومن الكلام الإلهي إلى لغة البشر، والكاف فيها كاف المخاطب، والمخاطب مباشرة من الخالق إلى محمد ﷺ وهي تفيد التخفيف من ظل الوسيط — جبريل عليه السلام — وتوصل المخاطب بالمخاطب.

### ﴿الْكِتَابِ﴾

الفعل الثلاثي كَتَبَ يَكْتُبُ من باب نَصَرَ يَنْصُرُ، والمصدر كَتَبًا وكتاباً وكتابة قال في المختار: والكتاب أيضاً: "الفرض والحكم والقدر" (١)، والكتاب هنا: القرآن لأن أَل فيه للعهد والمعهود إنما هو القرآن لا غير.

### ﴿بِالْحَقِّ﴾

يميل أكثر المفسرين إلى أن هذه الكلمة — بالحق — صفة للقران مثلها مثل

(١) مختار الصحاح: ص ٢٣٦

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الكلمة التي تليها "مصدقاً"، يقول الإمام الرازي: "واعلم أنه تعالى وصف القرآن المنزل بوصفين: الوصف الأول: قوله — بالحق — قال أبو مسلم إنه يحتمل وجوهاً: أحدها: أنه صدق فيما تضمنه من الأخبار عن الأمم السابقة.

وثانيها: أن ما فيه من الوعد والوعيد يحمل المكلف على ملازمة الطريق الحق في العقائد والأعمال ويمنعه عن سلوك الطريق الباطل.

وثالثها: أنه حق بمعنى أنه قول فصل وليس بالهزل.

ورابعها: قال الأصم: المعنى أنه تعالى أنزله بالحق الذي يجب له على خلقه من العبودية وشكر النعمة وإظهار الخضوع، وما يجب لبعضهم على بعض من العدل والإنصاف في المعاملات.

وخامسها: أنزله بالحق لا بالمعاني الفاسدة المتناقضة كما قال ﴿الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وهم يميلون إلى اعتبار الباء زائدة ويؤولون الآية على معنى: محققاً مصدقاً، وكلمة حق مصدر حقٌ يحقُّ حقاً ومعناها ثبت ومنه الحديث: (حق الغريم وبرئت نمة الميت) والحق ضد الباطل والحق: الثابت والواقع، والإخبار عن الحق يقال له صدق.

والذي أراه في معنى هذه الكلمة — بالحق — أن الباء ليست زائدة وأن المعنى على تقدير — حاكماً بالحق — لا سيما وأن دلالة الحكم مأخوذة في لفظ الكتاب كما ذكرنا سابقاً.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يقال: صدق زيد إذا أخبر عن حق وواقع، ويقال: صدق زيد خالداً؛ إذا نسب خالداً إلى الصدق فيما أخبره به، ويقال: صدق زيد لخالده ما أخبر به؛ إذا أثبت زيد أن ما قاله خالد صدقاً، أي أن القرآن نزل ليحكم بالحق ويثبت صدق الأنبياء والمرسلين وصدق ما أنزل عليهم من ربهم في وقت يعجز المنسوبون إلى الديانات السابقة عن إثبات صدق أنبيائهم ورسولهم وكتبهم المنزلة من عند الله. وبذلك يكون القرآن هو الحجة الوحيدة الباقية أيد الدهر لجميع الأنبياء والمرسلين ولجميع ما أنزل عليهم من كتاب، كل ما وقع من معجزة لأي نبي أو رسول لا يمكن قيام الحجة به الآن على أحد من الناس إلا عن طريق القرآن والقران وحده، ولهذا كان القرآن شاهداً على الكتب كلها وكان محمد ﷺ شاهداً على صدق الأنبياء والرسل جميعاً وكانت أمة محمد ﷺ شاهدة على الأمم قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

الخطاب خطاب الحق ﷻ أرسل الرسل قبل محمد ﷺ وأنزل الكتب قبل تنزيل القرآن ، ولهذا صح أن يقال عنها وعنهم بين يديه.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

أنزل وليس نزل، بالنسبة للتوراة والانجيل، وكأنها طريقة القرآن الكريم عندما يذكر النزول للقران ولغيره من الكتب في آية واحدة يستعمل نزل للقران وأنزل لغيره، ولكنه عندما يتحدث عن القرآن فقط يستخدم صيغة أنزل وليس نزل كما في قوله تعالى: ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿التَّزْيِينَةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾

قال الزمخشري في الكشاف: "إسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل ووزنهما بـ(تفعلة وإفعيل) إنما يصح بعد كونهما عربيين قال: وقرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهمزة وهو دليل على العجمة لأن أفعيل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب" قال الرازي: واعلم أن هذا القول هو الحق الذي لا محيد عنه".

﴿مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِنَّاسٍ وَأَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ شَدِيدًا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

ذُو أَنْبَاءٍ﴾

### ﴿مِنْ قَبْلِ﴾

أي من قبل أن ينزل القرآن، وفي ذلك إقامة الحجة على النصارى كأن الله يقول لهم: هذه سنننا في هداية الناس ننزل الكتاب بعد الكتاب ونرسل النبي بعد النبي ولو كانت حجتكم مقبولة في عدم إنزال كتاب بعد كتابكم لسرى ذلك إلى دحض حجتكم في إثبات كتابكم فإن أهل التوراة سيقولون لكم ما تقولون عن إنزال القرآن، فإفادة هذه الكلمة — من قبل — مع نصبتها على الزمن تدل على هذا المعنى، وهكذا جاءت إضافة القبلية إلى الزمن فقط كأنه يقول: من قبل ذلك، ولو قال من قبله لأمكن استشعار قبلية الرتبة على القرآن وهذا لا يتناغم مع ما قاله قبل ذلك ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لتتصيص هذه على حاكميته على الكتابين وتصديقه لهما فهما بحاجة إليه في كلا الأمرين.

### ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

هدى: أي دلالة لمن يريد أن يستدل أن الكتب ترسم الطريق وتضع عليه السبيل والعلامات؛ إنها تشير إلى الخطأ وتسميه باسمه، وتتصح بالصدق والعدل

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وتحضر عليه، إنها هادية فعلاً فمن أراد الهداية اهتدى ومن أراد الأخرى فلا يلومن إلا نفسه.

### (هُدَى)

لأنه هادٍ المملوك إلا مالكة!!! فهو هدى خاص بهم أنزل بلغاتهم وأعرافهم وتقاليدهم ولو تقدمت اللام على كلمة هدى لضاع هذا المعنى.

### (النَّاسِ)

فهو ملك لهم وخاص بهم وهم المقصودون به أولاً قبل غيرهم، قال صاحب المختار: النَّوس تذبذب الشيء، وبابه: قال. وأناسه غيره. وهذا يعني أن الفعل: ناس فعل لازم تقول: ناس فلان إذا تذبذب وتقول: أناس زيداً خالداً إذا كان زيد هو الذي جعل خالداً يتذبذب، وقال صاحب المختار: ناس أصله أناس مخفف، ولما كانت هذه التسمية تدل على مطلق التذبذب قال صاحب المختار: والناس قد يكون من الأنس ومن الجن<sup>(١)</sup> فالكتب تهدي وتدل وترشد الجميع والناس هم الذين يختارون ويقررون انطلاقاً من إيمانهم بالكتاب الهادي وعدم إيمانهم به.

### (وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ)

اختلفت كلمة المفسرين في المراد هنا بالفرقان وكما يأتي:

أ- أن الفرقان هنا هو الزبور قال تعالى ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

ب- أنه القرآن وإنما أعاده تعظيماً لشأنه أو أن الله أعاد ذكره ليؤكد ما سبق من

(١) مختار الصحاح: ص: ٢٨٥

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أنه الحاكم بالحق بين الكتب فيما اختلفت فيه وأنه هو الذي يصدقها ويثبت إنزالها من الله.

ج- أنه شامل للكتب الثلاثة لأنها فرقت بين الحق والباطل.

واستبعد الإمام الرازي كل هذه الأقوال بدليل أن الزبور ليس فيه شيء من الشرائع والأحكام بل هو مقتصر على المواعظ، وحمل الفرقان على القرآن ترده قواعد اللغة إذ من ضرورة عطف الفرقان على القرآن مغايرة المعطوف للمعطوف عليه، وهذا الدليل يبعد القول الثالث لأن كون الكتب الثلاثة فارقة بين الحق والباطل صفة لهذه الكتب وعطف الصفة على الموصوف بعيد عن وجه الفصاحة والبلاغة اللاتقة بكلام الله تعالى ثم تمخض الإمام عن رأي رابع فقال:

د- والمختار عندي في تفسير هذه الآية وجه رابع وهو أن المراد من هذا الفرقان المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب. قال رحمه الله: "وهب أن أحداً من المفسرين ما ذكره إلا أن حمل كلام الله تعالى عليه يفيد قوة المعنى"<sup>(١)</sup> وهذا يمكن القول به فيما يخص التوراة والإنجيل لأن المعجزات التي دلت على صدقها خارجة عنها - إذا كان ذلك مسلماً به - أما القرآن الكريم فأعجازه صفة من صفاته فيكر عليه دليله السابق بالإبطال.

### ﴿الْفُرْقَان﴾

جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم في المواضع الآتية:

١. في سورة البقرة آية ٥٣ قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَكُمْ

تَهْتَدُونَ﴾

(١) التفسير الكبير: ج٣، ص١٣٣-١٣٤.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

٢. وفيها أيضاً آية ١٨٥ قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ...﴾.

٣. الآية التي معنا في سورة آل عمران.

٤. في سورة الفرقان الآية الأولى قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

٥. في سورة الأنفال آية ٤١ قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا

أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٦. في سورة الأنبياء الآية ٤٨ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ

وَضِيكَا وَذِكْرَ الْمُتَّقِينَ﴾.

٧. في سورة الأنفال الآية ٢٩ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ

لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وبعد أن أحصينا مواضع الكلمة في الكتاب الكريم ينبغي لنا أن نتبين معناها في معاجم اللغة، قال في المختار: فرق بين الشبيين من باب نصر، فيكون المصدر من فرق كالمصدر من نصر وهو — فرقا. وقال: وفرقانا أيضاً<sup>(١)</sup>. وبهذا يتبين لنا أن كلمة فرقان مصدر ومعلوم بداهة أن المصادر كالعلم والحياة من الأمور المعنوية التي لا وجود لها في الخارج إلا من خلال الأشخاص المتصفين

(١) مختار الصحاح: ص: ٢١١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بها فيقال فلان عالم وحى ولا يقال فلان علم وحياء إلا على ضرب من ضروب المجاز، ويقال بناءً على ذلك أن التوراة والإنجيل والقرآن كلاً منها فارق بين الحق والباطل باعتبار ما فيها من الحكم بالحق وإقامة العدل والميزان فالحكم بالحق جزء من كل منها وليس كلها، وإذا كان ما نذهب إليه صحيحاً كان معنى كلمة الفرقان في هذه الآيات أقرب مأخذاً وأبعد عن مواطن الضعف والله أعلم.

### ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا جَاءَتْ اللَّهُ﴾

تقول كفرت الشيء إذا سترته فالكافر الساتر ولهذا يقال لقشر الطلع: كَفَرَى لأنه يستر ما تحته ويسمى الزراع كُفَاراً لأنهم يسترّون الحب في الأرض ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَمْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وهذه الآية تهديد لأهل الكتاب ولا سيما النصارى الذين نزلت هذه الآيات بسببهم.

والآية: العلامة والمقصود هنا الآيات الموجودة في كتبهم الدالة على نبوة

محمد ﷺ .

### ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

لهم: التعبير باللام في هذا الموقع جاء ليدل على أن هذا النوع من العذاب الشديد من اختصاصهم فكأنه لهم دون غيرهم، وهو لهم ثابت متحقق في الدنيا والآخرة على السواء فالكاذب يكفيه من العذاب والألم علمه أنه كاذب أوّلاً وتخوفه على كذبه ثانياً ورد أقواله وحتى الصحيحة منها لاختلاط صدقه بكذبه ثالثاً وهي مراحل من ظلمات النفس بعضها فوق بعض.

### ﴿عَذَابٌ﴾

(١) النمل: ١٤ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يقال عذب الماء إذا زالت الأخلاط العالقة به والعذاب على هذا هو زوال الأخلاط<sup>(١)</sup>، والعقوبة كما يقول أرباب القانون الجنائي هدفها الإصلاح والتقويم وليس الانتقام أو إيقاع الأذى على الجاني، فتسمية عقوبة الذين يكفرون بآيات الله بالعذاب تقرب من هذا المعنى وتلك سنة الله في أجزية المنحرفين عن الطريق القويم.

### (شديد)

يقال: شيء شديد إذا كان بالغ القوة، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>، أي قوته، ويقال: شدّه إذا أوثقه<sup>(٣)</sup> ووصف العذاب بالشدّة دليل على أن هؤلاء الذين كفروا بآيات الله يحيط بهم الأذى من كل جهة من داخل أنفسهم ومن خارجها فهم موثقون به وثاقاً شديداً.

### (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

خالف بين الوصفين فالعزير صفة ذات ولهذا قال: والله عزيز ولم يقل: والله عزيز منتقم لأن الانتقام صفة فعله وليس صفة ذاته فلا ينسب هذا الاسم للرب تعالى مثل نسبة العزيز فليس هو جل جلاله بدائم الانتقام حتى يصح أن يقال في صفته إنه منتقم، والعزيز الغالب "ذو انتقام" أي صاحب انتقام. يقال: نقم عليه أي

(١) لسان العرب: ج: ٩، ص: ١٠٠.

(٢) الأحقاف ١١٥.

(٣) مختار الصحاح: ص: ١٤٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

عاقبه ونقمه أي كرهه وانتقم منه أي عاقبه<sup>(١)</sup> فجاء الحق **عَنْ** بهذه الصيغة لتشمل الوجوه الثلاثة فهو يعتب عليهم ويكرههم ويعاقبهم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾

حرف تأكيد وإنما جيء به هنا لأن الذين كفروا بآيات الله تصرفوا تصرف الجاهل يعلم الله فنزل عدم اكترائهم بعلم الله بهم منزلة المنكر.

﴿ لَا يَخْفَىٰ ﴾

لا: قال الجوهري: حرف نفي لقولك يفعل ولم يقع الفعل<sup>(٢)</sup>، ولا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع يمكن أن يراد به نفي الفعل في جميع أجزاء المستقبل أو يكون المراد به نفي الفعل في بعض أجزاءه، فلو قال لك شخص: قم، فقلت: لا أقوم. كان النفي صالحاً لتأبيد النفي ولعدم تأبيده<sup>(٣)</sup>، ويتعين التأبيد من عدمه بالقرائن، وذلك لأن الفعل المضارع بحسب وضعه يكون شائعاً ثم يعرض له التخصيص بحسب ما يلحق به<sup>(٤)</sup>.

﴿ عَلَيْهِ ﴾

يقال خفي عليه إذا طلبه فلم يجده، وهو معنى الاستعلاء في الخفاء.

﴿ شَيْءٌ ﴾

(١) انظر مختار الصحاح: ص: ٢٨٣.

(٢) لسان العرب ج ١٢، ص: ٢٠٨.

(٣) محيي الدين عبد الحميد على أوضح المسالك ج: ٤، ص: ١٤٩-١٥٠.

(٤) نفس المصدر ج: ٤، ص: ١٤٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

نكرة بل أنكر النكرات فتدل على كل موجود صغيراً كان أو كبيراً.

### (فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

في يدل على الظرفية في كل شيء بحسبه، فلا يتخصص بما بطن في الأرض أو في السماء.

(وَلَا فِي السَّمَاءِ) كررت لا في هذا الموضع للدلالة على عدم إمكان الخفاء في أي منهما، ولو لم يقل ولا في السماء لأمكن تفسيرها بأن النفي وارد على المجموع لا على كل منهما<sup>(١)</sup>.

### (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

جاءت هذه الآية دليلاً للآية التي قبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فإذا كان هو  $\text{صَوَّرَ}$  يصورنا في الأرحام فكيف يخفى عليه شيء في الأرض أو في السماء؟! والتعبير بـ هو - في افتتاح الآية وهو من ضمائر الفصل يدل على الحصر في هذا التصوير. فيكون المعنى: هو الذي يصوركم في الأرحام.... لا غيره، وكلمة الذي بعد ضمير الفصل جاءت كذلك لتؤكد هذا الحصر - هو الذي - يصوركم: الفعل الثلاثي المجرد صار - وأصله، صَوَّرَ، من باب قال أو صَوَّرَ يَصَوِّرُ من باب باع. يقال: صَوَّرَ الطين إبريقاً إذا جعله على صورة الإبريق .

ويقال أيضاً: صار الطين إبريقاً، إذا تحول إلى صورة إبريق، ولكن صار هنا من اليائي فأصلها صَيَّرَ يَصَيِّرُ الدالة على الإحالة<sup>(٢)</sup>، فيصورنا هو  $\text{صَوَّرَ}$  لأننا لا يمكن أن نصير على صورة دون أخرى بدون مصور يقوم بتصويرنا على كيفية

(١) لسان العرب ج ١٢، ص: ٢٠٨.

(٢) مختار الصحاح ص: ١٥٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

من الكيفيات الممكنة، فلا يقال: صار زيدٌ نفسه طويلاً أو أبيضاً أو غير ذلك من الكيفيات ضرورة انتساب الأثر إلى مؤثر.

ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، والمخاطبين قد تم تصويرهم فكان الظاهر أن يأتي الفعل على صيغة الماضي — هو الذي صوركم — فلماذا هذا العدول من صيغة الماضي إلى المضارع؟ فنقول في الجواب:

أولاً: لتدل الآية على التجدد في كل لحظة لأنه ما من فرد من أفراد الزمن إلا ويتم فيه تصوير جنين في بطن أمه.

ثانياً: لتكون الكلمة دليلاً على أن ذلك سنة من سنن الله الدائمة مثل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّدُ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾.

ثالثاً: أن الخطاب الإلهي أزلي ونحن كنا من جملة المعلومات بالنسبة للعلم الإلهي فكان الله يخاطب معلوميتنا له بهذا الخطاب قبل أن نأخذ صورتنا الخارجية.

### (فِي الْأَرْحَامِ)

أي أن الأرحام هي الظرف لهذا التصوير. والأرحام جمع رحم. وسمى الرحم رحماً لأن الذين ينزلون من رحم واحدة يكونون متراحمين فيما بينهم.

### (كَيْفَ يَشَاءُ)

الكيف يعم جميع الأحوال الخلقية وعلقت عملية التكيف بالمشيئة الإلهية والمشيئة الإلهية لها عموم الحكم والنفوذ فليس بمقدور شيء أن يعارض هذه المشيئة فما شاء الله أن يكون كان وما شاء الله أن لا يكون لم يكن، وما شاء الله فيه خيرة عبده ومشيتته كان موكولاً لمشيئة عبده وخيرته.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

لا: لنفي الحقيقة مطلقاً أي أن حقيقة إله غير الله غير موجودة أصلاً ولهذا لا يصح أن يتوجه النهي إلى شيء أن لا يكون إلهاً لعدم إمكان أن يكون شيء إلهاً غير الله الإله الواحد الأحد؛ وإعادتها للتأكيد.

### (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

العزیز: الغالب الذي لا يغلبه شيء هو خالق كل شيء فكيف يغلبه شيء؟ والحكيم في هذا التصوير فلا أحكم منه، لأنه القادر على أن يعطي كل مخلوق صورته التي لا يشترك معه فيها غيره ممن مضى ولا ممن يأتي هو مصور الجميع فلا تختلط المخلوقات لتمييز صورها فلو كان المصور غيره لاحتاج استحضار صور العالم كله منذ بدايته إلى حين نهايته ليختار صورة جديدة تمتاز عن غيرها.

وفي هذه الآية بكل فقراتها ردٌّ على النصارى في عقيدتهم المنحرفة بعيسى عليه السلام فالذي صور في رحم أمه على الكيفية التي أَرادها الله لا يصح له يصح له منازعة الألوهية في أحكامها.





## الفصل الثاني

في المحكم والمتشابه  
وموقف أهل الأيمان وأهل  
الزيغ منهما



## الفصل الثاني

### في الحكم والمتشابه وموقف أهل الأيمان وأهل الزيغ منهما

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُؤِخِّرْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْعَاهِدَ ﴿٩﴾ آل عمران: ٧ - ٩.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

(أَنْزَلَ)

من الثلاثي المزيد همزة من أجل التعنية لأن الفعل الثلاثي - نزل - فعل لازم فلا يصح تعديته إلا بالزيادة في بنائه إما بالتضعيف أو بالهمزة، وإنما جاء هذا التلوين في التعبير عن إنزال القرآن الكريم حيث جاء مرة - نزل - بالتضعيف ومرة بالهمزة ليدل على أن هذا الكتاب لا يصح أن ينزل بنفسه بل لا بد من منزل له فقال: أنزل وليدل على شدة التنزيل وثقله قال: نزل وفيه إشارة إلى اختلاف طرق التنزيل وصوره وأشكاله فجاء بالطرق الجائزة في تلوين الفعل والله أعلم.

(عَلَيْكَ)

أي لا على غيرك، وفيها ردٌّ على الطوائف الشاذة التي تتوهم المشاركة في التنزيل أو أن الأولى كان إنزاله على كذا إلى غير ذلك مما يختلفه أعداء

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الإسلام قديماً وحديثاً، والخطاب يزيل الوحشة بين المخاطب و المخاطب لإشعاره بالقرب.

﴿الْكِتَابِ﴾

أي القران باتفاق المفسرين<sup>(١)</sup>.

﴿مَنْهُ آيَاتٌ﴾

مبتدأ وخبر و"من" هنا للتبويض أي بعضه محكم والآخر متشابهة.

﴿مُحْكَمَاتٌ﴾

المحكم مأخوذٌ من قولك: أحكمت الشيء إذا أتقنته.

﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾

أي متقنات في دلالتها على معناها بحيث لا يختلف اثنان في دلالتها على المعنى الذي سيقنت له.

وهذه الآيات تمثل ضروريات الإسلام في كل باب من أبوابه المختلفة فلا يختلف المسلمون في وجوب الصلاة ولا في وجوب الزكاة ولا في وجوب الحج إلى غير ذلك من واجبات الإسلام التي علمت من الدين علماً ضرورياً ومثل الواجبات جميع المحرمات في الإسلام مما يستوي في العلم بها الجاهل والعالم. قد يختلف العلماء في تكييف حكم شرعي ولكنهم لا يختلفون في النص الحاكم لأنه محكمٌ كوجوب الصلاة والزكاة والحج وقطع يد السارق وتحريم الربا و... إلى جميع فرائض الإسلام فانظر هل أنت واجدٌ بين علماء المسلمين من يختلف فيها؟ كلهم يقول: حكم الله في السارق قطع اليد مثلاً والخلاف إنما هو في

(١) التفسير الكبير ج٣، ص:١٤٢. البحر المحيط ج:٣، ص:١٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تكيف الحكم لا في النص الحاكم، إن هذا الاختلاف أمرٌ تقتضيه طبيعة اللغة الإنسانية والطبيعة البشرية والقدرة على الإحاطة بكل احتمالات النص كل قوانين البشرية فيها جانب محكم وجانب غير محكم ولا يمكن أن يكون الأمر إلا هكذا.

### ﴿مَنْ أُمَّ الْكَتَبِ﴾

أُمُّ الشَّيْءِ أصله ويقال لمكة أُمُّ الْقُرَى لأنها الأصل لجميع القرى التي حولها<sup>(١)</sup>.

### ﴿أُمَّ الْكَتَبِ﴾

لما كانت الآيات المحكمات معلومة الدلالة على معانيها والمتشابهات ليست كذلك وجب الرجوع إلى الأصل المتفق عليه إذا حصل أي اختلاف في فهم المتشابه لأن المحكمات هُنَّ الأُمُّ التي يُرجع إليها أو هي كالأُمِّ للمتشابه<sup>(٢)</sup>.

### ﴿مَنْ﴾

استخدم القرآن ضمير العاقل — هن — للآيات المحكمات تنزيلاً لهنّ منزلة من يعقل لإتقانهن وإحكامهن.

### ﴿وَأَخْرُ﴾

جمع أخرى وأخرى تأنيث آخر و(آخر) أصلها: أَمْرٌ على صيغة أفعل التفضيل، وأفعل التفضيل يستعمل إما مع من أو مع الألف واللام فيقال: زيد أفضل من عمرو أو زيد الأفضل فكان القياس أن يقال: زيد آخر من عمرو أو زيد الآخر بمعنى: الأكثر أو الأشد أخرية إلا أنهم حذفوا منه لفظ من لأن لفظ آخر يقتضي

(١) مختار الصحاح: ص: ١٨.

(٢) التفسير الكبير ج ٣ ص ١٤٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

معنى من فاسقطوها اكتفاءً بدلالة لفظ آخر عليها وبما أن الألف واللام يتعاقبان مع من على الدخول على آخر فسقط الألف واللام أيضاً فلما جاز استعمال آخر بدون الألف واللام صار آخر فترك جمعه فصارت هذه اللفظة معدولة عن حكم نظائرها في سقوط الألف واللام عن جمعها ووحدانها<sup>(١)</sup>.

### (مُتَشَابِهَاتٌ)

هي جمع متشابه يقال: تشابه كذا وكذا إذا كان كل منهما يشبه الآخر فلا يقال صيغة تفاعل إلا بين اثنين فأكثر ويأتي ما بعدها معطوفاً ومعطوفاً عليه مثل: تخاصم زيداً وعمرو أو مثني أو مجموعاً مثل: تخاصم الرجلان و تخاصم الرجال وأقرب مثال للمتشابه هو آيات الصفات مثل "يد الله فوق أيديهم"<sup>(٢)</sup> فكلمة اليد سواءً أبقيت على ظاهرها أو أولت بمعنى القوة لن تخرج عن معنى المتشابه لأننا مضطرون في العودة إلى قوله تعالى "ليس كمثله شيء"<sup>(٣)</sup> فنقول له يد ليست كأيدينا أو له قوة ليست كقوتنا.

ولعل أغرب آية في باب المتشابه هي قوله تعالى "نسوا الله فأنسيهم"<sup>(٤)</sup> لأن المعنى الظاهر من النسيان هو فقدان العلم والمعنى المرجوح للنسيان هو الترك فلما رجعنا إلى المحكم وجدنا قوله تعالى "وما كان ربك نسياً"<sup>(٥)</sup> فعلمنا أن معنى الآية الأولى تركوا أوامر الله وشرعه فتركهم من حفظه ورعايته ولقد أكثر المفسرون

(١) التفسير الكبير ج ٣ ص ١٤٣.

(٢) الفتح: ١٠.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) التوبة: ٦٧.

(٥) مريم: ٦٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

من سرد الأقوال المختلفة في معنى المتشابه والمحكم ولكن ذلك لا يعيننا ونحن قد وضعنا أنفسنا في دائرة التحليل وسرد الأقوال ليس منه في سبيل ولا قبيل

﴿قَامَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

﴿زَيْغٌ﴾

الميل، يقال: زاغت الشمس أي مالته<sup>(١)</sup>، في قلوبهم زيغ: إنما يحصل الزيغ بشك أو جهل ويمكن القول أن القلوب لا تزيغ إلا بعد أن يكون العمل بالخطيئة ديناً وسلوكاً، ومصداقه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وزيغ نكرة تصدق على القليل والكثير، والقريظة هنا دالة على أن الزيغ في القلوب مهما كان قليلاً تكون أضراره كبيرة وخطيرة واختلف المفسرون في تحديد الطائفة التي في قلوبها زيغ فقال الربيع هم وفد نجران وقال الكلبي هم اليهود والأصح أنها نعم جميع من يصدق عليه الوصف لأن اللفظ عامٌ يشمل الجميع وورود الآية على سبب لا يقصرها على ذلك السبب فالعبرة كما يقول الأصوليون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾

اتباع يتبع: تدل هذه الصيغة على التصرف باجتهد ومبالغة وتعمل في تحصيل أصل الفعل مثل اكتسب واجتهد<sup>(٣)</sup> فهؤلاء ليس من غرضهم إتباع الكتاب

(١) مختار الصحاح ص: ١٢٢.

(٢) الصف: ٥.

(٣) للمغني في تصريف الأفعال ص: ١٢١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كله بل هم يجتهدون في إتباع المتشابه فقط وأما المحكم فليس مما يهمهم اتباعه بله الرد إليه في بيان المتشابه.

### (أَيْمَاءَ الْفِتْنَةِ)

أي لابتغاء الفتنة أو لطلب الفتنة بجدّ واجتهاد ومبالغة كما تدل عليه صيغة افتعل كما مر بنا في اتبع.

### (الْفِتْنَةُ)

الإختبار والإمتحان تقول: فتننت الذهب إذا أدخلته النار لتتظنر ما جودته ولهذا يسمى الصائغ - الفتنان -<sup>(١)</sup>، وهذا هو الهدف الأول من إتباع المتشابه بل هو الهدف الأصيل في حياتهم يطلبون الضلال والإضلال وإفساد الناس في دينهم والتلبيس عليهم.

### (وَأَيْمَاءَ تَأْوِيلِهِ)

هذا هو الهدف الثاني لاتباعهم المتشابه يتبعون ما تشابه من القرآن بالحرص الشديد وكذّ الأذهان ويتبعون التأويل بنفس الحرص والكد فالصيغة واحدة إتبع وابتغى من المزيد على الثلاثي بالألف والتاء - افتعل - وقد تأتي هذه الصيغة لتدل على أن معمولها لا يصلح لما عمل من أجله مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾<sup>(٢)</sup>، فالكافر لا يكون ولياً للمؤمن لأنه لا تصح ولايته له لاختلاف مسيرة الفريقين وعقيدتهما التي إليها يعودون.

### (وَأَيْمَاءَ تَأْوِيلِهِ)

(١) أنظر مختار الصحاح ص: ٢٠٧.

(٢) آل عمران: ٢٨.



## التفسير التحليلي للشرط الأول من سورة آل عمران

أي يبتغون تأويل المتشابه.

### ﴿تأويله﴾

التأويل مأخوذة من: آل بمعنى رجع وأصل آل: أول والمصدر منه أولاً وكلمة التأويل مصدر أول المضعف<sup>(١)</sup>، لأن إعادة المتشابه إلى المحكم، وتعيين واحد من احتمالاته بالترجيح على المحتملات الأخرى فيه مشقة على الباحث تفوق المشقة التي يتحملها من يعاني التبر مما اختلط به من أخلط، أضف إلى ذلك عناء الباحث في بيان المتشابه في حصر جميع المعاني التي يحتملها اللفظ على جميع مستوياته الإفرادية والتركيبية هذا هو المعنى المناسب لكلمة التأويل في سياق الآية وأما المعاني الأخرى فلها مواقع تناسبها في سياقات أخرى في القرآن الكريم.

### ﴿وَمَا يَسْأَلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

الراسخ معناه الثابت يقال: رسخ الشيء إذا ثبت ورسخ الودع في الأرض إذا ثبت فيها والراسخون في العلم: الثابتون فيه لمعرفة بما يحتويه المتشابه من معانٍ وقدرتهم على تخلص المعنى المراد من السياق الذي وقع فيه المتشابه ولولا ذلك لما صح إطلاق وصف "الراسخون" عليهم على أن الواقفين على لفظ الجلالة في هذه الآية ترددهم المكتبة التفسيرية للقرآن الكريم فإنك غير واجد كلمة ولا حرفاً في القرآن الكريم لم تتلوه أنوار التفسير والتأويل من جميع جهاته وهذه الحروف المقطعة المفتحة بها جملة من سور القرآن هل سلم منها حرف لم يتكلم العلماء على تأويله أو على بيان بعض وجوهه؟! وإذا علمنا ذلك نستطيع أن نطمئن إلى القول ان جميع القرآن مفسرٌ ومؤولٌ من مجموع المسلمين تختلف كلمة العلماء على

(١) مختار الصحاح: ص: ٢١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تعيين المحكم والمتشابه في القرآن الكريم يقول الإمام الرازي رحمه الله: (إن القانون المستمر عند جمهور الناس أن كل آية توافق مذهبهم فهي المحكمة وكل آية تخالفهم فهي المتشابهة)<sup>(١)</sup> وهذا ما أدانا إلى القول بأن التأويل تناول جميع الآيات وأن الذي يؤديه الوقف على كلمة الجلالة — الله — كان بحثاً تراثياً ينبغي أن نغمض عليه أجدان التاريخ لعدم وجود الخط الفاصل بين ما يسمى بالمحكم وبالمتشابه عند جمهور المسلمين.

وأما ما ذكر عن بعض الصحابة كابن عباس وعن بعض الأئمة رضي الله عنهم من أن في القرآن ما لا يعلمه إلا الله فذلك يمكن حمله على ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن نعيم الجنة وعن نوع الحياة فيها على أي صورة تكون وذلك لا يعارض ما ذهبنا إليه بأننا نريد ما وراء محتوى النص ولنضرب لذلك مثلاً لو قال لك زميلك: أنت مدعو للعشاء عندي كان الأمر واضحاً بيننا عندك فيما يخص مدلول اللفظ — دعوتك لتناول العشاء عند زميلك — ولكنك إذا سمحت لخيالك أن يسأل ما هو العشاء؟ من أي لون أو جنس؟ وفي أي مكان؟ ومن سيكون معك في الدعوة؟؟ ويمكن للخيال أن يولد العشرات من الأسئلة ولكن هذه الأسئلة ليست حول مدلول النص بل في أمور أخرى قد نقول عن مثل هذه الأمور لا يعلمها إلا الداعي لأنه هو الذي سيقوم بإعدادها، على هذا اللون من المعرفة تنزل كلمة ابن عباس أن في القرآن ما لا يعلم تفسيره إلا الله ولهذا كان قول ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أن الوقوف على قوله تعالى "والراسخون في العلم"<sup>(٢)</sup>.

(يَقُولُونَ ءَأَمَّا يُدْعَىٰ)

(١) التفسير الكبير، ج: ٣، ص: ١٤٤.

(٢) التفسير الكبير، ج: ٣، ص: ١٤٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (أمثابه)

أي صدقنا به وهنا يجب أن نطرح سؤالاً: هل يصح الإيمان بالمجهول؟ المجهول بالنسبة للجاهل به عدم محض فكيف يمكن أن يؤمن به؟ قلنا أن الأمور هنا قد اختلط فيها الحق بالوهم، هل يمكن أن يخاطب الخالق المخلوق بما يكون المخلوق جاهلاً به؟ كل كلمة بل كل حرف تناوله العلماء تفسيراً وتأويلاً وحتى الحروف المقطعة حاول العلماء أن يفيدوا منها فإين الذي لا نعرفه وأما به؟ آمن المسلمون بالقران كله عن علم بمعاني الخطاب العربي الذي خاطبهم به الحق ﷺ في كتابه الكريم ولم يكن الجهل في يوم من الأيام عند علماء اللسان العربي إلا بما لا يدل عليه نص الخطاب وهذا خارج عن مطلوب الإيمان<sup>(١)</sup>.

وجملة يقولون تكون على ما ذهبنا إليه جملة مستأنفة والتقدير: هؤلاء الراسخون يقولون آمنة به وحاول الرازي عليه الرحمة أن يرد هذا التوجيه بقوله: "إن تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه إلى إضمار أولى من تفسيره بما يحتاج معه إلى إضمار"<sup>(٢)</sup> وهذا غير مقبول على إطلاقه لأن مبنى الخطاب العربي البليغ على العدول عن التصريح إلى التلويح وعن الحقيقة إلى المجاز فكيف إذا كان هذا الحذف أو الإضمار يقتضيه إجماع العلماء على تأويل جميع القران والعلم بمعاني خطابه؟ ويمكن أن تكون جملة "يقولون" حاليّة من قوله-والراسخون في العلم- ومحاولة دفع الرازي لهذا الوجه بأن الآية ناطقة بلفظ الجلالة قبل لفظ العلم-

(١) أنظر الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣ ص: ٣٣١-٣٣٢ كتاب التفسير.

(٢) الرازي ج ٣ ص: ١٤٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الراسخون- ومن حق الحال أن تأتي للأول غير سليم<sup>(١)</sup> فان قرينة مجيء جملة الحال دالة على الجمع تمنع من انصراف الحال إلى لفظ الجلالة-الله-لأنه مفرد.

**﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾**

تقول: هذا من فلان إذا كان منه مباشرة وتقول: هذا من عند فلان إذا كان وصوله إليك بواسطة، فمجيء كلمة -عند- في هذا الموقع للدلالة على ذلك. وأما القول بأنها تفيد التوكيد فليس بوجيه فيما أحسب<sup>(٢)</sup>، والمعنى أن كلاً من المحكم والمنشابه من عند ربنا. والتعبير بالاسم الرب وإضافته إليهم ترشح معلوميتهم بما خاطبهم به مرببهم لأن مناهج التربية تقتضي أن لا يخاطب من يرئى ألا بما هو في مستوى قدرته وفهمه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه"<sup>(٣)</sup> وبقوله تعالى "ولو جعلناه قرآناً أعجباً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ"<sup>(٤)</sup> وهذا معنى يتجلى للقارئ في كتاب الله في كثير من الآيات والمعنى المجهول في النص الخطابي دليل على عجمة النص.

**﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾**

**﴿يَذَّكَّرُ﴾**

أصلها يتذكر فقلبت التاء ذالاً لتقارب مخرجيهما وأدغمت الذال في الذال، والتذكر بذل الجهد في أن يذكر المرء ما نسيه أو غفل عنه بعد تذكيره به ولا

(١) التفسير الكبير، ج ٣ ص: ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٣ ص: ١٤٧ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤ .

(٤) سورة فصلت آية ٤٤ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يصح إطلاق الذكر والتذكر إلا على الموجود المعلوم أما المعلوم والمجهول فلا يصدق عليه الذكر ولا التذكر، فالتذكر نتيجة للتذكير تقول: ذكرته فتذكر مثل علمته فتعلم.

### ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

وهم أصحاب العقول المستنيرة وهم الراسخون في العلم بما حباهم الله من كمال العقل واستنارته لأن اللب في كل شيء يعني الأصل في ذلك الشيء، وهذا أيضاً يرشح الوقف على - والراسخون في العلم - لأنه لو كان في القرآن ما لم يُعلم لما صحَّ التعقيب بقوله - وما يذكر إلا أولو الأبواب - وكان التعقيب بالإسم العزيز فيما أحسب أولى وأبلغ.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا هو الموقف الثاني للراسخين في العلم، وهذا الموقف يعرض علينا حالة لهؤلاء الراسخين تنتجها الحالة الأولى أو الموقف الأول، فبعد إنباتهم إلى الله والتسليم لأمره والرضى بما أنزل من كتابه محكماً أو متشابهاً - يقولون آمنا به كل من عند ربنا - فخافوا على أنفسهم لمعرفة بما يعتر بهم من ضعف أولاً وبما يتطلبه المتشابه من دقة التفكير ومشقة في الترجيح ثانياً، وبما يقع منهم من تقصير في عبادة الله والإخلاص له مما يضعف نور الإيمان ويجعلهم تحت طاولة الحساب والمواخاة على سيئاتهم ثالثاً.

هذا الخوف هو الذي جعلهم يفرعون إلى الله ليقوي عزائمهم وينير عقولهم ويغفر لهم ذنوبهم وتقصيرهم في عبادة سيدهم ومالكهم ﷺ فيقولون: ربنا... الخ فينادونه باسم الرب لا بغيره من الأسماء ثم يضيفونه إلى أنفسهم - ربنا - ليتقربوا إليه بالانتساب إليه ﷺ في تربيتهم وما تلزمه هذه التربية من العطف والرحمة ربنا لا ترغ قلوبنا جزاء تقصيرنا وضعفنا فأنت الرب لا رباً غيرك وتمشياً مع هذا

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

المساق في الإنابة إلى الله والشعور بالتقصير يقولون — بعد إذ هديتنا — ولم يقولوا بعد أن اهتدينا فأنت الذي هديتنا فلا تسلبها منا إذا فرط منا بحقك تقصير فإن الكريم لا يعود في هديته وإن قصر المهدي إليه مع المهدي، وإذا فهمنا هذا المعنى بان لنا السر في طلبهم الآخر:

### (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

فالهبة هي العطية دون مقابل، فكأنهم يقولون: لولا هدايتك لنا على أيدي رسلك لما اهتدينا إلى معرفتك وعبادتك فهدايتنا هبة منك وهي أعظم هدية يقدمها المالك لمملوكه والخالق لمخلوقه فأكمل نعمتك علينا بهبة الرحمة من لدنك جل جلالك فانك أنت الوهاب وهبتنا وجودنا وهدايتنا فهينا من لدنك رحمة تغفر بها ذنوبنا وتبخر عقولنا وتقوي بها عزمنا وتجعلنا مرحومين رحماء فيما بيننا نحسن الظن بغيرنا وإن فهم غير فهمنا.

### (مِنْ لَدُنْكَ)

من لدنك أنت رحمة خاصة من اسمك الرب أو باننسابنا إليك فأنت ربنا وكذلك إضافتك إلينا، ومن المعلوم أن كلمة — من لدنك — أخص من كلمة — من عندك — لأن اللدن يعني الخاص به<sup>(١)</sup> أي الخاص باسم الرب من حيث أنه الرب هذا هو فهمنا لتحليل النص وقد كان علماؤنا السابقون قد مالوا بالنص إلى غير وجهته فبينما أولها الزمخشري بما يقتضيه مذهب المعتزلة ذهب الرازي يلبسها لباس الأشاعرة فكل منهما ينظر للآيات وتأويلها من خلال ألوان مذهبه أو فرقته<sup>(٢)</sup>

(١) انظر لسان العرب ج: ١٢/ص: ٢٢٦.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٣٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

قال الزمخشري في كشافه: "لا ترغ قلوبنا" لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا (١) لأنه لا يجيز نسبة الإزاغة إلى الله علت كلمته (٢) وتعبه أحمد بن محمد المالكي بقوله: أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة (٣) وقال الإمام الرازي: "وفي هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة قال: أما كلام أهل السنة فظاهر لأن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان وصالح لأن يميل إلى الكفر ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى" (٤) وهكذا يذهب بهاء الدعوات ويخفت نورها ويستعلن الخلاف بين الفريقين في تفسير آيات كتاب الله على حساب المعاني الإيمانية وخشوع القلوب وإنابتها لخالقها ﷻ نسأل الله السلامة.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلَّفُ الْمِيمَاةَ ﴾ هذا آخر

أدعية الراسخين في العلم أو آخر ما قالوه فإنهم يعبرون به عن سبب القلق والخوف والاضطراب في حياتهم وهم يشاهدون جلال الله الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء — ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه — بيدك الأمر كله نعود إليك ونحن نحمل أخطاءنا وخطايانا نؤمن بذلك إيمان الشاهد الذي لا يعتريه شك ولا ريبية، نفهم عنهم هذا الإيمان العميق من هذه التأكيدات المتعددة في خطابهم فقد استخدموا النداء وإن وكاف الخطاب الذي دلَّ على حضورهم مع ربهم

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التفسير الكبير، ج: ٣/ص: ١٤٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

واستخدموا الجملة الإسمية فإذا أضفت إلى ذلك مناداته باسمه الرب وإضافته اليهم اعترتك الخشية والإجلال لله وعرفت أين يكون الإيمان من قلوبهم.

### ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ﴾

لو قالوا: في يوم لكان اليوم ظرفاً لجمعهم فقط فلما قالوا: ليوم كان المعنى أن جمعهم من أجل هذا اليوم بما يكون فيه من الحساب للعباد جميعاً<sup>(١)</sup>.

### ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾

الرب لا يصدق إلا إذا بذل الشاك جميع وسعه في الحصول على العلم واليقين فيما يشك فيه، فإذا بذل جهده ولم يصل إلى أحقية ما كان يشك فيه دخلته الريبة من أحقيته وثبوته فيقال عنه عند ذلك أنه مرتاب<sup>(٢)</sup> فهذا هو الفارق بين الشك والريب والله أعلم.

والضمير من فيه يجوز أن يعود إلى المصدر المستفاد من اسم الفاعل "جامع" أي لا ريب في جمعهم ويجوز أن يعود إلى اليوم فيكون المعنى: لا ريب في ذلك اليوم أو لا ريب في الحساب في ذلك اليوم أي لا يرتاب المحاسب في شيء مما يحاسب به لأن كل شيء يحاسب عليه يراه ويسمعه عند الحساب

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ﴾<sup>(٣)</sup> و﴿وَنَكَتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> و﴿إِنَّا كُنَّا

(١) انظر التفسير الكبير، ج: ٣/ص: ١٥٠.

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج: ١/ص: ٦.

(٣) سورة ق: ١٨.

(٤) سورة يس: ١٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ فهذا اليوم هو يوم الحق فلا خطأ ولا باطل فيه.

### ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادَ﴾

تحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الراسخين فهذا هو إيمانهم أن الله لا يخلف الميعاد نادوه باسم الربوبية لحاجتهم إلى رحمة الرب ﷻ والرب من كمال ربوبيته الرحمة بمربوبيه فلما تكلموا عن الإيمان عنونوه باسم الله لأنه الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات والذي يقتضيه ذلك اليوم للقضاء والفصل بين الناس، وتحتمل أن تكون من كلام الله فعندما قالوا: "رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ... الخ" قال نعم: إن الله لا يخلف الميعاد".

### ﴿لَا يُخَلِّفُ﴾

بضم الياء فالماضي أخلف من المزيد على الثلاثي .

### ﴿الأمعاد﴾

الوعد يستعمل في الخير والشر يقال: وَعَدَ يَعِدُ وَعْدًا. قال الفراء: يقال: وَعَدْتَهُ خَيْرًا ووعدته شرًا فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير الوعد والعدة وفي الشر الإيعاد والوعيد، والميعاد: المواعدة والوقت والموضع وكذا الموعد<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا فالتعقيب هنا تحتل الحمل على المواعدة وعلى الوقت الذي عُيِّنَ للوعد وعلى مكان هذا الوعد، وقد ذهب بها الزمخشري بعيداً كعادته في توهم رأي الاعتزال وأهله في كل ما يقرأ من كتاب أو سنة فقال: "إن الإلهية تنافي خلف

(١) الجاثية ٢٩.

(٢) مختار الصحاح ج: ٢/ص: ٣٠٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الميعاد"<sup>(١)</sup> مما اضطر الرازي للرد على مذهب الاعتزال مع أن المععاد ليس نصاً في الوعيد<sup>(٢)</sup>، ونكتفي بهذا القدر على الحديث من الفصل الأول من السورة الشريفة.



(١) الكشاف ج ١/ص: ٤١٤.

(٢) التفسير الكبير، ج: ٣/ص: ١٥١.

## الفصل الثالث

في مصير الذين كفروا



## الفصل الثالث

### في مصير الذين كفروا

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّجْدُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

آل عمران: ١٠ - ١٣

في هذا الفصل يعرض القرآن الكريم للحديث عن مصير الذين كفروا وهم يتكاثرون في الأموال والأولاد ناسين الله وراء ظهورهم فأعلن أن آخرهم كأولهم هم جميعاً وقود النار في الدنيا وفي الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

صُدِّرت هذه الآية بـ "إن" لإفادة التأكيد وجيء بعدها بالذين لتدل على العموم في كل من كفر من أي لسان أو لون ثم جاءت - كفروا - بدون ذكر المفعول ولا ذكر أي متعلق بها لتشمل من يصدر منه هذا الفعل فلم يقل: كفروا من كذا ولا كفروا بمن.

﴿لَنْ تُغْنِي﴾

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لن تفيد النفي المؤبد عند الإطلاق والمقيد بزمن إذا قُيدت بوقت معين<sup>(١)</sup> وهي هنا جاءت مطلقة فلن تغني عنهم أموالهم ولا غيرها شيئاً في وقت من الأوقات ومجيء: كفروا قبلها بالإخبار عن الماضي يجعل حكم الآية ممتداً من الأزل إلى الأبد، وفيها وجه آخر وهو اعتبار ابتداء حكمها من يوم نزولها أو من يوم نزول القرآن بالنظر إلى أن الخطاب إنما يحكم من حين صدوره أو وقوع ما تعلق به الخطاب من سبب نزوله.

**(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ۗ)**

عُدِّيَتْ "تغني" بـ "عن" لأنها ضُمَّتْ معنى تدفع لأن الفعل تغني لو بقي على معناه الأصلي كان متعدياً بنفسه ولجاء النص: لن تغنيهم وأما قوله تعالى: من الله فهو على حذف المضاف والتقدير: من عذاب الله<sup>(٢)</sup> وخالف هذا ما جاء في الكشف حيث قال الزمخشري: "من" في قوله من الله مثله في قوله تعالى: "وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً" والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله شيئاً أي بدل رحمته وطاعته<sup>(٣)</sup>

**(شَيْئاً)**

منصوب على أنه مصدر كما تقول: ضربت شيئاً من الضرب أو على أنه مفعول به أي لن تدفع شيئاً.

(١) انظر شرح محي الدين عبد الحميد على أوضح المسالك، ج: ٤، ص: ١٤٩-١٥٠ حيث عدها مثل لا وفيه نظر واضح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج: ٤، ص: ٢١، والبحر المحيط، ج: ٣، ص: ٣٤.

(٣) الكشف: ج: ١/ص: ٤١٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (وَأُولَئِكَ)

اسم إشارة للبعيد ليبدل على بعدهم عن الله وعن المؤمنين الذين هم محل الإخبار وليقع الذين كفروا موقع المنقطع عن أهل الإيمان فلا تأسى نفوسهم عليهم.

### (هَمْ)

الضمير المنفصل لإفادة التخصيص والتأكيد أنهم هم لا غيرهم.

### (وَقُودُ النَّارِ)

الوقود بفتح الواو اسم للحطب وبضمها مصدرٌ من وَقَدَ يَقْدُ وَقُوداً إذا اشتعلت أي أن النار إنما تشتعل بهم أولاً<sup>(١)</sup>.

(كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ

### الْعِقَابِ)

قال ابن عطية: الدأب بسكون الهمزة وفتحها مصدر دأب يدأب إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة: دأب<sup>(٢)</sup> قال القرطبي: واختلفوا في الكاف: فقيل في موضع رفع تقديره: دأبهم كذاب آل فرعون أي صنيع الكفار معك كصنيع آل فرعون وقيل هي متعلقة بـ"أخذهم الله" أي أخذهم أخذاً كما أخذ آل فرعون وقيل: هي متعلقة بقوله: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم أي: لم تغن عنهم غناءً كما لم تغن الأموال والأولاد عن آل فرعون<sup>(٣)</sup>.

(١) الجامع لأحكام القرآن ج: ٤/ص: ٢٢.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج: ٤/ص: ٢٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وقال أبو حيان: "لما ذكر الله ﷻ أن من كفر وكذب بآيات الله مآله إلى النار ولن يغني عنه ماله ولا ولده، ذكر ﷻ أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷻ وترتب العذاب على كفرهم كشأن من تقدم من كفار الأمم أخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها ونبه ﷻ على آل فرعون لأن الكلام مع بني إسرائيل وهم يعرفون ما جرى لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلى النار" (١) ثم قال رحمه الله " ففي هذا بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن آمن به أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال وفي الآخرة إلى النار كما جرى لآل فرعون أهلکوا في الدنيا وصاروا إلى النار "

**﴿كَذِبُوا بِآيَاتِنَا﴾**

قال أبو حيان: "المقصود بآياتنا: إما الآيات المتلوة وإما الآيات المنصوبة للدلالة على الوجدانية" (٢).

**﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾**

شبه إحاطة عذابه بهم بالمأخوذ باليد المتصرف فيه بحكم إرادة الأخذ والأخذ بالذنب معناه العقاب عليه والباء في قوله تعالى: بذنوبهم للسبب أي أن ذنوبهم هي السبب الذي أخذهم الله به.

**﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٣٦.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٣٨.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يقال: شيء شديد أي بين الشدة بكسر الشين وشدَّ عضده: قواه. وشدّه: أوثقه<sup>(١)</sup> والعقاب: العقوبة<sup>(٢)</sup>.

### ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أي عقوبته بيّنة واضحة فهي من صفات الأفعال لا من صفات الذات فلا يسمى الله ﷻ باسم "شديد" ولا باسم "معاقب".

### ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادِ﴾

يقال أن سبب نزول هذه الآية أو المناسبة التي نزلت فيها أن يهود بني قينقاع قالوا بعد وقعة بدر: إن قريشاً كانوا أغماراً ولو حاربنا لرأت رجالاً فجاء هذا الإعلان الإلهي "قل للذين كفروا ستغلبون" المخبر هو الله تعالى والمعلن والمبلغ هو محمد ﷺ وإذا تناولنا الحدث من جانب الذين كفروا فالإعلان والإخبار من جانب محمد ﷺ لأنهم لا يؤمنون بهذه العلاقة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الله جل جلاله وبهذا يكون التحدي للذين كفروا أقوى وأعنف وعلى نفوسهم أمراً وأدهى.

ومن المعروف أن السنين للاستقبال وهي موضوعة لما يقع قريباً وبهذا يبدو لنا موقف المعسكرين وما يعتلج في نفوس كلٍّ منهما من الأمل الموقن في جانب المؤمنين والتوتر والشعور بالتحدي في نفوس الكافرين. وقرئت هذه بالياء بدل التاء سيغلبون عند حمزة والكسائي<sup>(٣)</sup> وهي قراءة لا تغير من تحليل الموقف

(١) مختار الصحاح ص: ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه ص: ١٨٩.

(٣) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٣٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

شيئاً إلا أن في تاء الخطاب مزية ظاهرة ويقال: غلب عدوه إذا قهره وانتصر عليه، وهذا الإعلان يعد من جملة الأسلحة في غلبة العدو وقهره فهو على أقل تقدير يجعل في أنفسهم هذا الهاجس عند لقاء المؤمنين لاسيما وقد خاضوا تجربة المعركة في بدر.

### ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾

كذلك قرأ حمزة والكسائي بالياء<sup>(١)</sup> وهي قراءة لا تغير من شيء في ملامح الموقف لكلا الجانبين.

ويحشر الجميع من المشركين واليهود والنصارى يحشر كل من كفر برسالة النبي محمد ﷺ ولم يؤمن بها يحشرون إلى جهنم جميعاً إلى جهنم المكان المظلم حتى لا يستأنس أحد بأحد ولا يعرف أحد أحداً وهذه الكلمة ينفر منها كل فرقاء الكافرين فالمشركون العرب واليهود والنصارى كل فريق منهم يزعجه هذا الإعلان وهو لا يزعجهم لأنهم يصدقونه أو يؤمنون به فهم يكفرون به ولكنه يزعجهم لأنهم يرون عدوهم لا يفرق بينهم في الحديث ولا في الخصومة ولا في ما لكل منهم، وهم مع ما هم عليه من الاجتماع لحرب الإسلام يستكف كل منهم أن يُعدَّ مع الآخرين وأن يحشر معهم.

### ﴿وَيُقَسَّسَ الْمَهَادُ﴾

كلمة بسس موضوعة للذم وهذا الذي لم يتوجه إليهم بل إلى المكان الذي سيحلون فيه فهم ليسوا بالضيوف الكرماء فتمتد لهم المفارش بل هم المساقون للعقاب فكانت دارهم المعدة لهم تناسب ذلك ولم يذكر المخصوص بالذم لوضوحه

(١) البحر المحيط ج:٣/ص:٣٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يحشرون إلى جهنم وبنس المهاده هي أي جهنم وينبغي الانتباه إلى العلاقة بين حال الكافرين في عماهم عن الهدى وبين ما يوحي به اسم جهنم من الظلام وعدم الرؤية.

**﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَمِنْ أَقْتَابٍ فِي سَكِينٍ أَلَّفُوا كَافِرًا  
يَرَوْنَهُمْ مَشَاهِيرَ رَأَى الْغَيْبِ وَاللَّهُ يُوَدِّعُ بِصَرِيحِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَوَبَّاءٌ لِلَّذِينَ  
الْأَبْصَارِ ﴾**

"الفئة"

الطائفة ذات الشوكة كأن كل واحد من أفراد الجماعة يفء إليها فهي بمثابة الظل يحتمي بها من حر الشمس.

**﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾**

الخطاب في لكم يرجح قراءة من قرأ - ستغلبون - بالناء ومعنى قد كان لكم: قد ثبت لكم لتمحُّض كان الناقصة في الدلالة على ثبوت الحدث ثم أكد هذا الثبوت بقدر التي تفيد التحقيق والخطاب بـ "لكم" صالح لتناول جميع الذين كفروا من مشرك أو كتابي ولا يخص هذا العموم سبب النزول وإن كان مجمعا عليه عند المفسرين لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون.

**﴿ آيَةٌ ﴾**

أي دلالة وعلامة على انتصار الإيمان وغلبة أهله مع قلتهم وضعف ما بأيديهم من سلاح مقارنة بعدد أهل الكفر وقوة ما بأيديهم من عتاد.

**﴿ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَمِنْ أَقْتَابٍ فِي سَكِينٍ أَلَّفُوا كَافِرًا ﴾**

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هذا النص يبعث الرعب والشك والقلق والاضطراب في جميع فرقاء الكفر على تعدد ألوأنهم وأديانهم التي ينتمون إليها لأن كل فرقة من المشركين واليهود والنصارى يذكر ما جرى لأهل الإيمان مع من عاداهم من النصر والغلبة فإذا كان المشركون من العرب يذكرون معركة بدر فإن اليهود والنصارى يذكرون أيضاً ما جرى بين طالوت وجالوت وانتصار المؤمنين مع قلة عددهم على جالوت مع كثرة الكافرين معه حتى أن بعض الآراء ذهبت إلى أن عدد المؤمنين الذين مع طالوت يساوي عدد المؤمنين الذين كانوا مع محمد ﷺ يوم بدر.

ستغلبون أيها الكافرون وفي ذاكرتكم نموذج ودليل وبرهان على هذه المغلوبية لكم إنها فعلاً ذكرى تثير الفزع في صفوف أهل الكفر كما تثير الأمل في صفوف أهل الإيمان وكأنه قانون إلهي وسنة طبيعية يخضع لها الناس وتسير نحوها الشعوب.

### ﴿فَمَنْ تَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾

الفئة المؤمنة تقاتل في سبيل الله ولنصرة دينه وإرساء بناء الرسالة التي تؤمن بها فهي فئة تعرف ما لديها وتعلم فيمن تقاتل وأخرى كافرة موقفها الإصرار على الكفر والعناد لأهل الأيمان.

### ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾

بهذه الصيغة أوصل القرآن البيان إليهم ليزعزع ثقتهم بكل ما هم عليه كأنها لا تقاتل، لأنها لا تعرف لمن تقاتل ليست هي على بينة من أمرها والتحدي يعصف بها من كل جهاتها، وهي كافرة فقط ليس لديها ما تؤمن به، وتعصف البيانات الإلهية بالمشركين قاتلة: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

مِنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ وتعصف بأهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١)، وتعصف وتعصف بهؤلاء وهؤلاء في الكثير من البيانات فتزلزل الأرض تحت أقدامهم.

﴿يُرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْآمِنِينَ﴾

جاء النص البياني مطلقاً ليس فيه شيء من التقييد إلا في جهة بيان تمييز الرؤية وأنها رؤية بصرية.

﴿يُرَوْنَهُمْ﴾

من الرائي؟ ومن المرئي؟

أحسب أن هذا البيان جاء بهذه الصياغة المطلقة ليستوعب جميع أحداث التاريخ وأن الله يُري المسلمين لله الكافرين به حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين في كل موقف فإن كانت المصلحة تقتضي تكثير عدد الكفار أو تقليلهم فعل الله لهم ذلك وكذلك لو كانت مصلحة المؤمنين تقتضي تكثير عددهم في أعين الكافرين أو تقليلها فإن الله يدافع عن الذين آمنوا بما يحقق نصرهم على أعدائهم.

وهذا التلوين في الرؤية كثرة وقلة عمل به في معركة بدر قال تعالى: ﴿إِذْ

يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ أَنْ تُقَاتِلُوا لَقَاتَلَكُمْ وَأَخَذَ لِيُكْرِمَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(٢) سورة البقرة: ١١١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾.

قرأ نافع ويعقوب وسهل ترونيهم بالتاء على الخطاب وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة وقرأ ابن عباس وطلحة بضم التاء على الخطاب وقرأ السلمي بضم الياء على الغيبة نقل ذلك كله أبو حيان<sup>(٢)</sup>. وقراءة الضم كالتفسير لقراءة الفتح إذ الذي يريهم غير ما هو موجود في حالة التثنية ولا يريهم الموجود في حالة التقليل إنما هو الله لأنه هو القادر على ذلك وحده وحجب الموجود عن الرؤية يدل له أيضاً ما كان ﷺ يعتصم به من رؤية الكفار له ﷺ كما في خروجه عند الهجرة من بيته وكذلك حادثة وجوده مع أبي بكر في غار ثور وكذا احتجابه صلى الله عليه وسلم عن رؤية زوجة أبي لهب بعد نزول سورة اللهب ومجئها إلى الكعبة للتفتيش عنه ﷺ فاحتجب عنها في تلك الساعة<sup>(٣)</sup>، وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَمَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١٥﴾ وَجَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَّمَ آدَبَهُمْ فَؤُورًا ﴿٤﴾.

### ﴿رَأَى الْمَتِين﴾

قال أبو حيان: "والرؤية في هاتين القراءتين بصرية تتعدى لواحد وانتصب "مثليهم" على الحال قاله أبو علي ومكي والمهدوي ويقوي ذلك ظاهر قوله: "رأى

(١) الأنفال: ٤٣-٤٤.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٤٦.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ج: ١٠/ص: ٢٦٩-٢٧٠، مع ما وقع لبعض العلماء ومنهم

القرطبي من مثل ذلك.

(٤) الإسراء: ٤٦-٤٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

العين" وانتصابه على هذا انتصاب المصدر المؤكد.

**﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾**

أي يقوي وأيده: قواه. وتأييد الله لأهل الإيمان إما بالنصر والغلبة في المعركة وإما بالحجة والبرهان في المجادلة أو بكليهما.

**﴿مَن يَشَاءُ﴾**

أي من يشاء الله تأييده بنصره بسبب ظاهر أو باطن أو بالاثنتين معاً ومجيء خبر المبتدأ الذي هو لفظ الجلالة بصيغة الفعل المضارع — يؤيد — ليفيد التجدد والدوام فكأنه هو السنة الدائمة والطريقة الثابتة.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أن يكون فاعل يشاء ضميراً يعود إلى "من" أي أن الله يؤيد بنصره من يشاء النصر ومذهب أهل السنة: أن الله يخلق لعبده ما يريد ذلك العبد كما يقول الإمام الرازي<sup>(١)</sup> وهذه القضية قامت عليها نظرية من أعز النظريات الحديثة في علوم الباراسيكولوجي فضع في نفسك ما تريد بإصرار وعزم ويقين تجده أمامك إن الله يكون معك على ما تكون معه مصداق هذا الحديث الصحيح عن رب العزة ﷻ: "أنا عند ظن عبدي بي"<sup>(٢)</sup>.

**﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾**

العبرة: مأخوذة من العبور مما وقع في الماضي من التأييد بالنصر للمؤمنين ومن الخذلان بالهزيمة لأهل الكفر لا يحتاجون في ذلك إلى تدقيق نظر ولا إلى كدّ ذهن إن الحقائق ماثلة للعيان إنها سنة الله ومنهج الحياة.

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٨٤.

(٢) الحديث رواه الشيخان: الأحاديث القدسية للشيخ الدكتور أحمد فارس ص: ٥١-٥٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (لَأُولِي الْأَبْصَارِ)

لمن ليس أعمى فالشواهد تخص العين ولا تحتاج إلى فكر والذهاب في تفسير الأبصار إلى البصر العقلي يبعد النص عن موضوعه ويحمل الألفاظ ما تنوء بحمله فمساق الآية وسباقها في الحديث عن رؤية العين وذلك ما أفقد الكافرين رشدهم ونزع الثقة من نفوسهم حتى من أبصارهم وماذا عسى أن يكون حال من يرى غير الموجود أو يجد غير ما رأى!!!





## الفصل الرابع

في زينة الدنيا وزينة الآخرة



## الفصل الرابع

### في زينة الدنيا وزينة الآخرة

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرِ الْمُنْتَظَرِ مِنَ  
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ  
عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْيَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ  
بِالْوَجَدِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾  
الْمُتَّقِينَ وَالْمُكْرِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران:  
١٤ - ١٧.

هذا الفصل من الآيات يستهدف الفصل بين زينة الدنيا وزينة الآخرة والقضاء بين عشاق الحياتين ونعيمهما والموازنة بين مصيرين مصير أهل الدنيا ومصير أهل الجنة.

### ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ ﴾

جاء الفعل: زين بالبناء للمجهول في القراءات الصحيحة وفي قراءة ضعيفة زين بالبناء للمعلوم والفاعل ضمير يعود إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: "والله يؤيد بنصره" وجماهير النحاة لا يجيزون ذلك لأن الضمير سيعود على سابق بعد الفصل وتام الكلام والفاصل قوله: "والله عنده حسن المآب".

اختلف المفسرون في تعيين الفاعل فمن قائل: هو الله ونسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعليه جمهور أهل السنة ومن قائل: هو الشيطان وهو مروى عن

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الحسن ﷺ، وهو الذي ذهب إليه الجمهور من المعتزلة وقال أبو علي الجبائي: الذي زين الخير هو الله والذي زين الشر هو الشيطان وهذا فيما أحسب هو الحق الذي لا مرية فيه وهو الذي تدل عليه نصوص القرآن واعتراض الإمام الرازي بأن أبا علي سكت عن المباح فلم يقل من زينه<sup>(١)</sup> وهو اعتراض بارد لا قيمة له لأن المباح من الخير أو أن المباح لا يحتاج إلى تزيين لأنه زين بنفسه ودليل أبي علي الكبير قوله تعالى: "حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ" نسب إلى نفسه تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوب المؤمنين والإيمان يشمل المباح والواجب والمندوب لأنك وأنت تعمل المباح لا تعمله إلا وأنت تعلم أن الله أباحه لك بينما السوء والمعاصي نسبت في القرآن الكريم إلى الشيطان ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَكَفَرُوا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا التقسيم في التزيين هو الداعي إلى بناء الفعل للمجهول في مثل هذا الخطاب فإن من عادة العرب في كلامها أن الفعل إذا أسند إلى كثيرين يمكن أن يكون لكل واحد فاعل، جاءت بالفعل مبنياً للمجهول لضرورة اختلاف الفاعلين ومثال ذلك: زينت الحدائق ليوم العيد؛ وزينت البضائع للمشتريين؛ وزينت الشوارع والدور والدكاكين لقدم الملك أو الزعيم؛ فيما أن المزيين يختلف جيء بالفعل مبنياً للمجهول اعتماداً على معرفة السامع بالمزيين لكل منها فكيف إذا كان المتكلم قد ذكر للمخاطبين من الذي زين في كل فرد بل في كل حال من أحوال هذا الفرد؟!!

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٦٠-١٦١.

(٢) النحل: ٦٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ثم نعود إلى الكلمة لنستفصل معناها: فإن الله ﷻ اكتفى بذكر التزيين للناس: "رِيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ" ولم يذكر هل أحبَّ الناس ما زين لهم حبه أم لا فإن ما كل معروض بزينة يراه الناس زيناً، وكذلك نسبة التزيين إلى الحب لا إلى الشهوة فهل كانت كذلك لأن الشهوة لا تحتاج إلى التزيين؟ أو أنها لا تقبل التزيين لقبها في نفسها؟ لم أر من أجاب عن هذه الأسئلة وأحسب أن الله ﷻ لم ينصَّ لنا على ذلك لاختلاف الناس في تقدير الزينة في كثير من الأشياء وكذلك النظر إلى الشهوات وتقدير الناس لها من حيث الزينة والقبح فقد تجد فريقاً من الناس ينظرون إلى الشهوات بعين الزينة بينما تجد فريقاً آخر لا يرى أي جمال وزينة في الشهوة بل يراه هبوطاً إلى السفاسف من الأعمال، لكل هذا جاءت الآية بهذا الإطلاق فيما أحسب.

وأضيف الحب إلى الشهوات ويذهب أكثر المفسرين إلى تأويل الشهوات بالمشتبهات<sup>(١)</sup> يقول أبو حيان: "وعبر عن المشتبهات بالشهوات مبالغة إذ جعلها نفس الأعيان"<sup>(٢)</sup> والذي دعاهم إلى هذا التأويل أمران:

**الأول:** أن الله ذكر المشتبهات من النساء والبنين.... الخ وهذا إنما يصح إذا قلنا ان "من" جنسية وهو قول ضعيف والصحيح أن الجار والمجرور في موضع الحال<sup>(٣)</sup>.

**والثاني:** أن الشهوة معنى لا وجود لها في الخارج إلا في أشخاص المشتبهات ولهذا يكون تأويل الشهوات بالمشتبهات أنسب ويكون تقدير الآية: زين

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٦١، والبحر المحيط ج: ٣/ ص: ٥٠.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٥٠.

(٣) روح المعاني ج: ٣/ ص: ١٦٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

للناس حب المشتهيات من النساء والبنين... الخ. وأحسب أن مقابلة الحب بالشهوة أولى من مقابلته بالمشتهى لأن مقابلة المعاني ببعضها أولى من مقابلتها بالأشخاص على أننا يمكننا القول ونحن مطمئنين أن الحب إنما يتعلق بالمعاني التي في الذوات لا في الذوات أنفسها والله أعلم.

### (من النساء)

أي حال كون الشهوة من النساء فالذي حُبب إنما هو حب الشهوة منهن لا الشهوة نفسها وقدم النساء على غيرهن لتكتمل الهيئة البشرية كلها. زُين للناس أي للرجال منهم من النساء فاكتملت الصورة وبما أن هيئة الاجتماع هي السبب لكل ما ذكر الله بعد النساء قدم النساء في النص القرآني فقد قامت المرأة من الرجل مقام الطبيعة لله في إنشاء التكاثر والتوالد وهو سبب بقاء النوع البشري، والقول بأن سبب التقديم لأنهن حباثل الشيطان<sup>(١)</sup> للرجل يرده عكسه وهو أن الرجل من حباثل الشيطان أيضاً في إغواء المرأة.

### (والبين)

أي زُين للناس حب الشهوة من البنين لأنهم النتاج ويجد كل من الزوج وزوجته صورته في نتاجه والنتاج هو ضمانته الخلود وإنما لم يذكر القرآن البنات لأن ذكر البنين يشملهن بالتغليب ولأن البنات يدخلن في النساء فكما يحب الرجل الشهوة لنفسه من امرأة كذلك يحبها لولده من البنات وبذلك تستمر عجلة الحياة، فصار ذكر البنين كاف عن ذكر البنات ولو ذكر البنات ولم يذكر البنين لما كان في ذكرهن ما ينبه إلى الزينة في حب الشهوة من البنين والله أعلم.

(١) انظر البحر المحيط ج٣/ص: ٥٠٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَالْقَنْطَرِ الْمَقْنَطَرَةِ﴾

التزيين في حب شهوة القناطر المقنطرة من الذهب والفضة من تمام نعمة الله على عباده ولست بواجد نصاً في القرآن الكريم يحرم جمع القناطر المقنطرة إذا كان هذا الجمع من الطريق المأذون به في دين الله والمزاعم الباطلة في كراهة الإسلام للمال وجمعه وإن كان من الطريق المشروع من أباطيل المنتسبين إلى التصوف من جهلة المتعبدین لا ينبغي الوقوف معها ولا محاولة توجيهها ويكفيها أنها أقوال الجاهلين ولا يرفع من مكانتها عبادة وإخلاص قائلها فالعلم شيء وإخلاص العبادة شيء آخر ويكفي في تقدير المال قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ (١).

### ﴿وَالْقَنْطَرِ﴾

: جمع قنطار والقنطار يطلق على المال الكثير وذكر السلف له حداً من باب التمثيل فقط فقال بعضهم: ألف ومائتا أوقية وآخر: إثنا عشر ألف أوقية (٢) وهناك تقديرات أخرى أقل وأكثر أضربنا عن ذكرها لعدم غنائها.

### ﴿الْمَقْنَطَرَةِ﴾

مُفَعَّلَةٌ أو مَفِيعَلَةٌ من القنطار ومعناها: القناطر المجتمعة كما يقال ألوف مؤلفة (٣).

### ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾

(١) النساء: ٥.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٥١.

(٣) المرجع السابق.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بيان للقناطر وهو في موضع حال منها أي كائنة من الذهب والفضة والنص على الذهب والفضة لأن النقود لم تكن آن ذاك إلا منها وليس لخصوصية فيها كما هو ظاهر النص. والذهب والفضة ولحد زماننا هذا يعدان من أحسن الأموال ادخاراً وقنطرة.

### ﴿وَالْخَيْلِ﴾

الخيال من أعز الأموال العربية وهي إلى جانب ماليتها تمثل زهواً غريباً وإعجاباً مهيباً قال النبي ﷺ "الخيال معقود في نواصيها الخير"<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَالْمُسَوِّمَةِ﴾

معنى المسومة الراعية من الكلاً المباح. يقال: سامت أي سرحت وأخذت سومها من الرعي: أي أخذت غاية جهدها وطاقتها من الرعي في المروج والكلاً.

### ﴿الْمُسَوِّمَةِ﴾

مأخوذة من الفعل المضعف سوّم يسوّم فهي مسوّمَةٌ<sup>(٢)</sup>.

### ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾

الأنعام: جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم من الضأن والماعز ولا يقال لجنس منها على الأفراد نعم الا للإبل خاصة.

### ﴿وَالْحَرْثِ﴾

أي الزرع ولم يأت بالحرث على صيغة الجمع مثل ما أتى في الباقيات

(١) الحديث : متفق عليه البخاري: ٢٨٢٥ ومسلم: ١٨٧٣.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٥٢. ومسلم:



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لأن الحرث مصدر وهو يصدق على الكثير والقليل وقيل يراد به المفعول أي المحروث.

**﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**

**﴿ذَلِكَ﴾**

أي المذكور أو المتقدم ذكره ومجىء الإشارة بنياً البعد فيه وجهان:  
الأول: أن هذه الأمور التي تم تزيينها تمثل أعلى المعترف في الحياة عند الناس.

والثاني: أن الخطاب من حضرة الحق مع حبيبه ﷺ أو مع عباده المؤمنين الجالسين في حضرته فهم في هذا المجلس بعيدون عن الدنيا ومتاعها لشهودهم الحق وسماعهم خطابه فحدثهم عنها حديث البعد وفي ذلك لذة يتذوقها أهل مجالسته ويحرم منها الغرباء.

**﴿مَتَاعٌ﴾**

يطلق المتاع ويراد به الزاد البشير الذي يستصحبه المسافر في سفره وإن كانت الكلمة بوضعها اللغوي تدل على مطلق ما يستمتع به.

**﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**

أي الحياة القريبة أو الحياة الأدنى أي الأقرب وكان القرآن يريد أن يقول للإنسان إنك لو ملكت كل ما تطمح إليه نفسك من النساء زوجات وبنات من البنين ومن الأموال سواء كانت تقوداً أو عدة حرب وزينة أو كانت أتعاماً بكل أجتاسها أو مزارع وجنات لو ملكت هذا كله فهو قليل بحقك لا ينبغي أن يكون منتهى طموحك أو نهاية غرضك لماذا؟ لأن متاع الحياة لا يمكنه أن يملأ منطقة الفراغ في خيالك فتشعر دائماً بالنقص وبتمنيات ما بعد لو إن وضع الحياة غرضاً أسمى وهدفاً أعلى

## التفسير التخليقي للشطر الأول من سورة آل عمران

يجعل الإنسان قيمة أقل من الحياة وهو أعلى منها لأن خياله أوسع منها فلا يمكن أن يسعد فيها.

### (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ)

قليل القرآن يبين متاع الحياة الدنيا ويبين حسن المآب عنده وهذا يومئذ إلى أن الدنيا ليست يدار قرار ولا موطن إقامة إن حياة كل إنسان تشبه فترة سفر وكما يعود المسافر إلى موطنه وداره يعود الإنسان بعد قضاء فترة الحياة الدنيا إلى موطنه وداره.

### (وَاللَّهُ عَزِيزٌ)

أي في الآخرة بتدليل المقابلة والآن الدنيا عنده وعن عنده الله خالق الدنيا والآخرة والله عنده الدنيا وعند الآخرة.

### (حَسْنُ الْمَتَابِ)

حسن مصدر مضاف وهو من إضافة المصدر إلى فاعله أي حسن مآبهم وفائدة الإضافة شمول "حسن المآب" جميع أنواع الحسن في المآب فهو ليس أحسن مآب ولا أن مآبهم حسن وإنما يريد القرآن الكريم أن يمتحنهم كل حسن في المآب وذلك لأن كلمة حسن مفرد وأضيفت إلى المآب فحمت كل حسن ولو قال: والله عنده المآب الحسن أو أولئك حسن مآبهم لضاع العموم الذي دلت عليه الإضافة إنها العربية وإنه القرآن.

### (الْمَتَابِ)

أي المرجع أو "ال" في المآب للجنس فتدل أيضاً على العموم فيكون التقدير: والله عنده كل حسن في كل مآب فليس عند الله إلا كل مآب فيه كل حسن.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿قُلْ أُو۟سِب۟كُم بِخَيْرٍ مِّنۢ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا۟ عِنۢدَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجۜرِي مِنۢ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۜوٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۜوٰنٌ مِّنۢ أَلۢهِ وَآهَةٌ بَٰسِمًاۙ بِالۡوَجۜوَدِ﴾ في هذه الآية الكريمة يأتي الأمر الإلهي للنبى ﷺ أن يقول للناس الذي زين لهم حب الشهوات في الحياة الدنيا أن هناك شهوات أخرى في دار أخرى شهوات أكثر سعة من شهوات هذه الدنيا وفي حياة أطول عمراً وأكثر شباباً، المقارنة بين شهوات معدودة وشهوات غير معدودة شهوات يضبطها الحس وشهوات يطلقها الخيال وبين دار وحياة تنتهي إلى أمد وحياة ودار لا نهاية لها ولا فناء.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا۟ عِنۢدَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجۜرِي مِنۢ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

هذه واحدة من زينة الآخرة "خالدين فيها" وهذه ثالثة "وأزواج مطهرة" وهذه ثالثة "ورضوان من الله" هذه هي الرابعة ويمكن اعتبارها سنة إذا حسبت الجنات وجري الأنهار أخرى وكذلك لو حسبنا الأزواج واحدة وتطهيرهن أخرى فتكون ستة تقابل ستة.

وهذا عرض من عروض زينة الآخرة أيضاً لتقابل زينة الحياة الدنيا أضف إلى هذه القوارق أن زينة الحياة الدنيا لا تأتي إلا بما يقابلها من الجهد والتعب ثم بإضافة جهد آخر إذا أريد استمرارها وبقاؤها ثم الخوف المتواصل من زوالها أو نقصانها على أن التقصان من ضروريات بعضها كالنساء والبنين وغيرها أما زينة الآخرة فالعمل الذي يُقْتَم في تحصيلها أيسر بكثير ولو أراد الواحد منا أن ينسب ما هو من عمل الآخرة في حياته إلى ما هو من عمل الدنيا لما تجاوز نسبة العشرة بالمائة على أكثر تقدير.

## التفسير التخليقي للخطب الأول من سورة آل عمران

### ﴿أَنْبِئِكُمْ خَيْرَ مِمَّا نَدَّبَكُمُ﴾

إلى هنا ينتهي الاستفهام وأما قوله تعالى: "للذين اتقوا" إلى آخر الآية فهو بتقدير الجواب ومن المفسرين من يذهب إلى أن منتهى للسؤال عند قوله تعالى: "عند ربهم" (١)

### ﴿أَنْبِئِكُمْ﴾

يذهب الكثير من المفسرين إلى تفسير النبا بالخبر فهم يقولون: معنى أنبئكم أخبركم والصحيح أن النبا غير الخبر بدليل أن القرآن الكريم استخدم النبا ومشتقاته في جميع المواضع التي يكون فيها إعلام عن أمر كان مخفياً عن يراد إعلامه به أو كان من خصوصياته وتكررت هذه الكلمة "نبا" ومشتقاتها حتى قاربت المائة والخمسين موضعاً في القرآن الكريم مع العلم أن كلمة الخبر لم تستخدم في القرآن الكريم بمعنى الإعلام ولا مرة واحدة وإليك المواضع التي استخدمت فيها هذه الكلمة من القرآن الكريم.

في سورة الكهف استخدمت مرتين ففي الآية ٦٨ قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصِيرُ

عَلَى مَا لَمْ نَحْطِ بِمِخْبَرِ﴾ وكذلك في الآية ٩١ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِمْ خَبْرًا﴾

وفي سورة النمل الآية ٧ قال تعالى: ﴿إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا سَاءَتِ كُفْرًا مِنِّي خَبْرًا﴾ وفي

سورة القصص الآية ٢٩ قال تعالى: ﴿إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِنْهَا خَبْرًا﴾ وفي

سورة التوبة الآية ٩٤ قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ

تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ \* وفي سورة محمد الآية ٣١ قال

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٦٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تعالى: ﴿وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلِّغُوكُمْ وَأَخْبَارَكُمْ﴾ وفي سورة الزلزلة الآية ٤ قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ .

فإذا تمعنت في هذه الآيات ازددت يقينا فيما ذهبنا إليه ففي الآيتين من سورة الكهف كان معنى الخبر العلم المسبق وفي آيتي موسى كان يريد أن ينبئهم عن خبر النار بعد أن يذهب إليها ويعرف خبرها وآية التوبة واضحة الدلالة بالتفريق بين دلالة اللفظتين لأن فيها الإنباء عن الأخبار فالأخبار هي المعلومات والإعلام عنها يقال له إنباء وإعلام لا إخبار وكذلك الآية من سورة محمد والآية من سورة الزلزلة فيكون معنى الآية هل أنبئكم عن خبر ما للمتقين عند الله...؟

### ﴿بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾

أي بخير مما زين في الحياة الدنيا وكلمة خير هنا بمعنى أفعل التفضيل أي أكثر خيراً وبذلك ينتقي ما درج عليه كثير من المفسرين من أن ما زين من حب الشهوات مذموم كيف وقد تمت المفاضلة بينه وبين نعيم الجنة ، كل الناس أو أكثرهم يركضون وراء نعيم الدنيا ويحرصون عليه وليس المذموم هذا إذا أخذ من حله بل المذموم أن يعتنوا بنعيم الحياة الدنيا وينسوا أنفسهم من نعيم الدار الآخرة مع الفارق الكبير بين الدارين والنعيمين.

### ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾

الذي يستفاد من مجموع النصوص الشرعية وما أثر عن السلف في تفسير التقوى أنها العمل بما يرضي الله والترك لما يسخطه أي عمل الطاعة وترك المعصية وذلك لأن التقوى مأخوذة من الوقاية وإذا أطاع العبد ربه في اتباع ما أمر به واجتتاب ما نهى عنه فقد اتقى.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (عند ربهم)

أي في الدار الآخرة بقربة خالدين فيها لأن الحياة الدنيا لا بقاء فيها ولا بقاء لها ولكن لماذا يسمى نعيم الجنة — عند الله — أو ليست الدنيا ونعيمها عند الله أيضاً؟ الظاهر ان التعبير بعند في مثل هذا الموقع لإفادة الالتزام والتأكيد عليه فلو قلت من رد إليّ ضالتي أو من شفى مريضى فله منى كذا وكذا أي أنك متبرع بهذا وما تريد عطاءه لمن يقوم لك بالعمل لا زال ملكاً لك وأما عندما تقول: من رد ضالتي أو شفى مريضى فله عندي كذا وكذا، فقد سميت ما تريد دفعه لمن يقوم لك بالعمل أنه من الآن هو له أو هو ماله مودع عندك إلى حين الإنتهاء من العمل هذا هو معنى الآية للذين يتقون الله عند الله كذا وكذا — فهو ملك لهم من الآن — ولكنه مودع عند الله يحفظه لهم إلى حين عودتهم فيوفيههم ودائعهم والله أعلم.

### (ربهم جنت تجري من تحتها الأنهار)

جنات أي بساتين مكنتة بالأشجار وإنما سميت جنة لأنها تجن من فيها أي تستره لكثرة أشجارها ومعانقة الواحدة منها أختها فالجنة لا تطلق على الأرض بما هي أرض بل بما عليها من تزامم الأشجار.

### (تجري من تحتها الأنهار)

أي تجري من تحت جنان الأشجار الأنهار فالأنهار تشق هذه الأراضي التي علت عليها جنان الأشجار فلا حاجة إلى ادعاء الحذف في قوله تعالى "من تحتها" أي من تحت أشجارها لأن الذي يجن ما تحته إنما هو الشجر لا الأرض، وجاءت "جنات" و"الأنهار" جمعاً وإذا قوبل الجمع بالجمع كان بمثابة مقابلة الواحد بالواحد فيكون لكل جنة نهرها الخاص بها والله أعلم، وكلمة تجري بصيغة الفعل المضارع جاءت لتدل على استمرار الجريان وتجده بدون انقطاع أي تجري دائماً.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾

الخلد: دوام البقاء<sup>(١)</sup> يقال: خلد في الدار أي دام بقاؤه فيها.

### ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

يقال لكل من الرجل والمرأة إنه زوج كذلك كلمة "للذين اتقوا" عامة تشمل كل من اتصف بالتقوى من رجل وامرأة والخطاب القرآني جاء على عادة العرب في خطابها فإنها تغلب الذكور على الإناث حميئةً وأنفةً على ما اعتادت في حياتها وإذا فهمنا الآية على هذا المساق كان معناها أن لكل من يتقي الله من رجل وامرأة زوج في الجنة من الأزواج المطهرين هذا واحد من وجوه تأويل الآية.

وهناك وجه آخر وهو أن الله جعل كل أنواع خلقه أزواجاً فلا وجود للفردية إلا لله ﷻ فإنه الواحد الأحد الفرد فيجوز أن يكون معنى الآية أن الذين اتقوا ربهم لهم أزواج مما يشتهون فليس في الآية ما يخصص الأزواج بالآدميين فضلاً عن توهم اختصاصه بالزوجات كما ذهب إليه الكثير من المفسرين.

والأزواج كلها مطهرة فالماء طهور والعسل طهور والخمرة طهور كل ما في الجنة مُطَهَّرٌ وطاهر وطهور أما إذا أولت كلمة الأزواج بالنساء فتطهیرهن بما يليق وحال أهل الجنة، والإشارة إلى طهارتهن من الحيض والنفاس والقاذورات في الجانب الحسي أو طهارتهن من الطبائع الذميمة والأخلاق اللثيمة في الجانب المعنوي، إغراق في النظر النازل بما لا يتناغم مع مكانة أهل الجنة ولا مع مكانة الدار الآخرة عند الله فإن الله ﷻ ذكر في كتابه أن الجنة ومن فيها كلهم مطهرون فالأزواج مطهرة والماء طهور والخمرة لا غول فيها فهي طهور وكذلك وصف

(١) مختار الصحاح ص: ٨٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الله في كتابه الصحف بأنها مطهرة قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١) ،  
وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (٢) .

### ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

الرضوان مصدر رضي وقد جاء بضم الراء وكسرها فمن كسرها جعل المصدر كالحرمان والرتمان ومن ضمها كالرُجحان والسُكران والغُفران والكُفران، والرضوان أبلغ من الرضى فالرضى يصدق على مطلق الرضى ولكن الرضوان لا يصدق إلا على الرضى البالغ الكامل الذي لا يتبدل ولا ينقص (٣).

والذي لأهل الجنة رضوان من الله وليس رضوان الله فما الفارق بينهما؟ لو قال: لهم رضوان الله لما استلزم رضوان غيره فهم في الدنيا لهم رضوان الله مع وجود الأعداء والقالين فيها. ولكنه قال: "للذين اتقوا.... رضوان من الله" فإذا وضع الله لهم الرضوان في الجنة رضي عنهم جميع من فيها ولا يضع لهم الرضوان إلا وقد رضي عنهم هو ﷻ فقوله: رضوان من الله يشمل رضاه عنهم ورضا من في الجنة عنهم أيضا.

### ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْأَعْمَارِ﴾

بصير على وزن فعيل وهي من صيغ المبالغة فلا يقول باصر بل بصير. وبصير مأخوذ من بصر يبصر وهو فعل متعدّد بنفسه تقول بصرت زيدا فكان من حقه لو بقي على معناه أن لا يؤتى بعده بحرف الجر - بالعباد - ولقال:

(١) عبس: ١٣-١٤.

(٢) البينة: ٢.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٦٥.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

"والله بصير عباده" فلما عُدِّي بحرف الجر الباء عرفنا أن اسم الفاعل المبالغ فيه ضَمَّن معنى فعل آخر وهو خبير فيقال زيد خبير بكذا أي عالم به تمام العلم والله بصير بالعباد أي ان الله خبير بمن يتقي الله وبمن لا يتقيه، والله أعلم.

### (عباد)

جمع عبد فيقال في جمع عبد عباد وعبيد إلا أن الأغلب في تعبير القرآن استعمال عباد بالمؤمنين وعبيد بالكافرين والله أعلم.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَوَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ الْمَكِّيِّينَ

وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْتَجِفِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

بعدما أخبر ﷺ عما أعد للمتقين عنده، راح يصفهم بأوصافهم التي تأهلوا بها لهذا العطاء الكريم فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾

فهم يقولون هذا القول ويعيشون على أساسه ومقتضياته فلم يكن الشقاق بين القول والعمل قد دب في الحياة فكان ما يقوله العربي هو ما يعمله ويحبه به وله وعندما يحدث الشقاق في حياة الناس بين أقوالهم وأعمالهم تفسد الحياة ولو حدث هذا الشقاق في جانب من الحياة واحد لفسد هذا الجانب واستشرى إلى الجوانب الأخرى ضرورة عدوى الأمراض الخلقية والاجتماعية في الأشخاص والمجتمعات.

والإسم "الرب" كان وسيلة الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين في أدعيتهم ومناجاتهم وكان هذا الاسم أيضا هو قبلة القلوب في عبادة الله قال

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾<sup>(١)</sup>، لماذا التأكيد على هذا الاسم؟ كل الأدعية إلا ما ندر جاء بصيغة - ربنا - لابد أن يكون لهذا الاسم شأن خاص في باب الدعاء ولم يكن فيه إلا استتعار للمربوبية لله أثناء الدعاء لكفى ولكن أسرار أسماء الله كثيرة والولوج إليها يخرج هذا المجموع عما وضع له.

### ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَاكَ فَاغْفِرْنَا دُونَنَا﴾

أسأؤوا في الماضي حيث لم يكن لهم داع يدعوهم إلى الإيمان فأشركوا بربهم غيره في أنفسهم وأموالهم وأولادهم جعلوا لله شريكاً في ملكه وخلقه في أنفسهم وأهليهم فلما جاءهم الداعي إلى الإيمان آمنوا وندموا على ما مضى فطلبوا من ربهم أن يغفر لهم ما مضى ويفتح لهم صفحة جديدة في العلاقة معه إنها صفحة الإيمان بالله ورسوله.

### ﴿فَاغْفِرْنَا دُونَنَا﴾

قال في اللسان: أصل الغفر: التغطية والستر تقول العرب: اصبح ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه أي أحمل له وأعطى له<sup>(٢)</sup>، وقريب من هذا جاء في المصباح المنير<sup>(٣)</sup> ويقال لما يضعه المقاتل على رأسه وعنقه من حديد مغفر<sup>(٤)</sup> والمنتبغ لكلمة غفر واشتقاقاتها ويستشعر بفارق بين مادة غفر ومادة ستر فكأن مادة غفر أخذ فيها مع معنى الستر المنع من الكشف أو المحافظة على المستور وهذا

(١) البقرة: ٢١.

(٢) لسان العرب ج: ١٠/ص: ٩١، المصباح المنير ج: ٤/ص: ٦١٥.

(٣) لسان العرب ج: ١٠/ص: ٩١، المصباح المنير ج: ٤/ص: ٦١٥.

(٤) المصدر نفسه ج: ١٠/ص: ٩١، المصباح المنير ج: ٤/ص: ٦١٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

المعنى يتناغم مع مغفرة الذنب لأن الذنب بعد وقوعه لا يتطلب إزالته لأن صورة الذنب قد وجدت في كثير من جهات وأنواع الوجودات سواء في نفس الإنسان أو في الكون وسواء كان هذا الذنب قولاً أو فعلاً ولهذا علمنا الحق ﷺ أن نطلب من الله أن يغفر الذنب فلا يتعدى منه ضرر على فاعله ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: "اللهم أنت ربي خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت" فلو لم يكن له وجود لما استعاذ منه وكذلك لو لم يمكن أن يلحق وجود الذنب شراً بصانعه لم يستعذ بالله منه.

وإنما قدموا أنفسهم على ذنوبهم لأنهم توسلوا بإيمانهم فكأن لهم نوع اختصاص في مغفرة الذنوب لهم اغفر لنا - لإيماننا - ذنوبنا ومغفرة الذنب هي ستر الذنب بما يدفع ضرره عن صانعه. وأما الذنب فأصله الإتياع لأن الذنب يتبع فاعله دنيا وآخره.

### ﴿وَمِنَ عَذَابِ النَّارِ﴾

كان هذه الجملة تفسير وبيان لما قبلها لأن من غفر ذنبه فقد وقي عذاب النار. فيكون المعنى: اللهم احجب عنا ذنوبنا لئلا تقع في النار وعذابها ولهذا كان من دعاء الملائكة: "وقهم السيئات ومن تق السيئات فقد رحمته".

### ﴿الْمَصْبِرِينَ﴾

الصبر هو الحبس والصابر اسم فاعل بمعنى الحابس قال تعالى: "وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" أي احبس نفسك. وتقول: صبرت على كذا إذا حبست نفسك عليه ويقال أيضاً صبر لكذا أي من أجله وصبرت بالله أي بالاستعانة بالله.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

و"الصابرين" مع بقية الصفات جاءت مطلقة والمطلق يُحمل على إطلاقه فيشمل جميع الصور صبر مع المؤمنين وصبر لله، وصبر بالله، وصبر على الأذى وصبر على الطاعة وصبر على المعصية كل هذه الأنواع يشملها النص لأنه مطلق وهكذا بقية الصفات.

### ﴿وَالْمُكْرِمِينَ﴾

الصدق: حكاية الحق أو الإخبار عن الواقع بما هو عليه وذلك لأن الصدق من صفات القول وأما استعمال الصدق في الإيمان أو العمل فهو استعمال مجازي.

### ﴿وَالْقَنِينِ﴾

القانت: الطائع دائماً فلا يعصي وقيل: القائم للعبادة وقيل القائم بالحق<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾

النفق الطريق تحت الأرض يكون له بابان ولهذا يسمى جحر اليربوع نافقاً لوجود مخرجين له أو أكثر والمنفق: الذي يدخل الشيء في النفق، ثم استعير لإعطاء المال لوجه الله تعالى لأن المعطي يعطي ماله سرّاً لئلا يراه الناس.

### ﴿وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

استغفر: الألف والسين والتاء للطلب فهو لاء يطلبون غفر ذنوبهم وفي وقت مخصوص — بالأسحار — والسحر: السدس الأخير من الليل، وهم الطالبون من الله دائماً الثابتون على هذه الحال في كل سحر لما في دلالة الإسم على الثبات والدوام ولما في الأسحار من العموم لأن الألف واللام فيه للاستغراق.

(١) لنظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٥٨٤. التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٦٦-١٦٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وهذا الوقت هو المناسب لمثل هذا الطلب لأن الله يتجلى فيه لعباده هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه ولأن السحر وهو آخر ظلام الليل يناسب التغطية والستر لما فيه من الستر أيضاً ولما فيه من السكون ولأن القائم في مثل هذا الوقت دالٌّ على صدقه في طلبه وحرصه على ما يطلب فهم المتقون حقاً. هذه صفات المتقين: إنابة إلى الله بالدعاء وصبر على الطاعة وصبر عن الشهوات المحرمة وصدق في الحياة وثبات على طاعة ربهم عند هبوب عواصف الابتلاء والشهوات وإنفاق في وجوه الخير لا يميلون إلى وجه تون وجه المخصوصون بساعات الليل الأخيرة مع ربهم يتوسلون إليه في مغفرة جميع ذنوبهم قلله درهم من عبادة.

وبذلك ينتهي هذا الفصل في المقارنة والموازنة بين فريقين من الناس فريق ألهمهم الحياة الدنيا عن الآخرة وفريق أخذوا ما يشبع رغباتهم في الحياة الدنيا وعملوا لأخذ نصيبهم في الحياة الآخرة.



# الفصل الخامس

تخلي الأديبي والإختلاف فيه





## الفصل الخامس

### في الدين والاختلاف فيه

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابًا بِأَلْقَسَطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَةُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا  
 مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْوَعْدُ بِغِيَابِ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾  
 فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وجهي لله وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ  
 أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ  
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِندَ حَقِّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ  
 النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
 وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ  
 لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فِرْقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا  
 مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ  
 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ آل عمران: ١٨ - ٢٥﴾

﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾

شبهت دلالة تعالى على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره  
 وبما أوحى من آياته الناطقة بالوحدانية كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما  
 بشهادة الشاهد في البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك<sup>(١)</sup> وإنما

(١) الكشف: ج ١/ص ٤١٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

جاءت الصيغة بالفعل الماضي لتدل على أن الشهادة وقعت وأخذت حكمها فلا تحتاج القضية إلى تجديد في هذه الشهادة.

**﴿أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**

لا نافية للجنس وخبرها محذوف تقديره: لنا أو موجود أو في الوجود، ونفي الجنس يفيد نفي الماهية أي لا يوجد إله غير الله والنفي أبلغ من النهي لأن النهي يقتضي إمكان وجود غير الله إليها فيأتي النهي عنه.

**﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾**

يقال: ملائك و ملائكة والمفرد مَلَكٌ وإنما سمي الملك مَلَكاً لشدته وقوته نقول: ما تمالك فلان أن قال كذا أي ما تماسك<sup>(١)</sup> وتقول: ملكتُ العجين إذا شددت عجنه وتماسك.

**﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾**

أي أصحاب العلم ولم يخص القرآن الكريم علماً بعينه لأن العلم معرفة المعلوم والمعلوم يدل على خالقه ضرورة فكل العلوم توصل إلى الشهادة لله ومحاولة تخصيص العلم بنوع دون آخر يأباه إطلاق النص.

**﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾**

قائماً حال مؤكدة أي مقيماً للعدل وذلك لأن الإله هو الحاكم والحاكم قد يقيم العدل وقد يعدل عنه ولهذا جاء هذا الحال ليرفع توهم ما لا يليق من الحكم بالحيف في ذات الله تعالى.

**﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**

(١) مختار الصحاح: ٢٦٥.

## التفسير التحليلي للشجر الأول من سورة آل عمران

بدأ بها وختم تأكيداً وإقراراً فالحاكمية في الخلق مقصورة عليه دنيا  
وأخرة لا إله إلا هو .

### (الْمُرِيدُ الْحَكِيمُ)

الصفتان هما مستندا الحاكمية في الكون الغلبة والحكمة فمن كان مغلوباً  
لقضاء حاجته وتدبير حاضره ومستقبله لا تصح له الألوهية عليها ومن لم يكن  
حكيماً في قضاائه وفعله انكسرت عليه مملكته (١).

### (إِنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِسْلَامَهُ)

إنه كلام مستأنف على أصح الوجوه يبين الله فيه معنى الإيمان بالإلوهية  
فالعرب تدعي الإيمان بالله وأهل الكتاب يدعون ذلك أيضاً فما هو هذا الإيمان؟.

### (إِنَّ الْإِيمَانَ)

الدين بكسر الدال العادة والشأن يقال: دان زيد عمراً ديناً بكسر الدال إذا  
أذله واستعبده ويقال: دان له أي ذل وخضع (٢) هذا هو معنى الدين في هذا الموقع  
فيكون معنى الإيمان بالإلوهية لله هو الذلة له والعبودية فمن لا يشعر بهذه الذلة  
والعبودية فليراجع إيمانه من جديد.

### (إِنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِسْلَامَهُ)

أي إن العبودية المقبولة عند الله إنما هي الإسلام والإسلام: هو مصدر  
الفعل المزيد أسلم يقال: أسلم يسلمُ إسلاماً تقول: أسلمت نفسي لزيد إذا وضعت  
قيادك في يده يقودك كيف يشاء فالهمزة إنما جاءت للتعدية ولا يصح حمل الإسلام

(١) انظر التفسير الكبير: ج ٣ / ص ١٧١.

(٢) انظر مختار الصحاح ص ٩٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

على الاستسلام لأن الاستسلام مصدر استسلم والذي معنا إسلام لا استسلام هذا أولاً، وثانياً: إن استسلم تدل على التكلف في التسليم بخلاف أسلم ويمكن تفسير أسلم على معنى الدخول في الإسلام كما تقول: أصبح إذا دخل في الصباح وأمسى إذا دخل في المساء فيكون معنى الآية: إن الدين عند الله الدخول في الإسلام وهو الدين الجديد فيكون الدين المقبول عند الله إنما هو دين الإسلام فقط.

والمعنيان صحيحان وإن كنا نميل إلى الأول جرياً للفعل أسلم على أصله الذي وضع له ولأن العبودية لله لا تتحقق إلا بإسلام الوجه والقلب إلى الله ليصرفهما كما يريد، أسلم نفسك لربك واسترح فما أمرك به فامتثل له وما نهاك عنه فاجتنبه وما تركك فهو مباح لك أسلم نفسك لربك في عقيدتك وعبادتك ومعاملتك وأخلاقك فان فعلت ذلك كنت المسلم حقاً.

### ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ﴾

نو أسلم أهل الكتاب أنفسهم وقلوبهم لله فيما أخبرهم أنبيأؤهم وفيما يقرؤونه في كتبهم من إرسال رسول بعد رسلهم لو أسلموا أنفسهم لله لآمنوا برسالة محمد ﷺ فلا يكفر أحدهم برسالة محمد ﷺ إلا بعد أن يكفر برسالة نبيه الذي ينتسب إليه. وأهل الكتاب قبل إرسال محمد ﷺ كانوا مسلمين أنفسهم لله فيما أخبرهم به من إرسال رسول بعد رسولهم وعزمهم على الإيمان به ومناصرتة إلا أن رغبتهم في تسلط بعضهم على بعض وعدوان قبيلة منهم على قبيلة جعلهم ينكلون عن هذا الإسلام لله ولرسله زد على ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يكون النبي الخاتم منهم وليس من العرب لما في أنفسهم من احتقار للعرب وازدراء بهم أحسب أن هذا المعنى هو الظاهر من سياق النص وسباقه على الرغم من وجود وجوه أخرى.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (بَغِيًّا يَنْهَمُ)

أصل البغي الطلب تقول أبغي كذا إذا طلبته ولكنه هنا قصد به الطلب مع الظلم أي بدون حق وبغياً إما منصوب على أنه مفعول له أي ما اختلفوا إلا للبغي أو أنه منصوب بما دل عليه السياق كأنه قال: وما بغى الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم.

### (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ)

هكذا تأتي هذه التعقيبية عامة من يكفر بآيات الله لتشمل كل من ينطبق عليه الوصف فأيات الله: الحجج التي وضعها في الكون كله وآيات الله المنزلة في القرآن وآيات الله المنزلة في التوراة والإنجيل على صدق محمد ﷺ كلها آيات الله ودلالاته على صدق دينه وأحقية رسالته.

### (فَاتَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

المقصود بالحساب هنا إما المحاسبة على الأعمال وإما الجزاء عليها فإن الحساب أن تأخذ مالك على غيرك ومنه قوله تعالى: "يوفيه حسابه" والسرعة في المحاسبة تظهر في اليوم الآخر عندما تأتي الملائكة الموكلة بكل إنسان فتضع أعماله في ميزانه فتتم محاسبة المخلوقين في لحظات أو لحظة كأنها حساب شخص واحد فقط والسرعة في المحاسبة في الدنيا أيضاً على هذا الأساس فكل عمل يعمله ابن آدم يوضع في صحيفة عمله خيراً في صحيفة الخير وشرّاً في صحيفة الشر وأما السرعة في الجزاء في الآخرة فظاهر في سرعة المحاسبة وأما السرعة في الجزاء في الدنيا فهي على الفور وأول مظاهرها نور الطاعة في قلب المطيع وظلمة المعصية في قلب العاصي ولهذا يقول ابن عطاء الله السكندري "جل ربنا أن نعامله نقداً فيعاملنا نسيئة بل عد شيخ الإسلام ابن تيمية من أسباب الجهل في دين

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الله ما يرتكبه الإنسان من معاصي الله <sup>(١)</sup> بل نقول أن من سرعة الجزاء في الدنيا على الذنب نسبة الذنب إليه من حين التلبس بالذنب سواء كان الذنب قولاً أو فعلاً أو كان من أعمال القلوب فجل جلال الله.

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَتَسَلْتُهُمْ إِنْ اسْتَلِمْتُمْ وَإِنْ اسْتَلِمُوا فَقَدْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِآلِمٌ ﴾

تبدأ هذه الآية ب(إن) الدالة على الاستبعاد و الشك فإن حاجوك فكيف صح هذا الاستبعاد مع قيامهم في الجدل واللجاج فيه؟ فيقال في الإجابة عن هذا التساؤل إن الله سبحانه أقام وضوح ما يدعوا إليه في كتابه وفقدان الخصم أي طريق للمعارضة الجادة الصادقة أقام ذلك مقام الشك والاستبعاد إذ من البديهي أنه لا يقدم على الحجاج إلا من بيده جزء من الحق أو شبهة حق وأي حق بيد من يدعى إلى البديهييات فيعاند وإلى ما يعرف من الحق فيناكد !!؟

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾

أصل حاجوك حاججوك فأدغمت الجيم في أختها للتخلص من التكرار. وحاجوك: من باب المفاعلة أي فإن طلبوا منك المقارنة بالحجة ؟ فقل: أسلمت وجهي لله: أي لست أنا الذي أحاججكم بل أنا أسلمت وجهي لله فإن شاء مني أن أقارعكم بالحجة فارعتكم وهي عودة إلى البديهة الأولى: إن الدين عند الله الإسلام فلو أسلمتم الله وجوهكم ونظرتهم ما أمركم به من الإيمان بي وبما أرسلت به لدخلتم في ديني وكنتم مثلي مسلمين لله.

(١) الفتاوى الكبرى ج ١٤ / ص ١٥٢ - ١٥٣

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وإسلام الوجه كناية عن الانقياد والطاعة والمتابعة والإسلام لله يستلزم الإعراض عن متابعة غيره ضرورة عدم إمكان متابعة اثنين في آن واحد<sup>(١)</sup>.

**﴿ وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾**

أي ومن اتبعني أسلم وجهه لله أيضاً لأن تابع التابع تابع وأصل الكلمة: اتبعني فحذفت الياء وأبقيت الكسرة على النون لتدل عليها في حالة الوصل وسكنت في الوقف قال أبو حيان: "وأثبت ياء اتبعني في الوصل أبو عمر ونافع وحذفها الباقون وحذفها أحسن لموافقة خط المصحف"<sup>(٢)</sup>.

**﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنِ ءَسْلَمْتُمْ فَقَدْ ءَهْتَكُمُ ﴾**

**﴿ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾**

هم اليهود والنصارى والأميون هم الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وغيرهم كالمجوس وعبدة الأوثان كما ذهب إليه الإمام الرازي ، وإنما سمي العرب أميين لوجهين أولهما: أنهم ليسوا بأهل كتاب والثاني: أن الكتابة والقراءة فيما بينهم قليلة فغلب عليهم هذا الاسم<sup>(٣)</sup>.

**﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾**

هذا النوع من الكلام كان أمراً عليهم من الصبر ماذا يقول إنسان يدعي الدين والانتساب إلى الأنبياء عندما يقال له: أتسلم لرب العالمين؟ ماذا يقول وهو

(١) البحر المحيط ج ٣ / ص ٧٤

(٢) التفسير الكبير ج ٣ / ص ١٧٥.

(٣) المرجع السابق.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يعلم أنه حرّف وبدّل، أيقول نعم فيقال له إئت بكتاب الله الذي عندك أم يقول لا فيفتضح، كلاهما مرّ.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾

مجرد إسلامهم لله هداية لهم، فإسلامهم هدايتهم لأن هدايتهم ناتجة عن إسلامهم وإسلامهم يعني الصدق في موقفهم من كتابهم فإن أسلموا حقيقة وعملاً فقد اهتدوا لهذا لم يقابل القرآن القول بالقول لم يقل: فإن قالوا أسلمنا لله فقد اهتدوا لأنهم هم الذين حرفوا كتابهم بغياً بينهم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

﴿تَوَلَّوْا﴾

أي أعرضوا.

﴿وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾

المرسل هو المالك، والرسول مملوك مثله مثل من يدعو المالك وهو يدعو مملوكيه بواسطة واحد منهم لم يوجب عليه إلا البلاغ، تقول: بلغ زيد المكان أي وصل إليه ويطلق أحياناً على مقاربة الوصول، وبلغ الغلام: أدرك وبابهما دخل أي أن المصدر منهما على وزن فُعول بلغ بلوغاً، والإبلاغ والتبليغ الإيصال والإسم منه — البلاغ — والبلاغ أيضاً الكفاية<sup>(١)</sup> تقول: إن لك فيه بلاغاً أي كفاية.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

بصير هنا من البصيرة لا من البصر بدليل تعديته بالباء فكأنه ضَمَّنَ معنى

(١) مختار الصحاح ص: ٣٣.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

خبير وفائدة العدول من التصريح بالإسم خبير إلى تضمين بصير به لتكون الخبرة قريبة من البصر فكانها مشاهدة والله أعلم.

### ﴿بِالْبَاءِ﴾

(أل) في العباد جنسية أي كل العباد من مؤمن وكافر وفي هذا الاستعمال ردُّ على من توهم أن عباداً لم تستعمل في القرآن الكريم إلا للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

### ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

أي ينكرونها بدليل التعدية بالباء لأنه لو أراد معنى الستر لقال: يكفرون آيات الله بدون حرف الجر والتعبير بالفعل المضارع ليدل على أن هذا شأنهم وفعلهم المتجدد في كل وقت.

### ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

ويقتلون النبيين هذه سمتهم التي يمتازون بها من دون الناس.

### ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

قيد واقعي وليس قيداً احترازياً فلم يوجد قتل نبي بحق في التاريخ<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾

قرأ حمزة وحده: ويقاثلون بدل ويقتلون<sup>(٢)</sup>.

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٧٧.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٧٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿بِالْقِسْطِ﴾

القِسْطُ: بالكسر العدل تقول منه: أقسط الرجل فهو مقسط ويطلق القِسْطُ على الحصة أيضاً. وأما القُسُوطُ فهو الجور والعدول عن الحق وبابه جلس أي قَسَطَ يقسط بفتح السين في الماضي وكسرها في المضارع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١) (٢).

### ﴿مِنَ النَّاسِ﴾

أي غير الأنبياء إذ لو قال: ويقتلون الذين يأمرون بالقسط لشمّل الأنبياء لصدق النص عليهم فيكون تكراراً (٣).

### ﴿فَيَبْزُقُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

البشارة هي الخبر السار، وسميت بشارة لظهور أثرها على بشرة المخبر بها لأن من وصل إليه خبر يسره انفتحت أسارير وجهه وابتسم للبشارة بل انبسطت جميع عضلات جسده، وعلى العكس تكون حالة من يلقي عليه خبر سيء فان أساريره تنقبض وكذا جميع عضلاته، بل إن جميع الغدد في جسم الإنسان تتأثر بما يصل إليها من أخبار وانظر إلى فم من يصل إليه خبر مزعج كيف يعتريه اليبس في اللسان والشفنتين لتوقف غدد اللعاب عن الإفراز في داخل الفم. والعذاب الأليم أي المؤلم أو المألوم فكأن العذاب يشعر بالألم واستخدام لفظ البشارة هنا إما تهكماً وإما إقامة لعامل السوء إقامة من ينتظر نتيجة عمله

(١) الجن: ١٥.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٢٥.

(٣) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٧٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ولأن الإخبار بالعذاب الأليم يظهر أثره على بشرة المخبر أيضاً.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ حَبِطَتْ ﴾

جاء هذا الفعل على باب فهِم فيقال: حَبِطَ يَحْبِطُ حَبْطًا بمعنى بطل تقول: حَبِطَ عمله: إذا بطل ثوابه وجاء على باب جَلَسَ فكان مصدره حَبُوطًا وَالْحَبْطُ: بفتحين أن تأكل الماشية فتكثر الأكل حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها<sup>(١)</sup> فتبطل فائدة ما أكلته وإنما ذكرنا هذا للنبيين أن البنانيين للفعل حبط لهما معنى واحد.

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾

بطلت ولم تؤد ما كانوا يودون من إيقاف مسيرة الإيمان ودعائه ممن الرسل وأتباعهم، بل كانت قافلة الإيمان بقيادة الأنبياء وأتباعهم هي الباقية وحبطت أعمالهم في الآخرة لأن الآخرة يوم جزاء على الأعمال والذي يجمع الناس للجزاء إنما هو الله الذي دعاهم إلى الإسلام له على السنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهم لم يكتفوا بعدم قبول الإسلام له بل قتلوا المبلغين عنه من الأنبياء وغيرهم فلا يطمعون بشيء يسرهم في ذلك اليوم أصلاً ولذلك حكى الله عنهم معرفتهم سوء المصير منذ خروجهم من قبورهم قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(١) مختار الصحاح ص: ٥٨.

(٢) يس ٥١ - ٥٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾

وما يملكون من ناصرين يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ولا ينصرونهم في الحياة الدنيا بل هم خسروا الدنيا والآخرة قال في البحر المحيط: "والمعنى بانتقاء الناصرين انتقاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد وإذا انتقت من جمع فانتقاؤها من واحد أولى وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحداً" (١) ولا أدري كيف فهم أبو حيان هذا الفهم إذ من المعلوم أن المفرد في سياق النفي أعم من الجميع فلو كانت الآية على هذا النظم "ومالهم من ناصر" لدلت على نفي جنس الناصر فلا يدخل فرد من أفراد الناصر أصلاً فقولنا: ماله من ولد، ينفي كل ولد وأما قولنا: ماله من أولاد فإنما ينفي المجموع فقط ولهذا يصح أن نقول: ماله من أولاد بل ولد واحد أو ولدان ولا يصح أن نقول: ماله من ولد بل ولدان لوجود التناقض بين أصل الكلام وما استترك منه وكذلك ذهابه في تأويل النصر بما يكون من ثمراته لتوهمه أن حقيقة المقابلة والانتصار فيها غير ممكن في اليوم الآخر بل للذين كفروا أن يستسلموا للمصير فقط ولكن القرآن ينقل لنا غير هذا التصور عن اليوم الآخر قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَنِ نَفْسِهَا﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣).

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٧٨.

(٢) النحل ١١١.

(٣) الأعراف ٥٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وبهذا يتبين لنا أنهم وعلى الرغم من هول الموقف يجادلون عن أنفسهم بل ويفتشون عن شفاء فهم يستنصرون على مصيرهم السيئ وما يجدون من ناصرين، والتعبير بالجمع هنا لأن الآية وإن كانت خبراً إلا أنها على معنى الحكاية لأنك لا تقول مالهم من ناصرين إلا إذا تحقق طلبهم للناصرين، وهم بهذا الموقف المرعب تتنابهم الحيرة والذهول من معاينة الإفلاس من كل أعمالهم التي قدموها على ظنهم لتنتفعهم في هذا اليوم إن كانوا من أهل الكتاب أو التي عملوها في أبواب الخير والمنفعة العامة إن كانوا مشركين لا سيما وهم يرون بأم أعينهم ما ينتفع به أهل الإيمان من أعمال.

ويتفق أبو حيان والإمام الرازي على أن الله ﷻ لما ذكرهم بصفات ثلاثة هي الكفر بآيات الله وقتل النبيين وقتل الدعاة رتب عليهم أجزية ثلاثة العذاب: العذاب الأليم وإحباط العمل وعدم النصير فكان الأول للأول والثاني للثاني والثالث للثالث<sup>(١)</sup> على طريقة اللف والنشر المرتب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا

فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾

الاستفهام تعجبي إنكاري، تعجبي: من أناس بيدهم حكم الله فيتركونه ليتحاكموا إلى أهوائهم وأعرافهم وإنكاري لأنهم يدعون الانتساب إلى كتب الله وأنبيائه فلا تصح لهم هذه النسبة وهم يعرضون عما ينتسبون إليه.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾

يصدق النص على كل من أوتي من كتب الله نصيباً وذكر اليهود

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٧٧، البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٧٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والنصارى في كتب التفسير<sup>(١)</sup> لا يعدوا أن يكون واحداً مما يصدق عليه النص.

### (نصيباً)

النصيب: الحظ وتكثير النصيب في الآية لا يحتمل غير التعظيم لأن التقليل والتحقير وإن كانا من دلالات التنكير لا يتناغم مع سياق النص بل يعد عذراً لهم.

### (مَنْ أَلْكَتَابِ)

الألف واللام في الكتاب جنسية فتعم كل الكتب المنزلة من الله ومن للتبعيض فيكون التقدير ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً عظيماً من الكتب المنزلة ويمكن اعتبار الألف واللام للعهد وكتاب اسم جنس فيكون الخطاب كالإشارة إلى ما يفعله اليهود والنصارى<sup>(٢)</sup>.

### (يُنْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

النص كما ذكرنا شامل كل من بيده كتاب الله — أي كتاب — ثم يدعى إلى التحاكم إليه فيعرض عنه، وذكر المفسرون التوراة باعتبار أن النص جاء في القرآن الكريم ليحكم عليهم، والنص الحاكم لا تقيد القضية المحكوم فيها ولهذا ذهب من السلف من يقول: "إلى كتاب الله" أي القرآن<sup>(٣)</sup> فالتحاكم إلى كتب الله من أهم ما جاءت به كتب الله وما قيمة كتاب أو قانون معطل أو ملغى لا دور له في حياة الناس، ألم تر أن القرآن في هذا البيان جعل الفارق بين المؤمنين وغيرهم إنما

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٧٩، البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٨٠-٨١.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٨١.

(٣) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٧٩، البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٨١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هو تحكيم كتاب الله ألم تر أن الله استنكر عليهم ادعاء الإيمان مع عدم تحكيم كتاب الله.

﴿يَبْتَغِيهِمْ فَيُعْطِيهِمْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْبَلُونَ﴾

تولى العمل أي نقله وتولى عنه أي أعرض عنه. ثم يتولى فريق منهم: ماذا؟ وعن من؟ يقول أبو حيان: "وهم معرضون: جملة حالية مؤكدة لأن التولي هو الإعراض أو مبينة لكون التولي عن الداعي والإعراض عما دعا إليه فيكون المتعلق مختلفاً أو لكون التولي بالبدن والإعراض بالقلب، أو لكون التولي من علمائهم والإعراض من إبتاعهم<sup>(١)</sup> واحسب أن الراجح من هذه الأقوال هو الرأي الثاني القائل بأن التولي بالبدن والإعراض بالقلب لأن الأول والثالث يستلزمان التقسيم في تفسير النص مع عدم وجود حاجة إلى هذا التقسيم وعدم وجود إثارة من دليل عليه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَمْدُودَاتٍ﴾

هذا موقف تحليلي من القرآن الكريم لموقفهم ذلك يشرح ويعيد المواقف إلى أسبابها النفسية إن هذا النوع من التحليل لم يكن الناس ليتكلموا به بل إن هذا التحليل يستدعي العلم المسبق بما هم عليه من أفكار وعقائد هذا النوع من العلم لم يكونوا يعرفونه من محمد ﷺ ولا ينسبونه إليه ولهذا يكون الإعلان عنه فيه إخراج لهم من ناحيتين:

الأولى: أن محمداً ﷺ لم يكن درس التوراة ولا فقه اليهود وعقائدهم فكيف

عرف ذلك؟

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٨٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الثانية: هذا التحليل للمواقف وإرجاعها إلى أسبابها النفسية مما لم يكونوا يألفوه في حياتهم الدينية.

إنهم في غرورهم يعتقدون أنهم لن يكونوا حطياً لجهنم حتى لو عملوا ما عملوا من المعاصي والموبقات إن النار سوف تمسهم فقط ولا تحرقهم وهي وإن مستهم فسوف لن تمسهم طويلاً بل أياماً معدودات وهي بين السبعة أيام والأربعين يوماً وهي المدة التي عبدوا فيها العجل<sup>(١)</sup>، وبالمقارنة بين ما يفوتهم من مركز وجاه إذا أسلموا وبين تحمل مس النار أياماً معدودات يترجح لديهم تحمل مس النار هذه الأيام على التفريط بجاههم ومكانتهم بين رعاياهم إذ لا يغيب عن بالنا أن الذين يعبثون هذا العبث في ديانتهم إنما هم الأبحار والوجهاء والقادة كل منهم يخدم الآخر في ذلك الاتجاه.

ومن الواضح أن هذا التعليل وارد في عدم التحاكم لدينهم إذا دُعوا إلى ذلك التحاكم فهم إذن استحقروا الخروج على ديانتهم لخفة المسؤولية عليهم يوم القيامة كما يدعون وأن النار تمسهم أياماً معدودات وإنما نبهنا على سبب هذا التعليل لأن من المفسرين من ذهب إلى توهم غير هذا<sup>(٢)</sup>.

### ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

جاء في سورة البقرة: أَيَّامًا مَّعْدُودَةً "لأن أياماً جمع تكسير وجمع التكسير يصح نعتة كنعته المفرد ويصح نعتة كنعته جمع المؤنث فنقول: جبال شامخة وجبال شامخات ونساء قائمة ونساء قائمات<sup>(٣)</sup>."

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٨٣.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَعَرَّمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾

قال مجاهد: الذي افتروه هو قولهم: "لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات" وقال قتادة: "قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه" وقيل: قولهم: "لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى"، وقيل: مجموع هذه الأقوال، سرد هذه الأقوال في البحر المحيط<sup>(١)</sup> وقول مجاهد هو الصحيح من هذه الأقوال لأن احتمالات العموم إنما جاز الأخذ بها إذا لم يكن التخصيص في نفس النص وكذلك الإطلاق في المطلق وإذا كانت ما من ألفاظ العموم فقد جاء معها المخصص وهو "لن تمسنا... الخ" فكيف نذهب في قبول احتمالات أخرى في تفسير النص!!؟

يقال: غر يغر بكسر الغين غروراً أي خدعه، وتقول: ما غرّك بفلان أي كيف اجترأت عليه<sup>(٢)</sup> ومن المعلوم أن الآية على هذا التقدير: "وغيرهم افتراؤهم على دينهم في ترك التحاكم إليه وذلك لعدم مناسبة العقاب في نظرهم لما يرتكبون من مخالفة لدينهم على قاعدة: "من أمن العقاب أساء الأدب" وسواء ذهبنا أن غرّ في الآية معناها الاستغفال أو الخديعة فكلا المعنيين صادق عليهم فقد كان السبب في ترك دينهم استغفالهم لأوامره ومخادعتهم لأنفسهم ولأبناء دينهم.

### ﴿مَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾

يقال: افترى الرجل الفرو أي لبسه وافترى كذباً أي اختلقه<sup>(٣)</sup> فالافتراء

(١) المصدر نفسه.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٠٠.

(٣) مختار الصحاح ص: ٢١٢.

## التفسير التخليقي للشطر الأول من سورة آل عمران

أشد من الكذب لأن الكذب نقل خير ليس على وجهه والافتراء أن تخلق الكذب اختلاقاً ولهذا جاء في القرآن الكريم: **(يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ)** (١)، فاليهود لم يكن عندهم نقل خير كالتبيل هم اختلقوا الكذب اختلاقاً وتسيوه إلى دينهم ومثل هذا الإخبار عما كانوا يفعلون ويختلفون في دينهم من قبل القرآن الكريم يربك مسيرتهم وموقفهم من أهل دينهم فلا يبدؤ أنهم سائلون أنفسهم من أخير محمداً ﷺ بتلك مع ما كانوا يعظمونه من أنفسهم من التكنم على مثل هذا الافتراء وعدم الإعلان به حتى لأهل دينهم ..

**(كَيْفَ إِذَا جِئْتُمْ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ وَوُجِّتَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا**

**يُظَاهَرُونَ)**

هذا الخطاب تعجب من حالهم كيف يقترون بمثل هذا القول وهم يعلمون أنه مما صنعته أفكارهم المنحرفة كيف يقترون بتلك وهم يؤمنون بيوم الحساب ولا يرتابون فيه.

**(وَوُجِّتَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ)**

قال الرازي: **فإذا حملت ما كسبت على عمل العبد جعل في الكلام حذف والتقدير: ووجِّت كل نفس جزاء ما كسبت من ثواب أو عقاب وإن حملت ما كسبت**

على الثواب والعقاب استغنيت عن هذا الإضمار<sup>(٢)</sup>.

**(وَوُجِّتَ)**

(١) النساء: ٥٠.

(٢) التفسير الكبير ج ٣/ ص: ١٨٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الوفاء: ضد الغدر، يقال: وفى بعهده وفاءً. وأوفى بعهده إيفاءً بمعناه فإذا نقلت الفعل إلى المضعف قللت وفاءه صار بمعنى أعطاه ومثله أوفاه حقه أعطاه ومعنى وفاه: أعطاه وأفيا أي تاماً<sup>(١)</sup>.

### (كَسَبَتْ)

الكسب: طلب الرزق وأصل الكسب الجمع تقول: كسبت ما لا أي جمعه<sup>(٢)</sup>.

### (وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ)

"الظلم في الأعمال: النقص منها والظلم في الجزاء: الزيادة في عقاب المسيء أو النقص في عطاء المحسن فلما جاء النص يحتق المصمول (البيظلمون) دل على جميع هذه الصور.

والواو واو الحال أي أن كل نفس لها الوفاء التلم على ما كسبت من خير وأما ما كسبت من سوء قلن تظلم في أخذ عقابيهن، ولولا هذه الحال: "وهم لا يظلمون" لتوهم من يتوهم أن الوفاء في العقاب قد يصل إلى نوع من الظلم وبذلك تنتهي من تحليل نصوص هذا الفصل عن الدين والاختلاف فيه وكيف هو أهل الكتاب في مخالفة كتبهم وعدم التحاكم إلى نصوصها وكأن هذا السرد يقول لنا: إيلكم أن تكونوا مثلهم إيلكم ثم إيلكم.

(١) مختار الصحاح ص: ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص: ٢٣٦.



## الفصل السادس

في مالكية الله للكوؤ



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### الفصل السادس

#### في مالكية الله للكون

( قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾ آل عمران: ٢٦ - ٢٧

بعد أن ذكر الله دلائل الوحدانية ودلائل النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين وأنبأ عن أخبار أهل الكتاب وما يعملون من تحريف لكلمات الله وقتل للأنبياء والمصلحين ووقوفهم في وجه الدعوة إلى الله أعلن هذا البيان الإلهي على لسان رسوله ﷺ فليس الملك ملك لليهود ولا للنصارى ولا للعجم ولا للعرب إنما الملك لله يؤتية من يشاء.

( قُلِ )

الخطاب موجه إلى حضرة النبي ﷺ فهو المأمور أصالة بإعلان هذا البيان للناس كل الناس وهو أيضاً موجه إلى كل من يحمل دعوة الله نيابة عن محمد ﷺ ولعل إضمار المقول له إنما كان لهذه الدلالة.

(اللَّهُمَّ)

أي يا الله والميم المشددة عوض من يا التي هي للنداء هذا هو الراجح من مذاهب النحاة في أصل هذه الكلمة — اللهم — (١).

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٨٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وهذه الصيغة هي الأكثر وروداً في أدعية النبي ﷺ وهي الأكثر استعمالاً في كلام العرب في جاهليتها حيث كانوا يقولون باسمك اللهم؛ وألهم عمل لنا كذا وكذا.

وكلمة الرب هي الأكثر وروداً في أدعية الأنبياء السابقين وأتباعهم كما يرويه لنا القرآن الكريم فكان توفيق الله لهذه الأمة أن تعلقت بالاسم العلم الذي يدل على جميع الأسماء والصفات في جاهليتها وإسلامها وكان التوجه إلى الله ﷻ بالاسم العلم فيه خصوصية لا توجد في غيره من الأسماء وكان قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (١) فيه إشارة إلى هذه الخصوصية.

### (مَلِكُ الْمَلِكِ)

الألف واللام في قوله "الملك" للجنس وأضيف إليه "مالك" وهو لفظ مفرد والمفرد المضاف فيه دلالة على العموم فيكون المعنى: يا الله يا من أنت المالك لكل مملوك، قال في الكشاف: "مالك الملك" أي تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف المَلِكِ فيما يملكون" (٢) وهذا الاسم "مالك الملك" يمثل القاعدة الثانية من قواعد العقيدة الدينية في كل الديانات كما حكاها القرآن الكريم.

فالأولى: خالقية الله للكون كله وقد كان العرب يؤمنون بها قبل الإسلام قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٣) وهذه القاعدة هي

(١) الاسراء: ١١٠.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٠.

(٣) لقمان: ٢٥.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

التي أجهد الفلاسفة والمتكلمون أنفسهم في البرهنة على إثباتها مع أن الوقوف معها وعندها لا يغني شيئاً فالإكتفاء بالإيمان بأن الله هو الخالق لا يخرج من كفر إلى إيمان ولا ينجي من نار ولا يدخل جنة.

والثانية: مالكيّة الله للكون كله، وهذه تنتج عن الأولى فمن ضرورة العقل أن الصانع هو الذي يملك ما صنع وهي تحرر المملوك من الخضوع والانقياد لغير المالك فكيف يرضى المملوك أن ينقاد لمملوك مثله وأنى يتأتى للمملوك أن يقود المملوكين لغيره بل لمالكة هو أيضاً.

والثالثة: الطواعية للمالك والخالق وهي المعبر عنها بالألوهية أو الحاكمية وإلا فما فائدة الإيمان بالخالقية والمالكية لله مع عدم الإسلام لهذا الخالق والمالك؟!!

### ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ ﴾

كأن هذا الخطاب الإلهي يريد أن يعلمنا على لسان رسوله ﷺ كيف نخاطب ربنا ﷻ قل: يا الله "اللهم" يا "مالك الملك" فالآية ليست إخباراً مثل: إن الله مالك الملك ولكنها إنشاء قل: يا الله ومن عادة العرب أن تذكر بعد النداء الغرض الذي جاء النداء من أجله ولم يأت في الآية بيان الغرض صريحاً وهو أدب عال أدبنا الله به في كيفية الطلب منه ﷻ.

### ﴿ تَتَوَقَّى الْمَلِكُ مِنْ تَشَأْءِ ﴾

أي تعطي فهي من الإيتاء لا من الإتيان.

### ﴿ الْمَلِكِ ﴾

أي كل ما يصدق عليه أنه مُلك فالنبوة ملك والعلم ملك والعقل ملك وكذا الصحة في النفس والجسد والجاه والقدرة والمال قال الرازي عليه الرحمة: "وذلك

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لأن اللفظ عام فالتخصص من غير دليل لا يجوز<sup>(١)</sup> فالكل عطاء الله.

### ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾

أي بسبب ظاهر أو باطن ومن: اسم موصول دال على العموم أيضاً فلا يتخصص بجهة دون أخرى فهو عَلَىٰ ينعم بما شاء على من شاء وفي ذلك رد على أهل الكتاب الذين يدعون أن ملك النبوة مقصور عليهم أي على بني إسرائيل فلا يأخذه أحد غيرهم.

### ﴿وَتَزِعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾

النزع معناه الأخذ بقوة قال في مختار الصحاح: نَزَعَ الشيء من مكانه قَلَعَهُ<sup>(٢)</sup> وهذا أيضاً تعريض بأهل الكتاب من حيث مشموليتهم بالنص لا أن النص قاصر عليهم.

### ﴿وَمُرُّ مَن تَشَاءُ﴾

العز: الغلبة والجاه وعلو الكلمة ونفوذ الأمر.

### ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾

أي وإن كان قبل ذلك غير عزيز: فالعزة لله يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء.

### ﴿وَيُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾

الذل: الخضوع فهو ضد العز أي أن الله يجعل الذلة والهوان على من يشاء.

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٨٩.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٧٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

(سِدِّكَ الْخَيْرُ)

قدم الخير لإفادة الحصر أي بيدك لا بيد غيرك.

(الْخَيْرُ)

أي جنس الخير كله من خير الدنيا أو من خير الآخرة وسواء كان بتقديم أو غير ذلك وسواء كان عطاءً أو منعاً.

(إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

تأكيد بأن وتوسل بالتقرب الذي يدل عليه كاف الخطاب وحصر بتقديم المعمول — على كل شيء — على قدير.

(كُلُّ شَيْءٍ)

(كُلُّ)

لفظ مفرد موضوع لتأكيد الجموع<sup>(١)</sup> وهو مضاف وشيء مضاف إليه وقد ذكرنا أن المفرد المضاف يعم، فيكون معنى الآية: إنك على كل ما يصدق عليه كل من أي شيء صغير أو كبير أو باطن قدير وذلك لأن "شيء" نكرة بل هي أنكر النكرات فتصدق على ما قل وكثر.

والجملتان الأخيرتان ترمزان إلى مطلوب النداء أي أعطني الخير فإنك القادر وإذا أنعمت النظر في هذه الآية سجد قلبك لله أنظر كيف تصدرت بقل لتكون تعليماً وكيف استهل النداء بقوله: اللهم مالك الملك بالأسم الجامع أولاً ثم أردف اسماً خاصاً يناسب كل مطلوب من العبد ثم انظر كيف ساق جميع الأفعال بصيغة المضارع الدال على تجدد الحدث والحركة والحيوية فيه ثم كيف ختم بالجملة

(١) مختار الصحاح ص: ٢٤٢، وانظر لسان العرب ج: ١٢/ ص: ١٤٢ ففيه ما ينفعك.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الإسمية حين أخبر عن نفسه وأسمائه وصفاته ليبدل على الثبات وعدم التحول لأن التحول ليس من شأن أسمائه.

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُهُ مِنْ نَشَاءٍ بِمِثَرٍ حِسَابٍ ﴾

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُهُ مِنْ نَشَاءٍ بِمِثَرٍ حِسَابٍ ﴾

الولوج كما يبدو لي هو: الدخول إلى ما يستر الواجه ويغطيه ومنه ولوج الحية في جحرها وكذا الجماع حيث يسمى بالإيلاج أو هو الدخول بمشقة وعسر ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْلِ﴾<sup>(١)</sup>، والى الأول ذهب الماوردي فيما حكاه عنه أبو حيان قال: "وذكر الماوردي: إن المعنى في الولوج هنا تغطية الليل بالنهار إذا أقبل، وتغطية النهار بالليل إذا أقبل فصيرورة كل واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه". قال أبو حيان: "وأورد هذا القول احتمالاً ابن عطية"<sup>(٢)</sup> وقال الرازي: "فيه وجهان: الأول: أن يجعل الليل قصيراً ويجعل ذلك القدر الزائد داخلاً في النهار وتارة على العكس من ذلك والثاني: أن يأتي بالليل عقيب النهار فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه فكأن المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر" قال رحمه الله: "والأول أقرب إلى اللفظ لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلاً في الليل"<sup>(٣)</sup>

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٨٨، وانظر لسان العرب ج: ١٥/ص: ٣٩١-٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٩٠-١٩١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وقد نتساءل: كيف انقلب الظرف مطروفاً والمظروف ظرفاً؟! أو نقول: كيف اتسع الضيق وضاق المتسع؟! ونترك الإجابة عن مثل هذه الأسئلة فإن لها مدخلاً في العلوم الطبيعية وأرباب تلك العلوم أقدر منا على فهم هذه الحقائق وكفينا التنبيه إليها.

### (الليل)

الليل واحدٌ بمعنى جمع وواحد ليلة مثل تمر وتمر وقد جمع على ليال ويقال ليلٌ أليلٌ شديد الظلمة<sup>(١)</sup>.

### (النهار)

النهار ضد الليل ولا يُجمع كما لا يُجمع العذاب والسراب<sup>(٢)</sup>.  
الليل والنهار ما هما؟ ليس الليل والنهار من الموجودات المادية فيكون لهما وجود حقيقي في الخارج إنهما عرضان من أعراض الزمن إنهما غير قارئين أصلاً ليس الليل إلا الزمن الموقت من غروب الشمس إلى طلوعها وليس النهار إلا الزمن الموقت من طلوع الشمس إلى غروبها وتفسير الولوج بين الليل والنهار بما يدخل في النهار مما كان ليلاً وبما يدخل في الليل مما كان نهاراً إنما يصح لو كان لكل من الليل والنهار كمٌّ معين من الزمن أما وكل منهما يطول ويقصر فلا يصدق الولوج والتوالج بينهما لأن كلاً منهما يسمى باسمه طال أو قصر فلا يصدق الولوج والتوالج بينهما لأن كلاً منهما يسمى باسمه طال أو قصر وأما ذلك ودليله أن صلاة المغرب لا تكون ثابتة في ساعة معينة بل هي موقنة بالغروب والذي يعن

(١) مختار الصحاح ص: ٢٥٥.

(٢) المرجع السابق ص: ٢٨٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لبالي أن التوالج مستمر بين الليل والنهار ليلاً ونهاراً إذ كل ذرة يكسوها النور ففي داخلها الظلام والعكس أيضاً صحيح فكل ذرة يكسوها الظلام ففي داخلها النور وأحسب أن الصلة بين النور والظلام كالصلة بين ذرات الملح وذرات الماء كل منهما يحيط بالآخر ويحاط به وهو معنى التوالج المستمر المتجدد في كل لحظة والله أعلم.

### ﴿الْبَلِّ وَتُخْرِجُ الْآمِيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْآمِيِّ﴾

أي أنت الذي تجعل الحي يخرج من الميت وتجعل الميت يخرج من الحي وذلك لأن الفعل تُخرج بضم التاء من المزيد أعنى من أخرج لا من خرج فالحي لا يخرج من الميت بل الله الذي يخرج والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على التجدد في وقوع الحدث والإخراج معناه الحقيقي هو إخراج الشيء من الظرف<sup>(١)</sup> فلا يصدق الإخراج إلا بإخراج شيء من شيء كان ظرفاً له والإخراج بمعناه الحقيقي مشاهد بالعيان لا يحتاج إلى دليل فجميع عمليات التقفيس في البيوض هي إخراج حي من ميت إذ الحيوان الذي في داخل البيضة حي والإحضان للبيوض هو مساعدة هذا الحي على النمو لا على إحيائه من موت وكذلك عمليات إخراج الفضلات من الأحياء هي إخراج ميت من حي ولذلك كان النبي ﷺ يعدها نعمة من نعم الله فيحمد عليها بقوله: الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني<sup>(٢)</sup> ولو عدنا إلى ما مثل به سلفنا الصالح لوجدناه صحيحاً إذا أضفتنا معارفنا إلى معارفهم فقد مثلوا إخراج البيضة من النجاسة والنجاسة من البيضة وهو مثل صالح للآية

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٨٩.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه. زاد المعاد ص: ٣٤١. وصححه بن حجر في نتائج الأفكار كما في التعلق عليه.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فالبیضة فیها حی ومیت فی نفس الوقت والفرخ عندما یرج من البیضة فیها حی والمیت أيضاً بل معه میت خارج كذلك وأحسب أن الذی أربک بعض المفسرین فی تفسیر هذه الآیة هو خروجهم عن المنلول اللفظی لكلمة الإخراج فقد فسروها بمعنی التکوین<sup>(١)</sup> والخلق وتركوا المعنی القریب للكلمة والله أعلم.

بقي أن ننكر بسر التقابل في هذه الآية أنت ترى أن في مسألة الليل والنهار قال: تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وفي الحي والميت لم يعبر بالإيلاج بل بالإخراج والسر في ذلك والله أعلم أن الإخراج في الحي والميت هو الحدث المشاهد وفيه تقع النعمة على المملوك من ماله وهذا هو الذي ينسجم مع سياق الآية "قل اللهم مالك الملك" أما إيلاج الحي في الميت وإيلاج الميت في الحي فلا يقع تلك الموقع وأما في الليل والنهار فالإيلاج هو الحدث الظاهر لأنك وأنت تليس نور النهار يلج عليك الليل وكأن الظلام يتغلغل بين أجزاء الكون تغلغل الماء بين نرات الرمل الناعمة وبعد أن يسكن الإنسان في الليل وإليه يأتيه النهار بنوره ليكتسح عن النرات ما توالج فيها ومعها من الظلام وهذه الصورة اللوجية قد تتلمسها كذلك في الحياة الزوجية في قوله تعالى: "هن لباس لكم وانتم لباس لهن" فقد تحول اللباس ملبوساً والملبوس لابساً كما تحول الظرف مظروفاً والمظروف ظرفاً فالتسع الضيق وضائق التسع.

وقد نسأل أيضاً لماذا قدم الليل على النهار في الولوج وقدم الحي على الميت في الإخراج؟ مع أن الظلام يقابل الموت والنور يقابل الحياة قلنا: عندما قال لنا "تولج الليل في النهار" فلم يقدم الليل بل قدم النهار لأن المسألة في إيلاج الليل متوقفة على وجود النهار حقيقة إذن فالنهار هو الموجود ثم يطرأ الليل فيلج فيه

(١) البحر المحيط ج ٣/ص ٨٩٤. التفسير الكبير ج ٣/ص ١٩١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأما في الحي فأخراج الحي هو المترقب المنتظر لدى جميع الناس ولهذا قدم ولينسجم مع النهار.

### (وَتَرْزُقُكَ مِنْ تَشَاءُ)

الرزق: هو ما ينتفع به والرزق أيضاً: العطاء<sup>(١)</sup> والله بيده الملك وتحت تسخيرهِ جميع الأسباب المنظورة وغير المنظورة المعلوم للإنسان منها وغير المعلوم

### (بِغَيْرِ حِسَابٍ)

يحتمل قوله "بغير" وجهين:

الأول: أن تكون غير بمعنى لا النافية أي بلا حساب أي لا يعدُّه عليه فيكون كناية عن الكثرة، أو بلا حساب بمعنى بلا محاسبة على الله لأنه أعطى من ملكه عز وجل.

والثاني: أن تكون "بغير" متعلقة بمحذوف ومحلها الصفة للمصدر المحذوف والتقدير: وترزق من تشاء رزقاً موصوفاً بغير حساب أي على سبيل التفضل من غير استحقاق لأن من كان عطاؤه على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب<sup>(٢)</sup> وبعد أن أعطينا ما في وسعنا في تحليل الآيتين الكريمتين نلاحظ ما يأتي: أولاً: أن الجمل الأولى وهي: تَوْتِي الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءٍ وَتَنْزَعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مِنْ تَشَاءٍ وَتَنْزِلُ مِنْ تَشَاءٍ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ: وَتَرْزُقُكَ مِنْ تَشَاءٍ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْخَمْسَةُ قِيدَتْ بِالْمَشْبِئَةِ.

(١) مختار الصحاح: ص: ١٠٦.

(٢) أنظر مختار الصحاح: ص: ٢٠٦. والتفسير الكبير: ج ٣ / ص ١٩١



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ثانياً: أن الجمل الأخرى وهي: تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل. وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وكذلك الجمل المتعلقة بالله ﷻ: قل اللهم مالك الملك بيدك الخير إنك على كل شيء قدير هذه الجمل السبع لم تقيد بالمشيئة.

فما هو السر في ذلك؟.

إنك ترى معي أن الجمل التي لم تقيد بالمشيئة تتحدث عن أشياء لا دخل لعمل الإنسان فيها فالملك لله وهو بيده ﷻ وقدرته على كل شيء وتوالج الليل والنهار وإخراج الأحياء من الأموات والأموات من الأحياء. كل هذه الجمل حكاية عن خلق الله وسنته الجارية في الكون كله ومنها صفاته ﷻ فلا يصح أن يقيد شيء منها بالمشيئة.

ولكننا في الجمل الأخرى نرى أن لفعل العبد مدخلاً فالعبد يحاول الحصول بما يقدر عليه من أسباب مادية أو معنوية على هذه الأشياء فمن من الناس لا يبذل جهده في الحصول على الملك والعز والرزق؟ ومن من الناس من لا يبذل جهده في الحفاظ على ما يملكه من ملك أن ينتزع منه وكذا العز الذي يحصل عليه فهل يفرط أحد من الناس في الحفاظ على ماله من ملك وعز؟ إن الآيتين حلت الإشكالية في فهم المشيئة الإلهية وعلاقتها بمشيئة الإنسان ونجمل ذلك فيما يأتي:

أولاً: أن جميع السنن الكونية إنما كانت بمشيئة الله ولا دخل لمشيئة المخلوق فيها.

ثانياً: إن جميع الأعمال المقدورة للإنسان يتصرف فيها بحرية الاختيار الممنوحة له من الله ﷻ وعلى أساس هذه الحرية قام عنوان التكليف فلا تعقل

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

العرب في لسانها أن توجه أمراً بفعل لمن يعجز عن القيام به ولا تعرف في لسانها أن توجه نهياً عن فعل إلا لمن يقدر على الانتهاء فلا يقال للعاجز عن القيام: قم، أو لا تقم.

**ثالثاً:** إذا قلنا أن الله سبحانه أعطى للمخلوق حرية الفعل وعدمه فيما هو تحت قدرته فلا يعني ذلك أن مشيئة المخلوق قد صادرت مشيئة خالقه، فإذا كانت مشيئة العبد ممنوحة له بمشيئة الله فالذي شاء أن يعطيه له المشيئة في عدم استمرار العطاء أو إيقافه.

وبذلك نعلم أن لمشيئة الله مصادرة مشيئة العبد كلاً أو جزءاً وهذا يكاد يكون بديهياً لا يحتاج إلى عمق في الفكر ولا إلى إجهاد للذهن لولا شغب المتكلمين على الحقائق الدينية.

بقي لنا ان نسأل لماذا قيدت جملة "وترزق من تشاء" بقوله "بغير حساب" دون أخواتها؟ أحسب أن هذا الإطلاق بغير حساب إنما جاء لأن جميع الجمل المقيدة بالمشيئة تحكي باباً من أبواب الرزق فالملك والعز والمال عطاء من عطاء الله فيسري عليها حكم "بغير حساب" ضرورة أن الحكم على العام يقتضي الحكم على الخاص بدون العكس أي لو جاءت "بغير حساب" بعد "تؤتي الملك من تشاء" أو بعد "وتعز من تشاء" لما كان من دلالتها هذا التعميم والله أعلم.

الفصل السابع

في موالاتة الكافرين وأثرها

على الإيمان



## الفصل السابع

### في موالة الكافرين وأثرها على الإيمان

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ بُدُّهُ يَسْلَمْهُ اللَّهُ وَعَلِمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

يتحدث القرآن الكريم في مسألة من أهم المسائل في هذا الفصل إنه يواجه ضعاف النفوس والنفعيين يبين لهم حكم الله في موالة المؤمنين للكافرين ويبين لهم عاقبة عملهم عند الله ويحذرهم الله نفسه ويذكرهم أن المصير إليه فإن زعموا أن يتكتموا في موالاتهم للكافرين فلن يخفى على الله شيء إنه يعلم ما يكون وما يعلنون إنه يعلم ما في السموات من خلق ومن سنن وما في الأرض من أحياء ونبات وجماد إنه يعلم السر وأخفى "أفلا يعلم من خلق"!!؟.

ويذكرهم القرآن أيضاً أن أعمالهم مردودة إليهم إنهم سوف يجدونها محضرة للحساب يودون أن تكون المسافة الزمانية بينهم وبين أعمالهم بعيدة وبعيدة جداً ويكرر لهم التحذير تلو التحذير ويؤكد لهم أن أمره لهم بقطع العلاقة بينهم وبين الكافرين ناتج عن رأفته بهم إنهم عباده ولن يترك السيد عبده.

﴿٧﴾

حرف جزم ونهي ومن المعلوم أن النهي عن عمل لا يصح أن يوجه إلا إلى القادر على ذلك العمل: فيقال للجالس القادر: لا تقم لأنك لا تتهاه إلا وأنت

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تخشى أو تتوهم أن يقوم ولو قلت للعاجز عن القيام: لا تقم لعيب عليك ذلك.

### (يَتَّخِذُ)

فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وإنما حرك بالكسر لتفادي التقاء ساكنين الذال من يتخذ واللام من (المؤمنون) لأن همزة ال تسقط في الدرَج إذ هي همزة وصل<sup>(١)</sup>، وأصل يتخذ: يأخذ والاتخاذ: افتعال من الأخذ إلا أنه أُدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء<sup>(٢)</sup> ولما كان الاتخاذ من باب الافتعال صح إسناده إلى ما يصح اتخاذه كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>، وإلى ما لا يصح اتخاذه كقوله تعالى: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾<sup>(٤)</sup>.

### (الْمُؤْمِنُونَ)

الإيمان: التصديق والله تعالى "المؤمن" لأنه آمن عباده من أن يظلمهم وأصل آمن: أَمِنَ بهمزيّتين واحدة من بناء الفعل والأخرى للتعدية لُيِّنَت الهمزة الثانية فصار: آمن ومنه المهيمن وأصله: مؤامن لينت الثانية وقلبت ياء كراهة اجتماعهما وقلبت الأولى هاء كما في أراق الماء وهراقه<sup>(٥)</sup>.

### (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ)

"الكافرين" من قواعد الأصوليين: أن الحكم إذا علق بالمشترق أذن بعليّة

(١) التفسير الكبير ج ٣/ص: ١٩٢.

(٢) مختار الصحاح ص: ١٢.

(٣) النساء: ١٢٥.

(٤) التوبة: ٣١.

(٥) مختار الصحاح ص: ١٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الاستئناق وبناء على هذا يكون النهي عن موالاة الكافرين موجهاً بقيد الكفر أي يتخذ الكافر ولياً لأنه كافر فلا يشمل ولاية التجارة والزراعة ولا ولاية النسب فموالاة الأب الكافر بالاحسان إليه لا يدخل في هذا النهي وكذا ولاية الأعمال.

### ﴿أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قال الرازي رحمه الله: "وأعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة

وجوه:

"أحدها: أن كون المؤمن راضياً بكفره ويتولاه لأجله وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوباً له في ذلك الدين وتصويب الكفر كفر والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة".

ثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه.

وثالثها: وهو كالمتوسط بين القسمين وهو أن تكون مولاته للكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة والمظاهرة والنصرة إما بسبب القرابة أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقتهم والرضا بدينهم وذلك يخرجهم عن الإسلام فلا جرم هدد الله فيه فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (١)

وقد يقال: موالاة المؤمن الكافر مرة أو مرتين لا يكون مشمولاً بالنهي لأن مطلق الموالاة شيء واتخاذ الكافر ولياً شيء آخر والنهي إنما توجه على اتخاذه ولياً لا إلى مطلق مولاته.

(١) آل عمران: ٢٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وقد يقال أيضاً: إن النهي في الآية موجه إلى اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فلا يكون متناولاً من يوالى المؤمنين والكافرين جميعاً.

أجاب الرازي عن هذين الاحتمالين قائلاً:

"هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز موالاتهم دلت على سقوط هذين الاحتمالين<sup>(١)</sup>.

وقد يقال أيضاً: إن إسناد الفعل إلى المجموع يقصره على المجموع فلا يتناول النهي الواحد ولا الاثنين لأنك لو قلت: لا ينصرف الطلاب فانصرف واحد أو اثنان فلا يكون في ذلك مخالفة للنهي.

وقد يجاب بأن الألف واللام في "المؤمنون" للجنس ولكن هذا لا يجدي شيئاً لأن مفهوم الجنس مفهوم كلي فيعود المحذور.

وقد يقال أيضاً أن " من " الواردة في الآية تدل على أن المنهي عنه أن يكون الكافرون أقرب إلى أنفس المؤمنين الذين اتخذوهم أولياء من المؤمنين ويجاب عن هذا بأن "من" وما بعدها ليس قيداً احترازياً بل قيداً كاشفاً لأن الذين يتخذون الكافرين أولياء هذه حالهم في اقتصارهم على موالاة الكافرين وعلى شعورهم بأن الكافرين أقرب إليهم من المؤمنين والله أعلم.

**(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ)**

إنما جاء "يفعل" وليس "يعمل" لأن الموالاة ليست عملاً بل فعلاً من أفعال القلوب والفعل أعم من العمل أي أن كل عمل فعل وليس كل فعل عملاً.

**(فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)**

(١)التفسير الكبير ج٣/ص:١٩٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أي "فليس هو" أي الفاعل "من الله في شيء".  
و"من" في قوله "من الله" يتعلق بمحذوف وهو حال والعامل فيه ما يتعلق به "في" وتقديره: فليس في شيء من الله فمن الله في موضع الصفة لشيء فلما تقدمه انتصب على الحال كما في: (لمية موحشا ظل).

وفي الآية مضاف محذوف بين من ولفظ الجلالة تقديره: فليس من ولاية الله في شيء وقيل: من دين الله وقيل: من عبادة الله وقيل من حزب الله<sup>(١)</sup>، وهذا من اختلاف التنوع لا من اختلاف التضاد.

### ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ تَقَمَةً﴾

كان مساق الخطاب في الآية للغبية فعدل عن الغيبة إلى المواجهة فقال: إلا أن تتقوا ولو أجرى الكلام على نسق واحد لقال: إلا أن يتقوا منهم وسر هذا العدول أن الله ﷻ كرم المؤمنين عن المواجهة بالنهي عن موالاته أعدائهم لأن ذلك يخدش من كرامتهم فلما أراد أن يبين المأذون فيه حوّل الخطاب إلى المواجهة وأصل تقاة: وقية فأبدلت الواو تاء وانقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها<sup>(٢)</sup>.

ومن المعلوم أن الإنسان لا يتقي إلا ممن يخاف شره ولم يبين القرآن الكريم أي حدّ من خوف وقوع الشر على الإنسان يبيح له موالاته الكافرين اتقاء شرهم وقد تباينت أقوال المفسرين والفقهاء في ذلك تبايناً كبيراً<sup>(٣)</sup>.

وأحسب أن لاختلاف الناس في التحمل وفي دفع الشر عنهم سبب في إطلاق الحكم وعدم تقييده فقد يخاف الواحد ما يراه غيره يسيراً وقد يبلغ الإيمان

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٩٢، مجمع البيان ج: ٢/ ص: ٢٧٣.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٩٤.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ١٩٣، البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٩٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

في نفس شخص مبلغاً يحبب إليه الثبات على الدين ولو مات في سبيله. والتقية في الفقه الإسلامي محكومة بالقواعد العامة مثل: لا ضرر ولا ضرار ومثل عدم جواز الضرر الأخف بارتكاب ضرر أعظم ولا أن يدفع عن نفسه بما يضر غيره ولا بما يعلم أنه يضر بالدين ولا بما يظن ظناً راجحاً ولا شك أن للجانب الشخصي في هذا الباب وأمثاله أثر بالغ سواء لشخصية المجتهد أو شخصية المفتي أو شخصية الفاعل، ولظهور الجانب الشخصي في جميع مستوياته جاء هذا التحذير:

**(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)**

الْحَذَرُ وَالْحَذَرُ: التحرز يقال: فلان حذَرَ فلاناً بفتح الهمزة وكسر الذال وضمها أي متيقظ متحرز والجمع: حذرون وقرئ به في قوله تعالى "وَأَنَا لَجَمِيعَ حَازِرُونَ" والتحذير: التخويف لأنه من المضعف حذَرَ يحذِرُ تحذيراً<sup>(١)</sup> فيكون المعنى: ويخوفكم الله نفسه أي عقابه إذا واليتم الكافرين بدون سبب يبيح لكم ذلك وكذا إذا اجتهدتم أو أفقيتم.

**(نَفْسَهُ)**

الضمير في نفسه فيه احتمالان:

أن يعود إلى لفظ الجلالة وهو الأصح لأن القاعدة أن الضمير يعود إلى الأقرب ما لم يكن مانع يمنع من ذلك، وأن يعود إلى المصدر المفهوم من يتخذ فيكون المعنى: ويحذركم الله اتخاذ الأولياء من الكفار أي ينهاكم عن نفس هذا الفعل<sup>(٢)</sup>.

**(وَأَلَىٰ آقَابِ الْمَعْرِثِ)**

(١) مختار الصحاح ص: ٦١.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ١٩٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هذه الجملة الخبرية واقعة موقع الحال من التي قبلها ويحذركم الله نفسه حال كون المصير إليه وتقديم الظرف لإفادة الاختصاص فالمصير إليه لا إلى غيره.

﴿قُلْ إِنْ تَحْفَؤْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوْا يَمَلِكُهُ اللهُ وَعَلَّمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَاللهُ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ وَهَيِّئُ﴾

الخطاب في الآية السابقة يشبه البيانات الرئاسية فهو صادر من الله مباشرة وكأنه بدون وسيط لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء... والآية التي تلتها والتي تتلوها أيضاً تشبه الهوامش الإيضاحية والمسببة التي تأتي مع النصوص القانونية أحياناً وبعدها أحياناً أخرى للتوضيح أو للتسبيب الخطاب كله من الله وإنما فصل بقوله: قل للدلالة على هذا المعنى وهو أن ما بعد قل تكميل وإيضاح وتسبيب لما قبل قل.

والخطاب في هذه الكلمة "قل" موجه إلى حضرة النبي ﷺ فهو الذي أمر أن يقول للناس. ويصح أن يحمل الخطاب إلى كل من يصح منه التبليغ ممن يقرؤون هذه الآية الكريمة وذلك أن المخاطب إذا لم يتعين نصاً في الخطابات الإلهية جاز حمل الخطاب على كل من يصح حمله عليه<sup>(١)</sup>.

﴿إِنْ تَحْفَؤْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوْا يَمَلِكُهُ اللهُ﴾

يقال: خفاه: كتمه وأظهره فهو من الأضداد هذا إذا كان الفعل ثلاثياً فإن كان من المزيد فتقول: أخفاه: أي ستره وكتمه<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر فتح القدير ج: ١/ ص: ٤٢٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ٨٣.

## التفسير التحليلي للشرط الأول من سورة آل عمران

**(مَا فِي صُدُورِكُمْ)**

أي ما في قلوبكم لأن الصدر محل القلب فأطلق المحل وأراد الحال فيه.

**(أَوْ بُدُونِهِ)**

أي تظهروه فسواء في علم الله سرنا وإعلاننا فهو يعلم هذا كما يعلم هذا.

**(سَلَّمَ اللَّهُ)**

يعلم فعل مضارع مجزوم لأنه واقع جواباً للشرط إن تخفوا - يعلمه.  
قال الرازي: "ولا شك أن الجزاء مترتب على الشرط متأخر عنه فهذا يقتضي حدوث علم الله تعالى"

ثم قال: "والجواب: أن تعلق علم الله بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن"<sup>(١)</sup> وهذا يعني أن علم الله بما سيقع غير علمه بما يقع فعلاً والذي قاله الرازي فيه إجابة عن كثير من الأسئلة الواردة حول مثل هذه الآيات في القرآن الكريم من أمثال ورود هذه الكلمات - حتى يعلم . ولنعلم و.... الخ.

**(وَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)**

هذا كلام مستأنف فهو إعلام لهذا الإنسان أن علم الله محيط بكل كائن سواء في داخل النفس أو في السموات وما فيها من كواكب وأسرار أو في الأرض وما في بطنها من معادن ومياه ما من ذرة في السموات أو في الأرض إلا هو يعلمها تبارك الله رب العالمين.

كيف يخفى المخلوق على خالقه؟ أم كيف يقوم الحادث لو غفل عنه

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص ١٩٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

محدثه؟ هل في الوجود من يمد المخلوق بالبقاء إذا انقطع عنه إمداد خالقه؟ إذا كان "الله خالق كل شيء" نفوسنا وما فيها فكيف يمكن أن يخفى عليه شيء منها أو فيها؟ وفائدة الاستئناف في هذه الجملة "ويعلم ما في السموات وما في الأرض" أن الله يقول لعباده: إن تخفوا أو تبدوا فأنا أعلم ما تخفون وما تبدون لأنني أعلم جميع ما يقع في ملكي في السموات أو في الأرض بل أنا الذي أخلقه فكيف لا أعلمه؟ كل هذه التأكيدات يقدمها الله لعباده لئلا ينحرفوا عن طاعته إلى معصيته التي منها مولاة الكافرين من دون المؤمنين، يقول الزمخشري: "ولو علم بعض عبید السلطان أنه أراد الإطلاع على أحواله فوكلَّ همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره وتيقظ في أمره"<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَاللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذه الجملة القرآنية كالدليل على ما سبق لأن من يكون قديراً على كل شيء لابد أن يكون عالماً بكل شيء وذلك لأن من جهل شيئاً فقد القدرة على التصرف فيه وفي هذه الجملة أيضاً إعادة للتحذير السابق — ويحذركم الله نفسه — لأن من يحذر الجميع لابد أن يكون قادراً على الجميع.

وفيها أيضاً التسميع بعموم القدرة على الجزاء لأن المقصود بقوله "يعلمه" الله "أي فيجازيكم به"<sup>(٢)</sup> فيكون تقدير الآية: قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يجازيكم به الله والله على كل شيء قدير فليس المقصود بالإخبار بالعلم مجرد العلم بل المقصود هو إخبارهم أن الله سيجازيهم على ذلك.

(١) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٢٣.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٩٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾

قال الرازي: "ذكروا في العامل في قوله "يوم" وجوهاً:

الأول: قال ابن الأنباري: اليوم متعلق بالمصير والتقدير: والى الله المصير

يوم تجد.

الثاني: العامل فيه قوله: "ويحذركم الله نفسه" في الآية السابقة كأنه

يقول: ويحذركم الله نفسه في ذلك اليوم.

الثالث: العامل فيه قوله: "والله على كل شيء قدير" أي قدير في ذلك اليوم

الذي تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وخص هذا اليوم بالذكر وإن كان

غيره من الأيام بمنزلة في قدرة الله تعالى تفضيلاً له لعظم شأنه كقوله: "مالك يوم

الدين" في سورة الفاتحة.

الرابع: أن العامل فيه قوله تعالى: تود والمعنى: تود كل نفس كذا وكذا في

ذلك اليوم.

الخامس: يجوز أن يكون منتصباً بمضمر والتقدير: واذكر يوم تجد كل

نفس<sup>(١)</sup> والذي يضعف الأول والثاني وجود الفاصل الذي هو: "قل" فإن ما بعدها

مفصول عما قبلها ويضعف الثالث الفارق بين تخصيص القدرة بيوم الدين وبين

ملكية يوم الدين فإن ملكية يوم الدين جاءت بعد أسماء أخرى: "رب العالمين"

"الرحمن الرحيم" وهي تدل على عموم الملكية أما ما عندنا في الآية فهي متعلقة

بالخبر "قدير" في الآية السابقة وقد عُلّق به "على كل شيء" فإذا قلنا الله قدير على

كل شيء يوم تجد أوهم تخصيص عموم القدرة بذلك اليوم ويضعف الخامس أن

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٩٥-١٩٦. البحر المحيط ج: ٣/ص: ٩٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الأصل الذي جرى عليه النحاة أن العامل إذا أمكن أن يكون مذكوراً لا يلجأ إلى التقدير فإن التقدير لضرورة عدم وجود العامل ومن أجل هذا أحسب أن الوجه الرابع هو الراجح من بين هذه الوجوه وهو الذي جرى عليه صاحب الكشاف<sup>(١)</sup>. وإنما أسرفنا في ذكر هذه الوجوه ومناقشتها لما لها من أثر على التحليل لمعنى الآية.

### ﴿تَعْمَلُونَ كُلُّ شَيْءٍ مَّا عَمِلْتُمْ﴾

قال الرازي: "العمل لا يبقى ولا يمكن وجدانه يوم القيامة فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين:

الأول: أنه يجد صحائف الأعمال وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿فَيُنزِّلُهُم بِمَاعْمَلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

الثاني: أنه يجد جزاء الأعمال<sup>(٤)</sup> والآية تحتل وجهاً آخر وهو:

الثالث: أنه يجد صور الأعمال وهذا الوجه هو الذي تدل عليه السنة النبوية فقد جاء بأحاديث تفوت الحصر أن الأعمال يوم القيامة تأتي مجسدة في صور، القرآن يشهد للقائمين، ورمضان يشهد للصائمين، حتى في القبر يأتي المحسن عمله في صورة رجل حسن الوجه والمسيء على عكس ذلك ومن المعاصرين من يميل إلى تفسير الاستنساخ بذلك والله أعلم.

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٣.

(٢) الجاثية: ٢٩.

(٣) المجادلة: ٦.

(٤) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٩٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾

هذا العموم فسرته السنة بأن الحيوانات أيضا تجد ما قدمت محضراً إذ يقتص للشاء الجلاء من الشاة القرناء في محكمة العدل الإلهي.

### ﴿مَاعَمِلَتْ﴾

فالوجود للأعمال كلها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

### ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَصِرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾

جاء النص على الإحصار للخير وترك السوء ليفهم من السياق ولم ينص عليه نصاً.

وذلك لأن الخير سوف يحضر كله بدون استثناء وأما السوء فممنه ما يحضر ومنه ما يستر لأنه قد عفا عنه ﷺ.

### ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَصِرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾

سميت الطاعة خيراً إذ لا تجد فيما أمر الله ﷻ وفيما أمر رسوله ﷺ إلا ما فيه الخير بل هو الخير كله للخير للعامل والخير للكون كله. وسميت المعصية سوءاً لأن الله ورسوله لم ينهيا عن شيء إلا عما يسوء العامل ويسوء الكون كله. هات أحكام الشريعة كلها فلن تجد فيها غير هذا وهو ما نفاخر به ونعتز في ديننا وعقيدتنا فإله ربنا والرب لا يأمر مريبه إلا بما فيه خيره ولا ينهاه إلا عما فيه السوء والشر له. وعلى هذا سميت الطاعة بالحسنة والمعصية بالسئية.

(١) الزلزلة: ٧-٨.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ( تَوَدُّ )

أي "والذي عملت سوءاً تود" فـ "تود" خبر "الذي"، هذا وجه والثاني على تقدير: "والذي عملت سوءاً حال كونها تود" ذكر هذين الوجهين الزمخشري<sup>(١)</sup> فجعل تود إنما تعود على عاملة السوء لأن عاملة الخير لا تود ذلك بل هي في فرح لما تلاقي من جزاء أعمالها وأحسب أن كلمة تود تعود على النفس أي كل نفس تود سواء عاملة الخير أو غيرها لأن يوم الحساب لا يعلم الواحد مصيره إلا بعد أن تُقَطَّعَ منهم القلوب فالكل يخاف ذلك اليوم والمحسن إنما يزول عنه الغم والهم بعد أن يأخذ النتيجة ويدخل الجنة .

### ( تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا )

الأمـد: المسافة كقولـه تعالى: "يـاليت بيني وبينك بُعد المشرقين"<sup>(٢)</sup> قاله الزمخشري<sup>(٣)</sup>.

### ( تَوَدُّ لَوْ )

لو كانت الآية بدون لو "تود أن بينها وبينه أمداً بعيداً" لكانت دلالة الآية على وجود الأمد القريب وتتمنى البعيد وكان ما توده في حدود الإمكان فلما جاءت لو دلت على أن هذه المودة إنما جاءت في المستحيل لا في الممكن لأن هذا اليوم سوف يكون هو الزمن المقدر من قبل الخالق ﷻ لا يتقدم ولا يتأخر .

### ( وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ )

(١) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٣ .

(٢) الزخرف : ٣٨ .

(٣) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٣ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أعاد التحنير، الأول كان مباشرة من الله والثاني كان على لسان المبلغ ﷺ  
أو من يصح منه القول.

### (وَاللَّهُ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)

الرفقة : أشد الرحمة <sup>(١)</sup> ومن رفقته يعياده أن حذرهم هذا التحنير وأمهاتهم  
إلى يوم القيامة لعلهم يتوبون وقيل أن لفظ عياد في القرآن الكريم مختص بالطائعين  
قلو صح هذا كان هذا الجزء من الآية متحدثاً عن الطائعين فقط لأن من يطيعون  
الله ورسوله يكون رؤوفاً بهم أما العصاة والكافرون فقد مر حكمهم قال الرازي :  
"والله رؤوف بالعياد " أي كما هو منتقم من الفساق فهو رؤوف بالمطيعين  
والمحسنيين <sup>(٢)</sup>

(١) مختار الصحاح . ص ١٠٠١ ..

(٢) التفسير الكبير ج ٣ / ص ١٩٧ ..

## الفصل الثامن

في الحب بين الخالق  
والمخلوق



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### الفصل الثامن

#### في الحب بين الخالق والمخلوق

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣١)  
﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٣) ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا  
وَأَبْلًا إِسْرَافِيئِيلَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ آل  
عمران: ٣١ - ٣٤

هذا الفصل يتحدث عن محبة الله وعن السبيل الموصل إليها وعن آثار هذه المحبة في الدنيا والآخرة. وافتتاح المدعين لمحبة الله من اليهود والنصارى وغيرهم.

#### (قُلْ)

هذا الخطاب موجه نصاً إلى حضرة النبي ﷺ بقريته - فاتبعوني - لعدم إمكان صرف هذه الكلمة - فاتبعوني - إلى غيره ﷺ.  
و"قل": فعل أمر من قول يقول وأصلها: أقول فاستثقلت الضمة على أمها الواو فنقلت إلى القاف لأن الواو حرف علة وما قبلها صحيح ساكن فصارت أقول فاجتمع ساكنان الواو واللام فحذفت الواو للاستغناء عنها بضممة القاف وحذفت الهمة للاستغناء عنها بحركة أول الكلمة.

#### (إِنْ كُنْتُمْ)

إن حرف من حروف الشرط. وهي تفيد الإثارة لما فيها من معنى الشك لأنك إذا قلت لزميلك: إن كنت قوياً فاحمل هذه الصخرة فكأنك تستشير عزمته لما تبعثه إن من الشك في قوته، وكان هنا ناقصة فيكون المعنى: إن أنتم تحبون الله

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وذلك لأن الخطاب موجه إلى من يدعي محبة الله كاليهود إذ قالوا: تَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ<sup>(١)</sup>.

وكان النصارى إذ قالوا: إنما نعظم المسيح حباً لله<sup>(٢)</sup> ويروى أنه ﷺ وقف على قریش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال: يا معشر قریش والله لقد خالفتكم ملة إبراهيم، فقالت قریش: إنما نعبد هذه حباً لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفاً<sup>(٣)</sup>، كل هذه الطرائف تدعي محبة الله والكل يؤمنون به موجوداً وخالقاً ويزيد اليهود والنصارى الإيمان بإرسال الرسل ولكن العرب يؤمنون به خالقاً ليس له أي سلطان عليهم في الأمر والنهي فهو عندهم كالسلطان المعزول عن رتبته أو المحجور عليه في التصرف، وأهل الكتاب يريدون أن يُقَيِّدُوا ربهم بأن لا يُرسل رسولاً بعد رسلهم وادعاء محبة الله تتنافى مع ذلك كله.

**﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾**

إنما وجه هذا الخطاب إلى الأصناف الثلاثة (المشركين، اليهود، النصارى) بعد أن أثبت لهم ﷺ أنه رسول الله إليهم جميعاً بأدلة قاطعة لا تدع ملاماً للمنكر إلا العناد بالكفر بالله في إرسال محمد ﷺ<sup>(٤)</sup> وهم جميعاً كانوا يشعرون بصدق هذا البيان ومرارة الكفر به وعدم الاستجابة الواعية لما يحمله إليهم من هداية ونور ولو أعطينا من أنفسنا في تحليل هذا الخطاب وتأثيره على المُخاطَب

(١) المائدة: ١٨.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٩٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والمؤمنين به والمخاطبون لَطالَ بنا الشرحُ والتفصيلُ ويكفيُنَا أننا فُتَحْنَا أمامك الطريقَ.

### (تُجُونَ اللَّهَ)

حب الله لا يوصف ولا يمكن التعبير عنه إلا بآثار هذا الحب على الشخص المحب حاله حال جميع المشاعر الإنسانية، ومن آثار هذا الحب الولع في عبادة الله وذكره آناء الليل وأطراف النهار، ومن آثاره أيضًا حب الكون كله لأنه مال محبوبه فيأنس إلى الكون ويأنس به فلم يعد في وحشة أينما كان فهو مع مالكه ومحبوبه ومع المملوكين لهذا المحبوب.

ومن آثار هذا الحب الولع في الدعوة إلى محبة الله حباً في خلاص المدعوين من مناكدة سيدهم وحباً في خدمة المحبوب لأنه يفرح في عودة الشاردين عن طاعته فهم ملكه ومخلوقوه ﷻ، ومن آثار هذا الحب على بدن المحب سكونه إذا سمع كلام محبوبه وقشعريرة بدنه إذا سمع ذكر أسمائه أو آياته وتقطع أوصاله لو شعر في لحظة أنه بعيد عن محبوبه وهذه الآثار هي التي يمكن للمحب أن يتكلم عنها أما الحب في ذاته فلا يعلمه إلا المحب والمحبوب ﷻ، ولهذا عندما وصف عشاق الصور حبه لم محبوبيه لم يخرجوا عن هذه الآثار، قال قائلهم:

وإني لتعروني لذكراك هزةً كما انتفض العصفور بلله القطر

### (فَاتَّبَعُونَ مَنِ ابْتَدَأَكُمْ اللَّهُ)

كل الآباء والمربين يحرصون أن يضعوا قواعد للسلوك الصالح في الحياة لأبنائهم ولمن يربون، ويضعون إلى جنب ذلك تحذيرهم من مساوئ السلوك السيئ لنلا ينزلق من ينزلق، ولن تجد في الحياة والداً ولا مربياً لا يحب من أبنائه ومربويه اتباع قواعد السلوك الصالح الذي وضعه لهم.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هذه كل الحكاية في هذه الآية والله المثل الأعلى، إن الله يحب من اتبع دينه الذي أرسل به رسله لأنه إنما أرسلهم إلى خلقه بما يعلم فيه سعادتهم في الدنيا قبل الآخرة، فهل تجد فيما أمر الله ورسوله أمراً مكروهاً أو سلوكاً خاطئاً وهل أنت واجدٌ فيما نهى الله عنه ونهى رسوله أمراً صالحاً في الحياة قبل الممات.

إنك لو أتعبت ذهنك وكددت فكرك فسوف لن تجد ذلك كيف يعقل أن يأمر المالك بما لا يصلح لخلقهِ؟ إذا كنت تحب الوالد أو تحب المربي ولا تهتدي بما وضعاؤُ لك من قواعد صحيحة في الحياة فهل تنتظر أن يحبك هذا الوالد أو ذاك المربي؟!!

ثم ما فائدة محبتك لو الدك إذا كنت لا تنتفع بما وضع لك؟ وهل يمكن وجود محبة لا تستتبع الطاعة؟ فكيف يُعصي الإنسان من يحب؟!، وإذا كان الآباء لا يحبون من لا يسيرُ على قواعدهم فما الفائدة في محبة الأبناء لهؤلاء الآباء أنت تحب من لا يحبك أليس في ذلك عذاب عظيم بل أي عذاب أعظم من أنك تحس ان من تحبه لا يحبك.

ويحببكم فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جواب الطلب - أتبعوني - وهذا يعني الملازمة الحتمية بين الإتياع والمحبة فمتى كنت تابعاً كنت محبوباً فمن ادعى الإتياع ولم يجد المحبة وآثارها في نفسه فلا يلومن إلا نفسه ومن آثار هذه المحبة ما أخبر به النبي ﷺ في رواية الإمام البخاري عن ربه أنه قال: "وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولأن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه..."



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فانظر لنفسك وأنت تدعي الإتياع هل كان الله سمعك وبصرك ويدك ورجلك؟ هل كنت ممن إذا سأل الله أعطاه وإذا استعاذ به أعاده؟ فإن لم تكن كذلك فصح إتياعك مرة بعد مرة لتصح لك المحبة وآثارها.

### (وَمَنْ يَفْزَلْكَ ذُنُوبُهُ)

من أحب غفر، ومن قلى عاتب لن يستطيع المحب أن يعاتب محبوبه على ما فات قبل زمن الحب إذا كان هذا شأن المخلوق مع المخلوق فما بك بالخالق.

### (ذُنُوبُهُ)

سميت الأعمال السيئة ذنوباً، لأنها تتبع صاحبها فهي كالذنب تسير خلفه أينما توجه وهذا هو حكم السيئات في الدنيا أيضاً، لا يسير المسيء إلى عمل ولا إلى محفل إلا وتكون معه سيئاته بل لا يكون مع نفسه إلا كانت معه حتى فراش نومه كأنها اللعنة تتبعه حيثما توجه.

### (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي بهؤلاء المحبوبين، وأحسب أن هذا هو السر في ان تكون الجملة إسمية بدون كان الناسخة لأن الجملة لو كانت هنا - وكان الله غفوراً رحيماً - لم تكن خاصة بهم.

### (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

الظاهر من تكرار قل في هذه الآيات أن نزولها كان في فترات متفاوتة لأنها لو نزلت ولأء لما كان هناك من داع لتكرار هذه الكلمة ويؤيد هذا أن ابن عباس روي عنه انه قال: "لما نزل قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" قال عبد الله بن أبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمر بان نحبه كما

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أحبت النصارى عيسى ابن مريم فنزل: "قل أطيعوا الله والرسول"<sup>(١)</sup>.

### ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

في الآية الأولى: "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" وفي هذه الآية: "أطيعوا الله والرسول" ومن المعلوم أن فاتبعوني تعني اتباعه في رسالته فليس في يديه شيء خارج عن هذه الرسالة فيكون إتياعه هو إتياع شرع الله وإذا كان القائد متوجهاً إلى شيء فأتبعته فأنك تساويه في هذا التوجه وفي الآية الثانية "أطيعوا الله والرسول" وطاعة الرسول في رسالته هي نفسها طاعة الله وطاعة الله إنما تتأتى بطاعة رسوله الذي يبلغ دعوته وإلا فكيف يمكن أن تحقق طاعة الله إذا أخذناها بغض النظر عن الرسول المبلغ عن الله إذا كان لا يأتي أمر الله إلا على لسان رسوله فطاعة رسوله هي طاعته وطاعته هي طاعة رسوله.

### ما الفارق إذاً بين التعبيرين:

يقال: تبع فلان فلاناً إذا مشى خلفه فإذا جيء بالفعل على صيغة الافتعال تقول: أتبع فلان فلاناً أو أتبعته فلاناً كان معناها كذلك المشي خلفه ولكن بحرص وزيادة معاناة.

فالآية الأولى تتكلم عن الحب ولهذا كان الإتياع وهو زيادة الحرص على السير خلف الرسول موصل إلى تلك الحب أو هو علامة عليه، وأما الطاعة فهي تنل على مطلق الانقياد تقول: فلان طوع يديك إذا كان منقاداً إليه. والآية الثالثة تتحدث عن درجة الخلاص من المعصية ومطلق الطاعة كافياً فيها. فوضع القرآن كل كلمة في مكانها اللائق بها هذا ما خطر ببالي الآن من

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٠٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الفارق بين الآيتين ولم يتعرض الرازي ولا أبو حيان ولا الزمخشري لهذه المسألة<sup>(١)</sup>.

### ﴿فَان تَوَلَّوْا﴾

قال الزمخشري: "يحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً، بمعنى فان تتولوا"<sup>(٢)</sup> وهذا التخريج الذي ذكره الزمخشري يجري في كل الأفعال التي فاء فعلها-واو، او في أغلبها ضرورة جواز حذف التاء الأولى مثل توافقوا وتواعدوا وهلم جرا.

### ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾

جعل هذا التولي عنواناً على كفرهم لأن التولي عن مُطلق الطاعة يدل على عدم الدخول في الإيمان وذلك ان الدخول في الإيمان فرد من أفراد الطاعة فمن آمن فقد أطاع وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من الفارق بين الإتياع والطاعة قال أبو حيان: "وجعل من لم يتبعه ولم يطعه كافراً، وتقييد انتقاء محبة الله بهذا الوصف الذي هو الكفر مشعر بالعليه فالمؤمن العاصي لا يندرج في ذلك"<sup>(٣)</sup>.

### ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرٰهِيْمَ وَآلَ عِمْرٰنَ عَلَى الْعٰلَمِينَ﴾

### ﴿اصْطَفَىٰ﴾

أصل اصطفى: اصطفى فقلبت التاء طاء فهو من المزيد بحرفين الألف

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ص: ١٩٨. البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٠٤. الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٤.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٤.

(٣) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٠٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والتاء فهو من باب الافتعال مثل افتتح واختصم فلا يطلق الاصطفاء إلا بين اثنين، والاصطفاء: الاختيار فذكر الله ﷻ أنه بعد أن خلق خلقه إختار منهم آدم ﷺ فكرمه بالخلافة في الأرض واختار نوحاً ﷺ — وهو الأب الثاني للبشرية — واختار إبراهيم وآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادهما واختار آل عمران وهو جد عيسى ﷺ لأمه كما رجحه الرازي<sup>(١)</sup> رحمه الله، لا والد موسى وهارون. وهذا التخصيص في نكر آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران كان لرد المنازعين في قبول رسالة محمد ﷺ فالمشركون من العرب يعلمون انه من أولاد إسماعيل وهم ينتسبون إلى دين إبراهيم واليهود ينتسبون إلى إبراهيم أيضاً فهم من أولاد إسحاق والنصارى على دين عيسى وجده لأمه عمران عليهم الصلاة والسلام جميعاً. فكأنه يقول لهم: كيف تكفرون برسالة محمد وهو من آل إبراهيم ثم أن الله أن يختار من يختار، أنتم أعلم أم الله، فقد اختار آدم على خلقه وأسجد له ملائكته ثم اختار نوحاً وهو أعلم حيث يجعل رسالته فأى غريب في هذا؟!.

### (عَلَى الْعَالَمِينَ)

اختار أنبياءه ورسله على العالمين أئمة وقادة وهداة وهذا هو الفارق بين قولنا: اخترت فلاناً من القوم وبين قولنا: اخترت فلاناً على القوم، فلو قال: من العالمين لفات معنى قيادتهم وإمامتهم للعالمين.

### (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ)

الكل ينتسب إلى آدم وإلى نوح ومن جاء بعد إبراهيم كلهم ينتسبون إلى إبراهيم ﷺ وأي فارق بين ان يكون الرسول من ولد إسحاق أو من ولد إسماعيل؟

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٠١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

والله سميع لما يقوله هؤلاء الذين يريدون من الله أن يختار من يختارون  
ويُرسل من يحبون.

والله عليم: عليم بما يكيدون وبما يحرفون وهو عَلِيمٌ عليم، عليم بمن هو  
أهل للقيام بأعباء الرسالة والنبوة "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"<sup>(١)</sup>.  
وأنت ترى أن الله ذكر اصطفاء آل عمران في آخر هذه الآيات ثم سيفتح  
الحديث عن قصة من قصص آل عمران في الآيات اللاحقة.

(١) الأنعام: ١٢٤.



## الفصل التاسع

في قصة حنة أم مريم عليها

السلام





## الفصل التاسع

### في قصة حنة أم مريم عليها السلام

( إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَدَدْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

( إِذْ قَالَتْ )

أي أذكر إذ قالت فالعامل في الظرف فعل محذوف يدل عليه السياق.

( أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ )

الحديث عنها بعد وفاة زوجها بدليل كفالة زكريا لمريم وتصرف حنة بنذارتها دون ذكر لبعولها عمران فهي الآن ليست زوجة أصلاً إذ لا يصح تسميتها زوجة بعد وفاة زوجها.

قال الرازي: قال ابن إسحاق: "إن مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت ربها أن يهب لها ولداً فحملت بمريم وهلك عمران فلما عرفت جعلته الله محرراً أي خادماً للمسجد"<sup>(١)</sup> فانظر رعاك الله كيف نص القرآن على لب القصة وترك الشوائب إذا صح التعبير

(١) التفسير الكبير: ج ٣ / ص: ٢٠٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (رَبِّ)

حذف حرف النداء والأصل: يا ربي كذلك حذف يا المتكلم اجتزاءً والدعاء بالاسم الرب هو الأكثر استعمالاً في أدعية السابقين ممن نقل القرآن الكريم أدعيته

### (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ)

قَدِّمْتَ رِبْهَا عَلَى نَفْسِهَا فَلَمْ تَقُلْ: إِنِّي رَبِّي نَذَرْتُ لَكَ. جريباً على سنة المتأدبين مع الله في الخطاب بينهم وبينه وهذا ما كان يخالفه بنو إسرائيل في خطابهم أنظر لقولهم: أدع لنا ربك<sup>(١)</sup>، وكان الأحرى بهم أن يقولوا: أدع ربك لنا. وهذا يعني أن القرآن الكريم حين ينقل كلام من ينقل عنه يأتي به كما ذكره صاحبه لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه شيئاً لأن افتراض الزيادة أو النقص ينتزه عنه القرآن أولاً ويفوت على الدارسين مثل هذه المقارنة بين المخاطبين ثانياً والأدهى من ذلك أن أهل الكتاب وهم يحرصون على الطعن في القرآن الكريم لو وجدوا فيه زيادة أو نقصاً عما في كتبهم من النقل عن أنبيائهم ورجالهم لعدوا ذلك سبيلاً للنيل من مكانة القرآن الكريم وصدق أخباره.

والنذر هو إيجاب المرء على نفسه أمراً إما مطلقاً أو معلقاً وقولها لك أي لا لغيرك ونذرها كان مطلقاً لأنها لم تقصد إلى تعليقه بشيء.

### (نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي)

تقديم الجار والمجرور "لك" لإفادة التخصيص ولزيادة أدبها مع الله ﷻ. ما: أي الذي وهو من ألفاظ العموم فيشمل الذكر والأنثى والنذر إذا عينه

(١) البقرة: ٦٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الناذر لم يُلتفت فيه إلى الكمال فلو قلت نذرت هذه الشاة وجبت سواء كانت صحيحة أو مريضة وهذا بخلاف ما لو قلت نذرت شاة.

**(فِي بَطْنِي)**

لم تقل في رحي استحياءً فعبرت بظرف الظرف لأنه يصدق عليه أنه

ظرف

**(محرراً)**

منصوب على الحال من "ما" والتقدير: نذرت لك الذي في بطني محرراً.

أي خالصاً.

**(فَتَقَبَّلَ مِنِّي)**

أي تقبل أنت مني مباشرة وإذا كتب الله له القبول قبله أهل المعبد فلم

تطلب من ربه قبوله منهم والتقبل أخذ الشيء على الرضا والاعتناء بالمتقبل<sup>(١)</sup>.

إنها مواقف يملئها الإيمان الشاعر لا غير فلو قالت - فقبل مني -

لضاعت هذه المعاني فضلاً عن قولها: فاقبل مني فالقبول والتقبل غير التقبل.

**(إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)**

هذه صورة من صور الابتهاال إلى الله بأسمائه بعد أن تحققت بالفقر

والحاجة إلى الله وامتألت شعوراً وإيماناً أن الله وحده هو القادر على إسعافها في

هذا الطلب.

**(إِنَّكَ أَنْتَ)**

بالتأكيد بأن والحضور مع الله يمثله كاف الخطاب وتأكيده بالضمير

(١) التفسير الكبير: ج ٣ / ص ٢٠٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

المنفصل - أنت - الذي يفيد القصر .

**(السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)**

بهذين الاسمين الكريمين توجهت إلى الله في قبول دعائها لمناسبة هذين الاسمين لطلبها فهي تتاجبه ولا يسمعا غيره وهي نذرت ما في بطنها ولا أحد يعلم إخلاص قلبها الا هو وحمل السميع على معنى القابل للدعاء يغني عنه تصريحها

**(فَتَقَبَّلَ مِنِّي ، السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :**

لكل حاجة من حاجات المخلوق اسم من أسماء الله الحسنى يناسبها فالمرضى يسأل بالشفافي والضال بالهادي والفقير بالمغني والذي يشعر بكراهية الناس له بالودود فخذ من أسماء الله ما ناسب غرضك والهج به في دعائك إلى الله يستجاب دعاؤك ان شاء الله.

**( فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن كَانَ لَأُنْثَىٰ**

**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ )**

**( فَلَمَّا وَضَعَتْهَا )**

الوضع: الحط والإلقاء تقول: وضع يضع ووضعا وضعة. ومنه الموضع<sup>(١)</sup> قال الزمخشري: "الضمير - يعود - لما في بطني وإنما أنت على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله أو على تأويل الجبلّة أو النفس "ومثله في التفسير الكبير و البحر المحيط<sup>(٢)</sup> والذي دعاهم إلى أن يقولوا ما قالوا في عود الضمير أن مريم

(١) البحر المحيط: ج ٣ / ص ١٠٦ .

(٢) الكشف: ج ١ / ص ٤٢٥ . والتفسير الكبير: ج ٣ / ص ٢٠٣ والبحر المحيط: ج ٣ / ص ١١٦ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لم يجر لها ذكرٌ فيما سبق ومن شروط عود الضمير إلى من يعود إليه أن يتقدم ذكره إما لفظاً أو معنىً وذلك لأن الضمائر أسماء مبهمة لا تتبين إلا بما تعودُ إليه. وأحسب أن ما ذكره لا داعي له فان جملة "فلما وضعتها" حكاية من الحق ﷻ لنا في كتابه عما كان ومريم في سياق القصة معهودة ذهنياً ولم تكن هذه الجملة من كلام أم مريم حتى يأتي فيها ما ذكره والله أعلم.

### ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ ﴾

أي امرأة كانت أم مريم كل أنثى بعد أن تضع حملها يشغلها الفرح بوليدها حتى عن نفسها أكبر همّ الوالدة بعد أن تلد هو النظر إلى مولودها نظر الواله وقد حضر إليه من يحب، من من النساء من تتذكر في تلك اللحظات الجميلة بنذرٍ قديم ولكنها المؤمنة المتعلق قلبها حباً بالله أم مريم. وأحسب أن هذا النوع من التحليل النفسي لصاحب الحدث أجدى نفعاً على الإيمان وأهله من أنواع التحليل الأخرى.

### ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾

هذا نداء حسرة ألمت بها وهي تنظر إلى وليدتها لأنها كانت تعلم فيما عملت من أهل دينها أنهم لا يقبلون البنات في خدمة المعابد وهي تعلم أيضاً ما عليه الرهبان وهم قادة المعابد من العزوف عن النساء وعن كل ما يذكر بهنّ لأنهم زعموا فيما يزعمون عن دينهم أن الزواج نوع رجس ينبغي للمثاله أن يبتعد عنه. فخافت أن لا يقبلوا منها ما نذرت.

### ﴿ أُنْثَى ﴾

قال الزمخشري: "أنثى حال من الضمير في وضعتها... وإنما أنثى - أي صاحب الحال وهو الضمير في وضعتها - لتأنيث الحال لأن الحال وذا الحال

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لشيء واحد<sup>(١)</sup>، "وإنما سميت المرأة أنثى لميلها إلى الرجال وهكذا في كل الإناث وميلها إلى ذكورها أو لئبها أو كمالها في صفات النساء فيقال: امرأة أنثى كما يقال رجل ذكر"<sup>(٢)</sup>.

### ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾

جاء في قراءة أبي بكر عن عاصم وابن عامر "وضعت" بناء الفاعل وهي تدل على ما ذكرنا من الحسرة ولكنها حسرة المؤمن الذي يعود إلى الله من قريب وقرأ باقي السبعة: "وضعت" بناء التأنيث الساكنة والجملة على هذه القراءة معترضة فالحق ﷻ وهو يحكي لنا قصتها يلتفت إلينا بهذه الجملة كالتعليق على ما قالت. بيد أن الجملة تحتمل وجهاً آخر قد تميل إليه وهو أن الجملة ليست معترضة فقط ولكنها اعتراض على ما قالت أم مريم حيث سمت ولیدتها أنثى وليس كل بنت أنثى فإن الله يعلم أنه خلق مريم بدون أنوثة ولهذا لا تسمى أنثى.

### ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾

أي في هذا العمل الذي نذرت حملها للعمل فيه. فليس في الآية ما يلزم النساء كما قد يتوهمه الجاهل وكان الظاهر على مقصودها أن تقول: وليس الأنثى كالذكر ولكن توهمها ذكورية ما في بطنها ورغبتها في هذه الذكورية هما اللذان جعلها تقول ما قالت<sup>(٣)</sup>، وأبدي الرازي وجهين آخرين غير ما ذكرنا<sup>(٤)</sup>.

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٥.

(٢) لسان العرب ج: ١/ص: ٢٢٩.

(٣) انظر الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٥.

(٤) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٠٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾

قال الزمخشري: "مريم في لغتهم بمعنى العابدة. فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه - تعالى - أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها ألا ترى كيف اتبعته طلب الإعادة لها ولودها من الشيطان وإغوائه" (١).

### ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

هذه الجملة الأخيرة من كلمات أم مريم عليها السلام في مناجاتها ربها وهي معطوفة على ما قبلها "قالت رب إني وضعتها... وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك" وأنت ترى أنها تعيد التأكيد في كل جملة ثم تدخل هذا التأكيد على نفسها بضمير المتكلم - إني - إني - إني، فما وجه هذه الإعادة يا ترى؟  
إن هذا التكرار في ذكر النفس والتأكيد عليه في كل جملة يدل على الحضور الكامل مع ربها الذي تتاجيه وتضرعها بفقرها وحاجتها بل وانقطاعها إليه عليه السلام فالسائل من الملوك يؤكد فقره في كل طلب فكيف بمن يسأل ملك الملوك!!؟

هذا ما استطعت أن استوحيه من هذا الموقف.

### ﴿أَعِيدُهَا﴾

عاذ من باب قال أصلها عَوَدَ واستعاذ به لجأ إليه: وهو عياده: أي ملجؤة (٢).

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ١٩٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿أَعِيذُهَا بِكَ﴾

أي أجمعك ملجأ لها. وأعوذ بالله: أي الجأ إليه. وهي لا تطلب من ربها — بصيغة الطلب — أن يعيذ ابنتها فلم تقل: وأعدها بل "أعيدها" ما الفارق بين التعبيرين؟. لو قالت: أعدها، لكان طلبا في محل القبول والرد واعتمادا على ربها وثقتها به جعلها لا تقف في طلبها من ربها هذا الموقف بل كان حضورها مع ربها وشعورها أنه عَلَّامٌ معها انطقتها: "أعيدها بك" كما تقول لمن تثق بحبه لك: أعتد عليك في رعاية ولدي وتتركه عنده وتذهب ولا تنظر في قبوله ذلك لتقتك به.

ومثل هذا دعاء السفر "اللهم أنت صاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد" <sup>(١)</sup> فمتى ما جعلته صاحباً كان صاحباً وإذا جعلته خليفة في شيء كان خليفة لك وعنك في ذلك الشيء وهذا يعني أن الله معنا في كل حال نكون معه والله أعلم.

### ﴿أَعِيذُهَا﴾

قال أبو حيان: أتى خبرُ ابنِ مزارعاً وهو: أعيدها لأن مقصودها ديمومة الاستعانة والتكرار بخلاف وضعتها وسميتها فإنهما ماضيان قد انقطعا <sup>(٢)</sup>.

### ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾

كان اعتناء أم مريم بمريم أولاً ثم استدركت ذكر ذريتها بعد ذلك ولهذا

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب المناسك ١٣٤٢.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١١٩.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فصلت بين المعطوف والمعطوف عليه بقولها "بك" فلو قالت: أعيذها وذريتها بك لكانت عودتها لمريم وذريتها بنفس الدرجة ولكنها لم تفعل.

### (مَنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

الشیطان: كل عاتٍ متمرّدٍ من الإنس والجن والدواب والعرب تسمي الحية شيطاناً وكلمة شيطان: نونها أصلية وقيل أنها زائدة<sup>(١)</sup> والعرف العام اختص المتمرد من الجن باسم الشيطان وليس ذلك من دلالة اللغة.

### (الرَّجِيمِ)

رجيم على وزن فعيل وهو يصح حمله على اسم الفاعل وعلى المفعول والشیطان — كل شيطان — مرجوم بلعنة الله وكفى بذلك راجماً ورجماً فيكون ذكر الرجيم ليس قيماً احترازياً بل كاشفاً وتحتمل رجيم معنى راجم هنا لأن الإعادة عند رجمه متحققة.

### (أَعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

ما هو وجه هذه الإعادة لمريم وهي في زمن صغرها؟ إن الله تعالى قال لنا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال في مس الشيطان: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾<sup>(٣)</sup>، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل

(١) مختار الصحاح ص: ١٤٥.

(٢) فاطر: ٦.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الصبي....." (١)، وشغب الزمخشري في رد الحديث لمخالفته مذهب المعتزلة بما لا طائل تحته (٢).

### ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ﴾

لما كان طلبها التقبل لمولودها كانت الاجابة على مقتضى السؤال فقد ذكرنا أنها لم تطلب مطلق القبول وإنما كان رجاؤها من الله أعظم من ذلك حيث طلبت قبولاً مشفوعاً بالرضا من القابل، وبالرضا والاعتناء بالمقبول وعن المقبول.

### ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾

قال الزمخشري: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون القبول اسم ما تُقْبَلُ به الشيء كالسقوط واللدود لما يسقط به ويُلْدُ وهو اختصاصه ﷻ لها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قلبها أنثى في ذلك.

والثاني: أن يكون مصدراً على حذف المضاف بمعنى فتقبلها بذى قبول حسن أي بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص (٣).

### ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾

يقدر الكثير من المفسرين فعلاً محذوفاً قبل نباتاً أي فنبتت نباتاً وذلك لأن مصدر أنبت إنباتاً لا نباتاً مثل قوله تعالى: ﴿وَنُحِرْجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (٤)، ولم يقل خروجاً

(١) رواه الشيخان، انظر تفسير ابن كثير بتعليق الصابوي ج: ١/ص: ٢٧٨.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٦.

(٣) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٦-٤٢٧.

(٤) نوح: ١٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ولكن طريقة القرآن الكريم إذا أراد أن يتكلم عن فعل من أفعال الله جاء بالمصدر— أخرجكم إخراجاً — وإذا تحدث عن المخلوق فالمخلوق لا يتخلف تكوينه فعندما يقول له إنبت يكون نباتاً فلا داعي لذكر الإنبات وكذلك التوصيف بالحسن فإنه إنما يليق بالمخلوق لا بفعل الله ﷻ فلا يقول أخرجكم إخراجاً حسناً لأن فعله ﷻ حسن ولا بد.

### ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾

كفلها بتشديد الفاء أي أن الله أمر زكريا أو جعل زكريا كافلاً لها، وجاء في قراءة مجاهد فتقبلها وأنبتها وكفلها بسكون اللام والتاء واللام في كفلها فتكون الأفعال الثلاثة ملحقة بدعاء أم مريم أي فتقبلها وأنبتها وكفلها زكريا<sup>(١)</sup> أي واجعل زكريا كافلاً لها.

### ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

"كلما" تقتضي التكرار فتدل على اعتناء زكريا ﷺ بها وأنه كان يكثر من الدخول عليها اعتناءً بها، ولا تنس أن زوجته خالتها والخالة من حيث العطف والحنان كالأم ولا تنس أيضاً أن أمها لا زالت حية توصيه بالاعتناء بها وتدل هذه الكلمة أيضاً على أن حصول الرزق لمريم كان دائماً لأنه لو لم يكن على الدوام لأمكن أن يدخل عليها زكريا في وقت من الأوقات ولا يجد عندها هذا الرزق. وفي هذه الكليّة — كلما — كسرٌ لما يشترطه بعض المتكلمين على الخوارق في كونها كرامةً أن لا تقع دائماً بل عند الضرورة فقط.

### ﴿دَخَلَ﴾

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تفيد أن مريم كانت في مكان لا يحتاج الداخل عليها إلى استخدام أسباب إضافية ولهذا لما كان محراب داود عليه السلام مرتفعاً عن الأرض قال الله عنه: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (١) ولو كان محراب مريم كذلك لقال: كلما سَوَّرَ زكريا عليها المحراب.

### ﴿دَخَلَ عَلَيْهَا﴾

على تفيد الاستعلاء وزكريا هو الكافل لها والكفيل عليها وهو نبي وهي ليست كذلك وكفالاته لها تعطيه الحق في الدخول عليها متى رأى المصلحة في الدخول فهو لا يخضع لرأيها في تحديد أوقات الدخول عليها.

### ﴿دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا﴾

تقدمت عليها على زكريا لأن الحديث مساق عن مريم لا عن زكريا.

### ﴿الْمِحْرَابَ﴾

يطلق المحراب ويراد به صدر المجلس ومنه المحراب في المسجد لوقوعه في صدر المسجد ويطلق المحراب على الغرفة ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢) وقيل يطلق المحراب على محل العبادة قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ (٣) قيل من المسجد (٤) والذي يترجح في سياق الآية أن المقصود بالمحراب هو المكان الذي اتخذته مريم لعبادة ربها وهو المكان الشرقي الذي

(١) سورة ص: ٢١.

(٢) سورة ص: ٢١.

(٣) مريم: ١١.

(٤) مختار الصحاح ص: ٦١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

نصت عليه الآية: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ آهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ﴾ (١) مريم: ١٦ - ١٧.

﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

العامل في الظرف هو الفعل وجد والرزق هو الموجود وهو وإن جاز أن يتعلق به الظرف إلا أن المعنى سوف يتغير ولا يصح تقديره لأن زكريا كان همه تفقد مريم ولم يكن همه الرزق الذي يجده عندها فلو قال: وجد رزقاً عندها لكان همه الرزق في دلالة الخطاب لا هي وذلك غير مقصود على الراجح وإنما نقول على الراجح لأن احتمال استطاعه من رزقها لا ترده الدلالة اللفظية نصاً والله أعلم.

### ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾

لم يكن في المحراب غير مريم حتى يخصصها بالخطاب ولا هي ممن لم تحسّ بدخوله حتى تحتاج إلى التنبيه بحرف النداء، إذن لماذا يناديها؟ لماذا لم تأت الصيغة ( قال أنى لك هذا )؟ إنه موقف الغريب عن الحدث الغافل عن إمكان وقوعه مع علو مكانته على مكانتها إنه النبي وهي الولية الصالحة فكان منه هذا السؤال ( أنى لك هذا ) المبدوء بحرف النداء.

لم يكن زكريا يتوهم اقتحام حرمة وحرمة من تكفلها فيوصل إليها رزقاً بدون إذنه حتى يسأل عن الجهة أو الشخص الذي يأتيها منه الرزق الكريم، هو سؤال عن الكيف إذن لا عن الأين إنه متأكد أن أحداً غيره لا يجروء على الدخول إليها وهو بنفس الدرجة من التأكيد إن مريم لن تسمح لأحد في الدخول إليها وما

(١) مريم: ١٦-١٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يحكى من القصص عن إقفال الباب عليها أو أنها سبعة أقفال كان الغرض منها إيصال المعنى الذي حكيناه فيما نحسب والله أعلم.

**﴿أَنْى لَكَ هَذَا﴾**

كيف يأتيك؟ وبأي طريقة؟ ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة؟ وتقديم لك على هذا يتم تفسير هذا السؤال إذ لم يكن سؤاله عن الرزق بل عنها " أنى لك هذا" وليس أنى هذا لك".

**﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾**

لم تكن بحاجة إلى حرف النداء إنه مستيقظ بجميع حواسه معها ليسمع الجواب منها "قالت: هو..." تحدثت عن الرزق الذي عندها بضمير الغيبة إنها غير مهتمة به فلو كانت تهتم به ل قالت: هذا من عند الله، ولكنه ليس قريباً إلى قلبها فأبعدته في خطابها لذكريا عن قلبها.

**﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾**

ش جنود السموات والأرض إن الله هو الذي يرسله إليها من عنده، فلم تقل هو من الله بل قالت: "هو من عند الله" وهذه حكاية صدق لحالها مع الله فهي بعد لم تصل إلى حال الرزق من الله إن هذه الحال ستكون لوليدها عيسى عليه السلام ينزل المائدة ويحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله فما يقع لعيسى من الله وما يأتي لأمه من عند الله أفلا تسجد العقول والقلوب لرب العالمين مُنزّل هذا القرآن!!!

**﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**

أنظر إلى التعبير القرآني وكيف يحكي لنا مواقف الماضين — أحاسيسهم ومشاعرهم — وما تعالج به نفوسهم وقلوبهم كل ذلك يوصله بأمانة كاملاً غير منقوص بألفاظ اللغة وتعابيرها ومصطلحاتها إنه نوع من التحدي والإعجاز لا يقوم

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

به إلا العالم بخفايا النفوس ودرجات إيمانها وكفرها وطاعتها ومعصيتها ولا يكشف ذلك كله إلا التفسير التحليلي بكل جوانب التحليل.

**(إِنَّ اللَّهَ)**

لم نقل مريم إنه يرزق من يشاء؛ مع ذكر لفظ الجلالة متصلاً بهذه الجملة "من عند الله" إنها حكاية حضورها مع الله وأدبها في الحديث عنه ﷺ

**(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ)**

إن الله يرزق العبد بما يعمله من أسباب لا يمكن للعبد أن يتخطى عالم الأسباب دنيا وأخرة وكل ما نتوهم منه فقدان الأسباب إنما هو الانتقال من سبب كثيف إلى سبب لطيف، التقوى تؤدي إلى الرزق من حيث لا يحتسب العبد وعيسى يحيي الموتى بالإذن ويقول للطير بعد تصويره كن طيراً، والتصوير وكن من الأسباب فلا يمكن أن يقع شيء بلا شيء بل حتى الحضرة الإلهية لا تخلق بدون استخدام سبب ﴿إِذَا أَرَدْتَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup>، فالإرادة وكن توقف عليها وجود ذلك الشيء وكذلك إمكانية الشيء على التكوين "فيكون" أي هو يكون.

**(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ)**

بقوله كن إذا أراد وبالأسباب الظاهرة إذا أراد فالإرادة هي التي تخصص

الطريق

**(بِغَيْرِ حِسَابٍ)**

مفرد مضاف فيعم كل أشكال المغايرة أي بغير حساب لله على ما

(١) النحل: ٤٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يفعل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وبغير حساب لما يعطي فانه الكريم، وبغير حساب لمن يعطي فان الله يعمل ما يريد لمن يريد، وبغير حساب للكيف وبغير حساب لكم وبغير حساب للاستحقاق تعالى الله رب العالمين.

وأنت ترى أن الآية هذه تتحدث عن مريم لا عن أمها ولكنها لما كانت لا تزال في دور الرعاية من أمها يكون الحديث عنها داخلاً في الحديث عن أمها وبعد الاستقلال نأخذ الحديث عن قصتها وحدها.

---

(١) الأنبياء: ٢٣.



## الفصل العاشر

في قصة زكريا عليه السلام



## الفصل العاشر

في قصة زكريا عليه السلام وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا الشورى: ٤٠

(مَنَّاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَادَّاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمَكْلُوبِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ مَا يَتُوكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِعَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ آل عمران: ٣٨ - ٤١ .

رتب القرآن القصص الثلاث قصة أم مريم وقصة مريم ومعجزات أو آيات عيسى ترتيب الأحداث التاريخية وكان الواحدة تكون موطئة للتي بعدها وجعل الآيات ذات العلاقة بقصتين منها ضمن أكثرها مناسبة وصلة بها فقد يجد القارئ آية كأنها تخص قصة زكريا وضعت في سياق قصة أم مريم أو آية في قصة مريم تخص وليدها عيسى ولكن القرآن كان نظره في سرد الآيات إلى تسلسل الأحداث ثم مكانة صاحب الحدث ثم مناسبتها لموقعها في القصة.

### (مَنَّاكَ)

هنا موضوعة في لسان العرب للمكان ومثلها ثم وحيث إلا أن هنا مستعملة للقريب فإذا أردت البعيد قلت هنالك وبقيت هناك فهي لما بين بين أي للمتوسط ولا يغيب عن بالك أن القرب والتوسط والبعد من الأمور النسبية قال في

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الكشاف: "وقد يستعار هنا وثَمَّ وحيث للزمان" (١) وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِرَبِّ الْحَقِّ﴾ (٢) فهذا إشارة إلى الحال والزمان (٣) وإذا كانت هذه الأسماء تدل على الذوات مكاناً أو زماناً فإن العرب استعملوها للدلالة على المعاني والرتب بطريق الاستعارة أيضاً.

### (هُنَالِكَ)

مكاناً أو زماناً أو حالاً الإشارة محتملة لكل هذه المعاني فعندما رأى زكريا ما رأى بأمر عينيه من كرامة الله لمريم عليها السلام وإرسال الطعام إليها دائماً انتبه إلى ما يعانيه هو وزوجته العاقر من فقدان الولد الذي يعد سبباً من أسباب الخلود في الذكر والذي يرثه بعد موته فتوجه إلى ربه عز وجل أن يهبه الولد كما يهب مريم رزقاً من عنده في ذلك المكان أو في ذلك الوقت أو في ذلك الحال الذي سيطر عليه إجلالاً لله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

وأحسب أن العوامل الثلاثة — المكان والزمان والحال — كما كان لها دخل في استنارته للدعاء كان لها أيضاً أثر في استجابة دعائه فمكان العبادة وزمان حدوث الكرامة والحال الذي يلبس الشخص وهو يرى ما يرى من عطاء الله وكرمه؛ كلها عوامل تدفع إلى الإنابة الصادقة والخشوع الكامل والذلة المستميتة بين يدي عالم الغيب والشهادة لتكون سبباً من أسباب إجابة الدعاء وعطاء الداعي.

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٧.

(٢) الكهف: ٤٤.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٠٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

لم يطلب من مريم الدعاء ولا كان ذلك يليق به في مثل حاله والدعاء: النداء<sup>(١)</sup> وإجابة الدعاء قول المدعو: نعم أو ما يشبهها واستعمال إجابة الدعاء في عطاء المدعو الداعي ما طلبه من مدعوه استعمال مجازي.

### (قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

كان زكريا عليه السلام كان الحال الذي لبسه إنما لبسه في الأغلب من قولها "بغير حساب" لأنه لو كان واقفاً مع الرزق لقال: رب ارزقني أو ما في معناها لأن الهبة هي التي يصدق عليها "بغير حساب" من الواهب والموهوب والموهوب له.

### (مِنْ لَدُنْكَ)

أي مما يخصك أنت القادر على كل شيء لأنّ لدن أخص من عند قال أبو حيان: "ألا ترى أن عند تقع جواباً لـ (أين) ولا تقع له جواباً لـ (لدى)"<sup>(٢)</sup> وهذا مؤشر لنا أن زكريا مع ربه في مقام أعلى من مقام مريم التي تتعامل بالعنصرية أو أن مطلوب زكريا تناسبه اللدنية على خلاف ما كان لمريم عليهما السلام وهذه مقامات أدواق لا مقامات أوراق والله أعلم.

### (ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)

ذرية: أي ولداً والذرية تقع على الواحد والجمع كما يقول الزمخشري

(١) مختار الصحاح ص: ٩٢.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٢٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والرازي<sup>(١)</sup> قال الفراء: وأنت "طيبة" لتأنيث الذرية في اللفظ فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس أما في أسماء الأعلام فلا لأنه لا يجوز أن يقال: جاءت طلحة لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص فإذا كان الشخص مذكراً لم يجز فيه إلا التذكير<sup>(٢)</sup> أي ولا التفات إلى تأنيث لفظه.

والطيبة: هي الخالصة من كل ما يشوبها والطيب أعلى من الصالح<sup>(٣)</sup> فكل طيب صالح دون العكس وإذا كان الله لا يقبل من عباده إلا العمل الطيب فكيف يطلب منه ما دون ذلك فالوهب طيب والموهوب له طيب أيضاً اللهم إنا نتطيب بك يا طيب.

### ﴿إِنَّكَ سَمِيعٌ دَلِيلٌ﴾

المقصود بسميع هنا: المحيب لأنه قرنه بالدعاء ويضعف حمله على السمع لأنه سميع للدعاء وغيره وهي نفس الصيغة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ دَلِيلٌ﴾<sup>(٤)</sup> ويطلق الدعاء ويراد به النداء تقول أدع فلاناً إذا أردت منه أن يناديه لك

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٨. التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢١٠.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) إبراهيم: ١٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (١) ويطلق الدعاء ويراد به النداء مع المسألة التي جاء النداء لها والآية التي بأيدينا - إنك سميع الدعاء - من هذا لا من الأول.

### ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

المقصود بالملائكة: جنس الملائكة لا كلهم قال في الكشاف: " وإنما قيل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل" (٢) أي جنس الخيل، ولا يعقل أن تحمل كلمة الملائكة على جميع الملائكة بناءً على ظاهر النص كما توهمه الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٣).

### ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

في هذا دليل على سرور الملائكة بقبول دعوة زكريا عليه السلام فنادته حين أمرها الله بتبشيره ولهذا لم تنتظر انتهاءه من صلاته فوصله النداء قبل وصولهم إليه ونداء الملائكة وكلامهم مع البشر يقع على صور مختلفة وهم محكومون بالصورة التي يتمثلون بها وهو بحث طويل نستعفي القارئ عن ذكره.

### ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾

الواو في "وهو" واو الحال أي نادته الملائكة حال كونه قائماً يصلي في المحراب.

(١) الإسراء: ١١٠.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٨.

(٣) فتح القدير ج: ١/ص: ٤٢٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ( فِي الْمِحْرَابِ )

هل يتعلق الجار والمجرور بـ(يصلي) أو بـ(قائم) يقول أبو حيان: "ويتعلق في المحراب بقوله: يصلي ولا يجوز أن يتعلق بقائم.... إلا في وجه واحد وهو أن يكون يصلي حالاً من الضمير الذي استكن في قائم فيجوز لأنه إذ ذاك يتحد العامل فيه وفي يصلي وهو قائم"<sup>(١)</sup>. والمحراب هو المكان الذي يخصصه الشخص للعبادة.

### ( أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ )

الملائكة رسل الله لا يقولون نبشرك وكان يجوز لهم ذلك ولكن أدبهم مع الله جعلهم يسندون البشارة إليه ﷻ أو أنهم أرسلوا للبشارة وإنما سمي الخبر السار بشارة لظهور أثره على بشرة المبلِّغ فتفتتح أسارير وجهه وتنبسط أعصابه في جميع أنحاء جسده.

### ( أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ )

أكدوا الجملة بأن واستخدموا الجملة إسمية الصدر فعلية العجز لتدل على الثبات في أولها وعلى التجدد في آخرها فإن زكريا بعد وصول هذه البشارة إليه فسوف يبقى معها طويلاً كلما رأى زوجته العجوز العاقر وقد انتفخت بطنها من آثار الحمل إنه الإعجاز الإلهي فعلاً.

### ( يَسَيِّئُ )

إذن هو مولود ذكر وهو أيضاً سيولد على هذا الإسم فطالما أن زكريا

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٢٩.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

شيخ كبير وأن زوجته امرأة عاقر وهما لا يولد لمتلهما فالذي خلقه بدون أسبابهما هو أولى بالتسمية له فهنيئاً ليحيى عليه السلام بالتسمية الإلهية له وكذلك هنيئاً له هذا الاسم الذي يدل على الحياة بل على التجدد في الحياة.

### ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾

الجمهور على أن الكلمة التي يصدق بها يحيى هي عيسى عليه السلام فإن الله سماه كلمة كما سيأتي قريباً ويذهب أبو عبيدة وغيره إلى أن الكلمة هي الكتاب من الله وذهب بعضهم إلى أن "بكلمة من الله" متعلق بقوله "ييشرك" - على معنى البشارة بيحيى مصدقاً وسيداً وحصوراً إنما هي وعد من الله والله لا يخلف الميعاد" <sup>(١)</sup> هذه واحدة من قانون سعة النص للوجوه المختلفة.

### ﴿وَسَيِّدًا﴾

ساد يسود فهو سيد فمن ساد على قومه أخلاقاً أو ديناً أو.. أو فهو سيد وكل ما ورد عن السلف في تفسير السيد إنما هو من باب ضرب المثل فالحليم الذي لا يركبه الغضب سيد والذي يقود المؤمنين إلى الخير سيد والعالم النافع بعلمه هو سيد فلا يختلف مفهوم السيادة وإنما الخلاف في أي شيء يسود.

### ﴿وَحَصُورًا﴾

الحصر في اللغة الحبس مطلقاً فكاتم السر حصور والضيق البخيل حصور والذي تتحبس طبيعته حصور وهلم جراً. يتفق أغلبية المفسرين أن يحيى كان حصوراً عن النساء إما لعدم وجد الدافع وإما تعففاً وزهداً.

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٣١. التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢١١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأحسب أن يحيى كان حضوراً لا لوجود عيب في جهازه وإنما لعدم ميله إلى النساء أصلاً حاله حال مريم جهازها سليم بدليل حملها بعيسى عليه السلام ولكنها لا تجد الرغبة في معاشره الرجال، وفي خلق يحيى على هذه الصفة سر من أسرار الله في الخلق فقد دعا زكريا ربه بالولد وكانت جميع حواسه متشعبة بمريم ومكانتها فجاء يحيى على صورتها وقد تجد في تجارب الناس في كل جيل شواهد على ذلك أي على مجيء المولود على الصورة التي في نفس الأبوين والله أعلم، ويحكى أن الحكماء السابقين كانوا يضعون صور الرجال العظماء في غرف نومهم ليتشبع من الصورة خيال الزوجين فيأتي المولود مشابهاً لصاحب الصورة<sup>(١)</sup>.

### (وَنَبِيًّا مِّنَ الْمَكِّيِّينَ)

النبي من الإنبياء فالظاهر أن يقال له: مُنبأ ولكن كثرة الاستعمال جعلت العرب تحذف الميم وتتنطق بالهمزة ياءً وقيل أن النبي مأخوذ من نبو ينبو أي ابتعد وذلك لأن النبي يبتعد عن أعراف وتقاليد قومه فيما يخالف دينه.

### (مِّنَ الْمَكِّيِّينَ)

أي نبياً كائناً من جماعة الصالحين فالأنبياء كلهم صالحون وهو واحد منهم كما تقول مدرس من المدرسين ونجار من النجارين وذلك لأنه لا يكون نبياً إلا صالحاً.

(قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَّغَنِي الْكِبَرَ وَأَمْرًا قِيًّا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

### يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

(١) انظر حياة الحيوان للدميري ج: ١/ص: ٤٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿أَنْ يَكُونَ لِي غُلَامٌ﴾

أنى: كيف وهو موقف بشري من زكريا عليه السلام لازال يعيش مع سؤاله الأول: أنى لك هذا ثم يقدم "لي" على "غلام" فكأنه يستبعد أن يكون لمثله غلام "أنى يكون لي غلام" سأل زكريا هذا السؤال مع العلم أنه هو الذي دعا ربه أن يهب له ذرية إنها صدمة المفاجئة هو قائم يصلي مستغرق في عبادته ويسمع النداء بالبشرى يمكن القول إن الملائكة لو جاؤوا إليه وذكروه بدعائه على هون وتؤدة لما قال ما قال: هذا احتمال في مفهوم النص قد يتبادر إلى ذهن الولوع بفن التحليل.

### ﴿وَقَدْ بَلَغَى الْكِبَرَ﴾

الكبر: مصدر كبر يكبر إذا أسنَّ يقال إنه عند البشارة كان عمره مائة وعشرون عاماً وكانت امرأته تناهز المائة عاماً من عمرها<sup>(١)</sup>.

### ﴿بَلَغَى الْكِبَرَ﴾

كقولهم: أدركته السن العالية والمعنى: أتر في الكبر فأضعفني<sup>(٢)</sup> وقال الرازي: كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك وكلما جاز أن يقال: بلغت الكبر جاز أن يقال: بلغني الكبر يدل عليه قول العرب: لقيت الحائط وتلقاني الحائط<sup>(٣)</sup>.

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢١٤.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٨.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢١٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وكل إنسان يحب الهروب من الكبر وأسبابه ولا يصح أن يطلب إنسان الكبر بل هو يخاف منه ومن أماراته فكان التعبير بهذه الصيغة "بلغني الكبر" أكثر دقة وصدقاً في التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه فكأنه هارب من الكبر فبلغه مع كراهته له.

### ﴿وَأَمْرًآٓٓ عَاقِرٌ﴾

العاقرة: المرأة التي لا تحبل ورجل عاقر أيضاً أي لا يولد له كذا في المختار<sup>(١)</sup> ولكن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة عاقر إلا في المرأة واستخدم للرجل كلمة عقيم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَخْلُقْ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ اِنثٰثًا وَّيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوْرَ ﴿٥١﴾ اَوْ يَزُوْجُهُمْ ذَكَرًا وَاِنثٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيْمًا اِنَّهٗ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ﴾<sup>(٢)</sup> واسم الموصول الذي وإن كان صالحاً للذكور والإناث إلا أن السياق يدل على أن الحديث عن الرجال لا عن النساء.

### ﴿كَذٰلِكَ اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

أي قال الرب ﷻ لأنه هو المذكور في قوله: "قال رب أنى يكون لي غلام".

قال في الكشاف: "كذلك: أي يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر أو: كذلك الله: مبتدأ

(١) مختار الصحاح ص: ١٨٩.

(٢) الشورى: ٤٩-٥٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وخبر: أي على نحو هذه الصفة الله ويفعل ما يشاء بيان له أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات<sup>(١)</sup>.

### (فَعَلُ مَا يَشَاءُ)

ليس في الآية نفي مشيئة غير الله وذلك لأن إثبات القدرة على المشيئة للعبد قد شاءها الخالق ﷻ واحتمال التعارض غير وارد أصلاً لأن مشيئة الخالق قادرة على إيقاف مشيئة العبد فكيف يفترض التعارض بين الخالق والمخلوق.

( قَالَ رَبِّ أِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرًا قِيًّا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

### يَفَعَلُ مَا يَشَاءُ )

### (أَجْمَلِي)

هذا طلب زكريا من ربه ﷻ لأن البشارة بالولد كانت متصلة بالدعاء يدل على ذلك العطف بالفاء في قوله تعالى: "فنادته الملائكة" إذن هو لا يعلم متى سيكون علوق زوجته بهذا الولد وهو عليه السلام لشدة رغبته في الولد وسروره به طلب من ربه أن يجعل له علامة على حصول العلوق لأنه أمر مستقبل لا يدري متى يقع هذا ما يدل عليه النص، والشروء إلى الظن بزكريا ما لا يليق بالأنبياء ليس من شأن علماء المسلمين في شيء بل ذلك طبع اليهود وأحبارهم<sup>(٢)</sup>.

والآية: العلامة وما طلبه زكريا عليه السلام شبيه بما جعل الله لموسى عليه السلام من العلامة على مكان اللقاء بالرجل الصالح حيث كانت علامته ما

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٢٨.

(٢) أنظر البحر المحيط ج ٣/ص ١٣٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كان من شأن الحوت الذي كان معداً للطعام فإذا هو يسلك طريقه في البحر مستقبلاً بمستقبل وعلامة بعلامة .

### ﴿ قَالَ مَا يَتَكَلَّمُ النَّاسُ ﴾

آيته عليه السلام أن يجد نفسه في يوم من الأيام لا يدري متى هو وقد حبس لسانه عن الكلام مع الناس هذا كل ما يدل عليه النص وليس فيه أن سبب الحبسة عيب وليس في النص أيضاً أنه يؤمر بعدم الكلام فيكون الأمر علامة علوق الحمل، إن النص واضح مكشوف " أن لا تكلم الناس " قال في الكشاف: " آية: أي علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر قال آيتك: أن لا تقدر على تكليم الناس (١) " .

### ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾

يطلق اليوم ويراد به النهار خاصة ومنه قوله تعالى " سبع ليالٍ وثمانية أيام (٢) " وجاءت الثلاثة هنا مسماة بالأيام وفي سورة مريم ثلاث ليالٍ فدللت الأيتان على أن المقصود بالأيام ما يشمل لياليها وكذلك تستعمله العرب في لسانها .

### ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِرْمَازًا ﴾

الرمز: الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصل الرمز التحرك يقال: ارتمز إذا تحرك ومنه قيل للبحر: الراموز ذكر ذلك الزمخشري (٣) ثم قال: فإن قلت:

(١) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٨ .

(٢) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٩ .

(٣) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٩ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الرمز ليس من جنس الكلام فكيف أستنتي منه ؟ قلت: لما أدى مؤدي الكلام وفهم منه ما يفهم منه سُمي كلاماً ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ كَثِيرًا﴾

الواو تحتل وجهين:

**الأول:** أن تكون استثناءً فلا علاقة بينها وبين ما قبلها إلا من حيث ذكر جملة بعد جملة أو خبر بعد خبر وهذا هو ظاهر النص فالآية شيء والأمر بالذكر شيء آخر.

**الثاني:** أن قوله "وأذكر ربك" داخل في جملة الآية وكأن آية زكريا تكون بوجهين حبس لسانه عن الكلام العادي [مع الناس] مع بقائه مطلقاً بالذكر<sup>(٢)</sup>.

وهو وجه متكلف ضعيف لأن إطلاق لسانه بالذكر جاء بصيغة الأمر لا بصيغة الخبر فلم يقل القرآن: وأن تذكر ربك أو: وذكر ربك أو: وإلا ذكر ربك فزكريا أمر بذكر ربه والأمر يتعلق بالمأمور من حين صدوره وبلاغ المأمور به إليه. ثم يقال أيضاً: إن دلالة الفعل على الحدث من باب دلالة المطلق فيصدق بالإتيان بفرد من أفراده والذكر القلبي واحد منه فلا داعي لاستثنائه أصلاً.

### ﴿وَسَبِّحْ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾

التسبيح: التنزيه ولما كان التنزيه لا يليق إلا بالله لم يقل: وسبح الله اكتفاءً بالقريفة العقلية عليه.

(١) الكشاف ج ١ / ص ٤٢٩ .

(٢) الكشاف: ج ١ / ص ٤٢٨-٤٢٩ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿سَبَّحَ﴾

فعل أمر من سَبَّحَ المضعف تقول: سَبَّحَ زيد عمرواً إذا أفاض عليه الماء، وإنما سميت إفاضة الماء من شخص على شخص تسيباً لأن الماء ينزه الإنسان إذا أفيض عليه من الأوساخ، فالمسَّبَّحُ لله كأنه يزيل ما علق به من أخطاء في جنب الله فهو سَبَّحَ نفسه لله لأن الله هو السَّبُّوحُ فليس بحاجة إلى تسيبٍ من جانبنا بل لا يعقل ذلك فالعبد يسبح نفسه لله ويسبح بحمد الله وإذا سبح الله فإنما يسبحه عما توهمه هو في جنب خالقه.

### ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

قال في الكشاف: العشي من حين نزول الشمس إلى أن تغيب والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى<sup>(١)</sup>، والباء في "بالعشي" للملابسة أي سبح لله إذا لابست العشي والإبكار أو بمعنى في أي في العشي والإبكار، والتسيب ذكر خاص وهو وارد في اللسان وفي القلب وفيهما جميعاً فلا داعي إلى اعتباره مستثنى من الكلام لأن التسيب القلبى لا يسمى كلاماً والله أعلم

(١) الكشاف: ج ١/ ص ٤٢٩ .



## الفصل الحادي عشر

في قبضة مريم عليها السلام



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### الفصل الحادي عشر

#### في قصة مريم عليها السلام

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنْهُمْ يَكْفُرُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٤٢ - ٤٧

قبل الدخول في التحليل لقصة مريم أود أن أنبه على أمر قد يغفل عنه القارئ في زحمة سرد الآيات وتحليلها وهذا الأمر نجمه فيما يأتي :

هناك فارق كبير بين قصة أم مريم من جهة وقصة زكريا ومريم من جهة أخرى الحديث في قصة أم مريم كان حديثاً إخبارياً فقط لا يوجد فيه أي نوع من المحادثة والتخاطب يخبر عنها القرآن أنها نذرت نذرهما وتقبله الله منها هذا الموقف ليس فيه شيء من الخصوصية ويمكن أن يقع مثله من كثير من الناس حتى تقبل الله تعالى لنذرهما كان صيغة إخبارية لا غير، بينما يتغير الموقف في سرد قصتي زكريا ومريم فكان على طريق المحادثة الصريحة فالملائكة تنادي زكريا وتخاطب مريم وتنقل اليهما البشارة من الله ﷻ بل يطول الحديث مع مريم حتى تخبرها بالاصطفاء وتأمرها بالعبادة على ما تعرفه من دينها، كان زكريا نبياً من الأنبياء

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ومحادثة الملائكة مع الأنبياء أمر تقتضيه نبوتهم فالوحي من الله هذا واحد من طرقه المعتادة ولكن الإشكال في مريم كيف تحادثها الملائكة؟ وكيف تنقل لها أوامر بالقنوت والسجود والركوع؟ ثم كيف توجه إليها البشارة ببعسى ويذكر لها اسمه ومكانته وأحواله في مهده وفي كهولته؟ ثم لماذا المناداة لزكريا والمخاطبة لمريم؟ والمذهل حقاً قول مريم لربها مباشرة أنى يكون لي ولد واجابتها بقوله: قال كذلك الله من الذي أجابها؟ من المسؤول؟ ومن المجيب؟!!

ألا ترى أن التواصل في المحادثة كان مع مريم أكثر منه مع زكريا وهو نبي؟! إنها مواقف تدعو لإعادة النظر في كثير من معارفنا وما درجنا عليه وكأنه من المسلمات البديهية، هذا ما رغبت التنبيه إليه ولنعد إلى مسيرة التحليل للنصوص والله الموفق.

### (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ)

التقدير: واذكر إذ قالت و"إذ" تأتي للدلالة على الماضي بخلاف "إذا" فإنها دالة على المستقبل.

والنص واضح الدلالة أن الملائكة خاطبت مريم وهي ليست نبيّة والقول بأن خطاب الملائكة لمريم كان معجزة لزكريا أو أنه كان إرهاباً لعيسى لا يجدي شيئاً<sup>(١)</sup> فالمهم أن الملائكة خاطبت غير نبي وهو ما ينكره الكثير من الناس.

ثم أنت ترى النصوص كيف ميزت مريم بهذا الخطاب على زكريا نفسه قال النص عن زكريا: "فنادته الملائكة" وعن مريم: "قالت الملائكة" والنداء لا يستلزم الرؤية للمنادي بينما المخاطبة إن لم تستلزم فهي تبعث في نفس السامع توهم

(١) انظر الكشف ج: ١/ص: ٤٢٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الرؤية على أقل تقدير .

﴿يَمْرُؤًا﴾

هذا التخصيص بذكر الإسم من جانب الملائكة لا يُقدَّر قدره والاعتزاز به إلا من يقع له مثله وأما الصم والموتى فأنى لهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾

بهذه الجملة الخبرية المؤكدة والمقطوع بصدقها من قبل المخبر والمخبر تبتدئ هذه المخاطبة اصطفاك وانتهى الأمر والاصطفاء هنا ذاتي لمريم اصطفاها لنفسه ﷺ أمر بتصفيتهما من له هذه التصفية من خلقه ملائكة وأحداث ومن لا نعلم الله يعلمهم .

﴿وَوَطَّهَّرَكِ﴾

يمكن حمل العطف هنا على أنه عطف لبيان الإصطفاء ويمكن أن الله وكل ما يقدر عليه عباده إلى عباده وما لا يقدر عليه العباد إليه ﷺ وهذا هو الفارق بين الصيغتين لما في افتعل من معنى الكسب<sup>(١)</sup> .

ممن اصطفاها؟ وطهرها من ماذا؟ اصطفاها وطهرها ربها وكفى به اصطفاً وتطهيراً .

﴿وَأَمْطَفَكِ عَلَى نِسَاءِ الْمَكَلِيمِ﴾

هذا اصطفاً نسبي وهل الاصطفاء الذاتي يتقدم على الاصطفاء النسبي أو العكس هو الصحيح الجاري في تسلسل الحدث؟ أحسب أن الإصطفاء الثاني هو الأول وقوعاً اختارها من بين بنات جنسها ثم عمل فيها الإصطفاء والتطهير بعد

(١) انظر التفسير الكبير في التفريق بين الإصطفاءين أيضاً ج: ٣/ص: ٢١٧ - ٢١٨ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ذلك وقدم الثاني على الأول في البشارة لأنه أعلى من الأول في باب البشارة والعطف بالواو لا يعارض ذلك لأنه لمطلق الجمع فقط.

﴿ يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

إعادة الخطاب بالإسم لمريم عليها السلام لإشعارها بما لها من المكانة الرفيعة عندهم ولو لا ذلك لأمكن العطف بدون إعادة الخطاب بالإسم صراحة.

﴿ أَقْنِي لِرَبِّكَ ﴾

القنوت أصله الطاعة<sup>(١)</sup> ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالْقَائِنِينَ وَالْقَائِنَاتِ ﴾<sup>(٢)</sup> ثم سمي القيام في الصلاة قنوتاً، وقد اختلفت كلمة السلف في المراد بالقنوت في هذه الآية فالحسن وقتادة يقولان: العبادة، ومجاهد وابن جريج والربيع على أنه: طول القيام في الصلاة، وابن جبير يتردد قوله بين الطاعة والإخلاص. وأنت ترى أن القنوت هنا تعدى باللام فيجب مراعاة هذه اللام عند اختيار واحد أو أكثر من معاني هذه الكلمة فلو قلنا: أقنتي بمعنى أطيعي لزم أن لا تذكر اللام لأنه يصح أن نقول: أطيعي ربك بدون اللام ومثل الطاعة العبادة فيما لو قلنا: أعبدني لربك لما جاز ذكر اللام إلا على تأويل معنى الإخلاص في العبادة أما لو قلنا: أن المراد بالقنوت هنا طول القيام في العبادة أو أن معنى القنوت الإخلاص فلا نحتاج إلى تقدير ولا تأويل وهذا هو الراجح فيما أحسب.

وإنما ذكرت اختلاف السلف في تفسير "أقنتي" للتنبية على أهمية ملاحظة الأدوات في اللسان العربي عموماً وفي القرآن الكريم خصوصاً فإن القاعدة في

(١) مختار الصحاح ص: ٢٣٢.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

اللسان العربي أن الفعل إذا ضَمَّنَ معنى فعل آخر عُدِّي تعديته مثل: توكلت على الله أي اعتمدت على الله لأن توكلت بمعنى الوكالة تتعدى بعن نقول: توكلت عن فلان في كذا وهكذا في بقية الأفعال والحروف.

### (وَأَسْجُدْ وَازْكُوعٍ مَعَ الرَّكْعَيْنِ)

يخيل إليك وأنت تقرأ هذه الآية وكأن صلاة مريم مثل صلاتنا ركوع وسجود بعد القيام، وليس في صلاة اليهود اليوم ركوع ولا سجود فهل كانت صلاتهم مثل صلاتنا فحرفوها وغيروها كما حرفوا وغيروا غيرها أم المقصود بالركوع والسجود في الآية معانيها اللغوية؟ الله أعلم بذلك ولا نحب الخوض فيه بدون برهان بين.

والسجود معناه في اللغة: الخضوع<sup>(١)</sup> وأما الركوع فمعناه: الانحناء يقال للشيخ: ركع إذا انحنى.

### (مَعَ الرَّكْعَيْنِ)

إن مريم قد أخذت من دون الناس حجاباً وهي في مكانها الشرقي في محرابها تتعبد وتنتبل إلى الله فما معنى "مع الراكعين"؟ تكلف أبو حيان في تأويل هذا الحرف كثيراً وساق أقوالاً في تفسير صلاة مريم ومجيئها على صورة صلاتنا في الإسلام وأوصلته الأقوال ليذكر أن "مع الراكعين" كانت أمراً لها بصلاة الجماعة ثم قال رحمه الله: "ويحتمل أن يتجاوز في "مع" فتكون للموافقة للفعل فقط دون اجتماع أي افعلي كفعلهم" ثم قال رحمه الله: "وجاء مع الراكعين دون الراكعات

(١) مختار الصحاح ص: ١٢٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لأن هذا الجمع أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب<sup>(١)</sup>.  
وحتى تكتمل صورة التحليل لهذه الآية من حيث المضمون بعد أن سردنا  
ما أمكننا في تحليل ألفاظها لنسأل هذا السؤال:

ما معنى توجيه هذه الأوامر من الملائكة لمريم مع عدم نبوتها؟  
ألم يكن خطاب الملائكة للإنسان بمثل هذه الأمور اقنيتي؛ اسجدي؛ اركعي  
نوعاً من أنواع الوحي؟ هل يصل غير الأنبياء والمرسلين من أتباعهم إلى أن  
تخاطبهم ملائكة الله أمراً أو نهياً بما يتوافق مع الدين الذي يتبعوه؟ أحسب أن هذا  
هو الراجح ولكن سمَّ هذه الأوامر ما شئت أو امر؛ نصائح؛ دلالة على الخير؛ إن  
المعنى لا يتغير إن الآية تتحدث عن ظاهرة وليس عن احتمال، إنها حقيقة ينطق  
بها القرآن فما معنى ذلك؟ إن تحليل مثل هذه الظواهر يساهم في إرساء قواعد قد  
نحتاج إليها ونحن نقرأ عن أخبار سلفنا الصالح عليهم السلام.

إن الكثير من الناس اليوم إن لم ينكروا مثل هذه الظاهرة يحاولون أن  
يبتعدوا عنها ولا يسمحون لها أن تتحاور مع عقولهم وقلوبهم إنهم يحاولون  
إقصاءها عن دائرة تفكيرهم وأنى لهم والقرآن الكريم يقرع بها أسماعهم  
وقلوبهم؟!..

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ

مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

في هذه الآية التفات في الخطاب إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ذَٰلِكَ ﴾

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٤٨ - ١٤٩.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الإشارة إلى ما تقدم من أحداث وأخبار: قصة أم مريم وقصة زكريا وقصة مريم وقد عمد القرآن إلى أن يسرد عليهم من الأحداث والأخبار ما لا يعلمه إلا العلماء في دينهم والتي منها ما يتعلق بالجانب الشخصي لصاحب الحدث مثل أسف أم مريم على كون مريم أنثى وعلى دعائها لها ومثل النص على السبب الباعث لذكرها حين دعا ربه بالولد إلى سماع البشرى عن بُعد من الملائكة وهو قائم يصلي ومثل طلبه للآية وعدم قدرته على الكلام ومثل الحديث مع مريم وإخبارها بأن الله اصطفاه وطهرها وميزها على نساء العالمين ومثل تلقائها الأمر بعبادة ربه من الملائكة وهي ليست نبيهة ولا مرسله هذه الوقائع والأحداث من أنباء الغيب لا يعلمها كعلمك إلا من كان حاضراً شاهداً على ما جرى.

### ﴿مَنْ أَنْبَأَ الْغَيْبَ تُوْحِيدِ إِلَيْكَ﴾

من أنباء الغيب وليس كلها إن الباب لا يزال مفتوحاً وقد ذكرنا فيما مضى التفريق بين النبأ والخبر فارجع إليه إن شئت.

### ﴿الْغَيْبِ﴾

غاب يغيب غيباً والغيب ما غاب عنك سواء كان الغائب يمكن الإطلاع عليه ومشاهدته وذلك ما يسمونه بالغيب النسبي لأن من يشاهده فليس غيباً في حقه ومن لا يشاهده فهو غيب في حقه أو كان الغائب عن الحس لا يمكن مشاهدته كذات الباري ﷻ وكالمعدوم الذي ما يزال في طي العدم وهذا من الغيب الحقيقي، والغيب الذي يتحدث عنه القرآن إنما هو الغيب النسبي لأنه كان شاهداً لمعاصريه ممن حضر وقوع الأحداث أو لصاحب الحدث على أقل تقدير.

و"أل" في الغيب للجنس أي ذلك الذي ذكرناه لك من أنباء جنس الغيب الذي لا تعرفه ولم تكن شاهداً له.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (نُوحٍ إِلَيْكَ)

الوحي: الكتاب والإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما القيته إلى غيرك يقال: وحي إليه الكلام يحيه وحيًا وأوحى إليه: أن يكلمه بكلام يخيفه<sup>(١)</sup>.

نوحيه: أي نوحى الغيب فالضمير يعود إلى الأقرب واستعمال الفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار كأنه يقول لنبيه محمد ﷺ إن هذه سنتنا لا تتقطع ولا تتغير أي أن الإنباء بالغيب سيستمر بدون انقطاع. ولو كانت الصيغة: ذلك من أنباء الغيب إليك نوحيه، لأقلل باب الإنباء بالغيب سابقاً ولاحقاً ولكن الله أرحم.

وفي كتاب مدارج السالكين في الجزء الثاني من باب الفراسة ينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية إخباره بخروج التتار في المرة الثانية قبل أن يهملوا بالخروج وأنه كان يقسم على أن النصر في هذه المرة للمسلمين على التتار وكان الناس يقولون لشيخ الإسلام قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، يقول ابن القيم رحمه الله فلما أكثرنا عليه قال: والله إن الله قد كتب في اللوح المحفوظ أن النصر في هذه المرة للمسلمين<sup>(٢)</sup> فارجع إليه ترى العجب، وليس هذا من باب الرأي الذي يعتريه الصواب والخطأ ولكنه من باب الخبر الذي يعتريه الصدق والكذب ولم يطعن أحد ابن تيمية بالكذب من أعدائه فضلاً عن المعتقدين به.

(١) مختار الصحاح ص: ٢٩٧.

(٢) مدارج السالكين ج: ٢/ص: ٥١٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

يَخْتَصِمُونَ﴾

إنما جاءت لديهم للدلالة على أن هذا الأمر من خواص عليّة القوم ولهذا لا يمكن أن يسمح بالاطلاع عليه لعامة الناس وذلك لأن "لدى" أخص من "عند" لأن "لدى" لغة في لدن وقد مر بنا الكلام على أخصية "لدن" على "عند" (١).

﴿إِذْ يَقُولُ﴾

أي حين عملوا القرعة وكانت قرعتهم أن يلقوا أقلامهم في الماء فما خرج على سطح الماء فالذي اقترحوا عليه لصاحب ذلك القلم، والنص ليس فيه هذا التفصيل أو هذه الصورة لأن مطلق الإلقاء لا يستلزم الطرح في الماء وكذلك معرفة من له القرعة فيمكن أن تكون بأي علامة أخرى والبقاء مع النص في دلالاته أسلم من الإنحراف فقد يسيء ولا يحسن والله أعلم.

﴿أَيْهَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾

كانت مريم بنت زعيمهم على ما يذكر المفسرون ولهذا كانوا يتنافسون على كفالتها.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

هذه الجملة تفسير للجملة التي قبلها فاختصموا أي طلب كل واحد أن يخصم أي يغلب خصمه عن طريق القرعة فاختصم غير خاصم.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) انظر ص: ٢٢ من هذا الكتاب.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الجزء الأول من الآية مر تحليله إلى "إن الله يبشرك" فارجع إليه ان شئت<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾

قال أبو حيان: "تَقَدَّمَ تَكْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ قَبْلَ هَذَا التَّبَشِيرِ بِذِكْرِ الْإِصْطِفَاءِ وَالتَّطَهِيرِ مِنَ اللَّهِ وَبِالْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ لَهُ عِلَالَةً إِنَّمَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ التَّأْنِيسِ وَاللِّطْفِ بِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَقْدَمَةً لِهَذَا التَّبَشِيرِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَمْ يَجْرَ لِمَرْأَةٍ قَبْلُهَا وَلَا يَجْرِي لِمَرْأَةٍ بَعْدَهَا وَهُوَ أَنْ تَحْمَلَ مِنْ غَيْرِ مَسْ نَكَرَ لَهَا وَكَانَ قَبْلَ هَذَا قَدْ جَرَى لَهَا خَارِقٌ آخَرَ وَهُوَ الرِّزْقُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كُلِّ هَذَا كَانَ تَأْنِيسًا لَهَا لِاسْتِقْبَالِ هَذِهِ الْبَشْرَى"<sup>(٢)</sup>.

وهذه سنة من سنن الله مع الأنبياء والمرسلين ومع عباده الصالحين لا يفجؤهم بأمر يصعب عليهم استقباله إلا بعد أن يقدم بين يدي ذلك إرهاباً وتأنيساً. وهل كان استقبال مثل هذا النبأ من قبل مريم بشارة أم تكليفاً؟ وكيف استقبلت هذا النبأ بشارة؟ وما هذه السكينة الإيمانية التي جعلتها تستقبل مثل هذا الأمر بالسؤال فقط وبهذا الأسلوب الهادئ "رب أنى يكون لي ولد..." كلما تعمقت في تحليل الموقف ازددت معرفة بمكانة مريم أولاً وبما يصنعه الإيمان ثانياً ولنعد مع مريم لنستقبل البشارة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾

(١) أنظر ص: ١١٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر البحر المحيط ج ٣ ص: ١٥٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الكلمة من الله هو عيسى عليه السلام وإنما سمي كلمة لأنه وجد عن الكلمة كن بدون الأسباب المعتادة وقيل أن الله سماه كلمة لأن الله وعد اليهود به في التوراة والوعد كلمة في عرف الناس حتى أنهم يصفون الذي لا يفي بوعدته أنه ليس له كلمة وقيل غير ذلك<sup>(١)</sup>.

### ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

الضمير في "اسمه" عائد إلى المبشر به في قوله "كلمة منه" وإنما أعاد بالتذكير والكلمة لفظها مؤنث باعتبار المعنى.

وأما قوله "المسيح عيسى" فقد أكثر المفسرون في أصل كلمة المسيح وهل هو عبراني مترجم أم حاله حال أسماء الأعلام التي نقلت نصاً بحروفها كيوסף وإسماعيل وغيرهما وهو بحث لا نحب أن نلهو به وليس له مكان في باب التحليل الذي ينتفع به الطالب أو يعود إلى أمته منه بفائدة مع أننا لا نستبعد أن الصفات الشبيهة بالأعلام قد نقلت نصاً.

### ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾

لولا هذه الكلمة "ابن مريم" لأمكن لمريم أن تذهب كل مذهب في تأويل ما بُشِّرَتْ به كأن تُعطى طفلاً من أحد الأدميين أو تجده في مكان أو تؤتى به كما في قصة موسى لامرأة فرعون أو كذا أو كذا أو بافتراض خلقه خلقاً جديداً كأدم عليه السلام أو خروجه من أحد أعضائها كما قيل عن حواء عليها السلام، كان باب التوهم أمام مريم واسعاً لو لم تأت هذه الكلمة والكلمة الواحدة وضعت مريم أمام الحقيقة وجهاً لوجه إنه ابنها.

(١) انظر البحر المحيط ج ٣ /ص: ١٥٢. والتفسير الكبير: ج ٣ /ص: ٢٢١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

هذه واحدة من الأخبار التي سيقت لتهدئة مريم والتقليل من مخاوفها من هذا الحدث أولاً على نفسها وثانياً على مصير هذا المولود وسماعته في مجتمعه فكأنه يقول لها: لا تخافي على نفسك وسمعتك ولا على المولود وسماعته إنه سيكون وجيهاً في الدنيا ووجيهاً في الآخرة فلا يأخذ الأسى منك مأخذاً. والوجيه: صاحب الجاه في قومه المحبوب إلى قلوبهم المقبول عندهم الذي يقوم في الناس مقام الوجه من الإنسان<sup>(١)</sup>.

### ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

مقدم على قومه في الدنيا ومقدم عليهم في الآخرة يحتاجونه ولا يحتاجهم في الدارين.

### ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

الذين يخاطبونها هم الملائكة وإنما هم في هذه المخاطبة رسل من الله إليها "ان الله يبشرك" فإذا كان الله هو المخبر على لسان رسله كان معنى "من المقربين" المقربين من الله أو إلى الله وهذه الجملة الثانية من الجمل التي سيقت من أجل بعث الطمأنينة في نفس مريم، إذن عيسى عليه السلام مقرب اسم مفعول، اختصه بهذا التقريب كما اختص من قبله الأنبياء والمرسلين حيث جعلهم مخلصين ومقربين كل هذا باختصاص من الله لهم وليس من فعلهم ولا كسبهم، إن الله قريب من جميع خلقه ﴿وَمَنْ أَرْبَبُ إِلَهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>(٢)</sup> ولكن المهم أن تكون أنت قريباً منه إن الله يحب

(١) انظر البحر المحيط ج ٣/ص: ١٥٤.

(٢) سورة ق: ١٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

خلقه ويحب لهم ما يسعدهم ولكنهم يهربون منه ويكفيك أنك لا تتقرب إليه إلا تقرب إليك ضعف ما تتقرب وهذا لأن الله تعالى "وله المثل الأعلى" عندما تتقرب إليه شبراً يتقرب إليك مثله فقد تقرب إليك أي صار قريباً منك شبرين عما كنت عليه معه، وكلما غصت في تحليل هذه الكلمة "ومن المقربين" كان بيدك من النور أكثر.

### ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾

هذه إخبارية ثالثة عن المولود الذي لا يزال في طي العدم وقوله "في المهد" في موضع حال أي حال كونه في المهد والمهد: مقر الصبي في رضاعه تقول: مهدت لنفسي بتخفيف الهاء وتشديدها أي أعددت ووطأت<sup>(١)</sup>.

كانت الجملتان السابقتان تخبر عن مكانة المولود عند الله وعند الناس وهي أخبار يمكن للمعاند أن ينكرها أو يتنكر لها وأما الجملة الثالثة فسوف لن تترك قولاً لمنقول: إن المولود الجديد هو الذي سوف يعلن عن نفسه ويشهد لأمه، وفي هذا شد لعزيمة مريم وانتزاع لعوامل الخوف التي تنتظرها "ويكلم الناس" هو شاهد فعلاً.

### ﴿وَكَهلاً﴾

أي يكلم الناس في الحاليين؛ يوم يكون في المهد ويوم يكون كهلاً وهذه الحال فيها دعم لمعنوية مريم عليها السلام فابن مريم سوف يعيش إلى أن يصبح كهلاً فالكلمة مع أدائها لحالية الكلام في الكهولة تستلزم بقاءه حياً إلى أن يصل إلى هذه الحال.

(١) البحر المحيط ج ٣/ص: ١٥٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

قال أبو حيان: "عطف "ويكلم" وهو حال أيضاً على "وجيهاً" ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوْلَتْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِيضْنَ﴾<sup>(١)</sup> أي وقابضات وكذلك: ويكلم أي ومكلماً. ثم قال: "وأتى في الحال الأول بالإسم "وجيهاً" والحال الثانية بالجار والمجرور "من المقربين" والحال الثالثة جملة فعلية "يكلم" وذلك هو التسلسل الرتبي في كلام العرب إذا ذكروا أحوالاً متعددة أو نعوتاً متعددة مثل قوله تعالى: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه"<sup>(٢)</sup> وإنما جاء بالحال الأخير فعلاً مضارعاً مع فاعله ليدل على أن الكلام سوف يتجدد كلما دعت الحاجة<sup>(٣)</sup> وهي دلالة لفظية لا يجوز العدول عنها بدون مسوغ.

### ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

أي صالحاً من الصالحين وهي الجملة الخبرية الأخيرة في سياق بعث الطمأنينة في نفس مريم، والصالح أن يكون المرء في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصح وذلك لأن من يفعل أمراً وغيره خيراً منه مع علمه به وقدرته على فعل الأصح لا يسمى صالحاً<sup>(٤)</sup> فالصالح من فعل الأصح في الدنيا والدين ظاهراً وباطناً ولهذا ختم الله سبحانه كل مميزات عيسى عليه السلام بقوله "ومن الصالحين" ولن يكون الإنسان صالحاً للدنيا وللآخرة إلا إذا بلغ الكمال النسبي

(١) الملك : ١٩ .

(٢) غافر : ٢٨ .

(٣) انظر البحر المحيط ج ٣/ص: ١٥٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير ج ٣/ص: ٢٢٥ - ٢٢٦ .



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الذي يمكن أن يصل إليه المخلوق والتسمية بالصالحين قد تعطي ذلك فلا يسمي الناس شخصاً أو جماعة بلقب ما لم يتكرر ذلك منهم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

يقف المحلل في مثل هذه النصوص ليتحاور معها إن هيكلية النص وجود حي يمكن للباحث أن يتحاور معه فيلقي عليه ويسمع منه.

قال زكريا بعد البشارة بيحيى "رب أنى يكون لي" وقالت مريم نفس الكلمة مع العلم أن البشارة كانت عن طريق الملائكة نداءً لزكريا ومخاطبة لمريم ونريد أن نسأل: لماذا ترك الإثنان الحديث مع الملائكة وانصرفا عنها وباشرا الحديث مع الله؟ وإذا قلنا أن زكريا نبي ثبت له الوحي فماذا نقول في مريم؟ ثم لما أجاب الحق مريم بعد أن سألته "أنى يكون لي" كيف تلقت الخطاب من الحق: "كذلك الله يخلق ما يشاء" ثم لماذا أطل الحق ﷺ الحديث مع مريم: "إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون"؟ من كانت تخاطب مريم؟ وكيف سمعت الجواب؟

إن أكثر الناس ولحد الآن يخاف حتى من طرح أسئلة مثل هذه على النص ليتحاور معه، "قالت أنى يكون لي ولد" وزكريا: "أنى يكون لي غلام" من اليسير أن ندرك السر في اختلاف الكلمتين على لسان زكريا ومريم زكريا رجل وطموحه أن ينظر إلى ولده غلاماً يافعاً يزيل عنه وحشة الفناء بعد أن يسجل ابنه له كرامة الخلود أما مريم فإنها لا تفكر بشيء إلا في إمكانية الولادة والمولود ولهذا سألت كيف يكون لها ولد.

﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾

لا نريد أن نقف مع المس فإن ذلك معروف لدى الجميع ولكن نريد أن

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

نسأل لماذا جاء النص على "بشر" وهل هناك احتمال أن جبريل عليه السلام بعد أن تمثل لها بشراً سويّاً ونفخ فيها توهمت أن تلك في حكم المساس من جبريل وهذا ما استدعاها القول" ولم يمسنني بشر" على توهم منها أن جبريل مسها بالنفخ؟ أحسب أن هذا احتمال قائم ولا يخدش كرامة مريم عليها السلام مع ما له من تلييد في ظاهر النص وتستطيع القول أن هذا الإحتمال والسعي إلى إحدائه هو وراء مجيء النص على هذه الصورة ولم يأت مثلاً "ولم يمسنني أحد" مع العلم أن هذا التعبير هو الأقرب إلى ذهن المرأة وهو الأكثر شمولاً في التقى بل هو الأقرب لحالتها في خلوتها ولو سلمنا أن نفخ جبريل في مريم وفي فرجها بالذات على اختلاف العلماء في تأويل الفرج ما هو؟ قام مقام تفاح الرجل لمريم وأن تلك ممكنٌ فهل تستطيع أن نطمئن إلى تفسير الآية من سورة الرحمن في وصف حور الجنة بأنهن "لم يطمثن إنس قبلهن ولا جان" أن الجان فعلاً لهم القدرة على طمئ النساء أو الحور؟ مع العلم أن ففي المضارع يلم فيه رائحة إيمان الوقوع ولو سلمنا بهذا أيضاً فهل يمكن أن تحمل الآية "وشاركهم في الأموال والأولاد" على ما يقرب من هذا التأويل؟ ولو ثبت هذا فهل يجوز أن تحمل عليه الحديث الصحيح في التسمية عند الجماع؟ هذا حوار مع النص لا أكثر أرجو أن يوفق الله علماءنا أن يطرحوا وجهات نظرهم في مثل هذه المسائل فالخوف من الماضي وتقليد الماضين إن كان يقبل في باب فلن يقبل في تأويل القرآن الكريم وهو مائدة الله المفتوحة للجميع.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾

في قصة زكريا قال يفضل لأن الأسباب موجودة والناقص هو تشغيلها وإعمالها أما في قصة مريم فالسبب الظاهري ليس موجوداً فالحالة هنا أمام خلق لا فعل.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

(إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا)

قضى: حكم وقضى الأمر إذا انتهى منه وأتقنه.

(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ)

أي يقول للأمر الذي حكمه وانتهى منه وأتقنه.

(كُنْ فَيَكُونُ)

تتوجه كلمة كن إلى هذا الأمر بعد إتقانه وإحكامه فيكون أي فيوجد هو  
لقدرته على امتثال الأمر.

ولفهم هذا المقطع من الآية نذكر ما يأتي: إن لكل موجود ثلاث درجات

في الوجود:

أولاً: الوجود الذهني أو قل الخيالي فهذا الوجود سابق على كل الوجودات  
من حيث الترتيب في سلم التحقق الخارجي هذه التسمية بالنسبة للإنسان ويقابلها  
بالنسبة للخالق جلَّال الوجود العلمي فإن الله له العلم المحيط بما سيوجد قبل إيجادهم.

ثانياً: الوجود الكتابي ولا تقصد بالكتابي هنا الكتابة بالحرف مثل: زيد في  
دلالاتها على مسماها بل تقصد بالوجود الكتابي الصورة المطلقة للصورة الخيالية  
حرفاً أو هيكلًا.

ثالثاً: الوجود الخارجي وهو الوجود الحسي المدرك بأحد الحواس

الخاصة.

هذه الوجودات الثلاثة كما هي موجودة في علم الإنسان لها وجود في علم  
الله ولتضرب لذلك مثلاً بوضوح كيف تنتزل هذه الوجودات حتى تصبح حقيقة نراها  
بأعيننا فنقول: إنا أردت أن تنشئ داراً فأقول عمل تعمله هو إيجاد النار في الذهن  
أو في الخيال فتأخذ ريشتك الخيالية فتصور فيها في داخل النفس كل ما تريد إنشاءه

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

في هذه الدار من مرافق وطوابق ثم الأبواب والنوافذ ثم البلاط ونوعه ولونه إلى كل ما تريد إقامته على الأرض حقيقة، وإذا اكتملت الصورة الذهنية تأخذ ريشتك الأخرى في يدك لتصور على الورق كل ما تخيلته في ذهنك فإذا أكملت الوجودين متطابقين صورة ما على الورق وصورة ما في ذهنك لم يبق لك إلا أن تباشر المشروع فتوقعه على الأرض كما هو على الورق.

إن الله له المثل الأعلى ﷻ فقد نجد صورة متقاربة في الوجودين الأولين في إنشاء الله وإنشاء الإنسان لا بد وأن تكون صورة المعلوم الذي يشاء الله خلقه موجودة في علم الله وقد تكون صورة لهذا المعلوم في الكون لا نعلمها نحن في أم الكتاب أو في اللوح المحفوظ الله أعلم وإن كان هذا الوجود الثاني ليس ضرورياً بالنسبة لله تعالى فلو لا مخافة النسيان وصعوبة نقل الصورة الذهنية من شخص لآخر لما احتاج إليها الإنسان، بل يوجد من أهل الصنائع من ينتقل من الوجود الذهني إلى الإيجاد الخارجي بدون المرور بالوجود الكتابي، والفارق الكبير بين الخالق والمخلوق أن المخلوق لا بد أن يمر بمراحل الوجود الواحدة بعد الأخرى ويقيده الزمن والقدرة على الإنشاء، بينما الخالق ﷻ يقول للوجود العلمي كن فيكون خارجاً فإنه لا يحتاج إلى أسبابنا ولا التعمل للوجودات بخلاف الإنسان.

وفي الأعم الأغلب لا تجد اسماً لله عدا اسمي "الله والرحمن" ولا صفة ولا فعلاً إلا ويمكن أن تجد نموذجاً منه عند الإنسان، وما الإصابة بالعين إلا نموذج من النماذج القديمة للإنسان في نقل المعلوم إلى الواقع وأما اليوم فقد أصبحت مدارس تدرس قوة التخيل على الخلق والإبداع سواء في باب التأثير في الماديات أو في الشفاء من الأمراض إلى غير ذلك من أبواب العلوم الإنسانية، وإن شئت الاستئناس لما نقول فاقراً شروط الطبيب في زاد المعاد لابن قيم الجوزية رحمه الله تر ما

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يونسك<sup>(١)</sup> على أن في " فيكون " إشارة لقدرة المعلوم والمتخيل على الكينونة والوجود بالأمر وبذلك نختم قصة مريم لئن تقى بقصة ولبيها عيسى عليه السلام.



(١) زاد المعاد ص: ٧١١.



## الفصل الثاني عشر

في قرعة عيسى عليه السلام





## الفصل الثاني عشر

### في قصة عيسى عليه السلام

﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِنْ بَقِيَ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْرُسَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَنْزِلُ بِهِ الْبُسْبُوسَ وَالزُّبُرَّ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿٤٩﴾ وَمِمَّنْ أَلْمَنُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنَ اللَّهِ إِثْمًا وَأَلْفَ عَشْرَ كَلِمَاتٍ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذِهِ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ مِنْ الْوٰهِيينَ ﴿٥١﴾ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْغٰثِقِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذِهِ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْغٰثِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذِهِ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْغٰثِقِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذِهِ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْغٰثِقِينَ ﴿٥٥﴾

يعد هذا الفصل من أروع الفصول في القرآن الكريم التي تتحدث عن استعداد الإنسان لتلقي الكرم الإلهي وكثيراً ما نخطئ في التقدير عندما نستعفي البحث في القدرات الممنوحة للإنسان بحجة أن هذه معجزة أو هذه كرامة، إن العطاء الإلهي لا ينزل على فراغ فلو لم يخلق الله ﷻ الإنسان على استعداد خاص يمكنه به أن يتلقى العطاء لما استطاع أن يحمل ما يعطى هذه حقيقة غابت عن أفكارنا كثيراً ورحنا نسرد ما امتنَّ الله به على عباده الصالحين من أنبياء ومرسلين

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأولياء أحياناً وكان ذلك لا يعنينا إلا بمقدار ما يثير فينا من إعجاب وتقدير ونسينا في خضم حياتنا المادية أن علماءنا القدامى كانوا يقولون كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي وما كان ذلك منهم إلا أنهم عرفوا الصبغة الإنسانية وما انخر الله فيها من أسرار، ونسينا أيضاً أن آيات الأنبياء لا تتخطى الممكن لتقع في عالم المستحيل من الناحية العقلية فكل ما ذكره الله من أبواب كرامته لعباده لا يتعدى الممكن إطلاقاً.

### (وَعِلْمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ)

"ويعلمه" أحسب أن أصح الوجوه التي ذكرها المفسرون في إعراب هذه الجملة الفعلية أنها حال معطوفة على "وجيهاً" ومثلها قوله تعالى "ورسولاً" وكذا قوله تعالى "ومصدقاً" وهي أحوال سبقت متلاحقة لوضع مريم موضع الطمأنينة وإسبال ثوب السكينة عليها فالموقف صعب والطريق موحشة.

### (الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ)

الحكمة في ترتيب هذه الأربعة على هذا السنن تقتضيه السنة الطبيعية للتعليم نصاً على هذه الحكمة الامام الرازي في تفسيره فقد فسر "الكتاب" بالكتابة و"الحكمة" بالعلوم وأساليب التربية و"التوراة" باعتباره الكتاب الذي سبقه و"الإنجيل" لأنه الكتاب المدعو به لبني إسرائيل أن الله ﷻ سينزل إلى واحد منهم<sup>(١)</sup>. ولكن مما يجب التنبيه إليه أن التعليم الإلهي قد يأتي أحياناً وفق هذا التدرج التعليمي ولكنه أحياناً أخرى يتجاوز ذلك قال تعالى: ﴿يَبْعَثُ خِزْيَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَمَا يُنتَهُ إِلَهُكُمْ

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٢٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

صَيِّبًا ﴿١﴾ وَأَتَيْنَا: أعطينا والمعلوم أن التدرج هنا مستبعد وكذلك الحال مع عيسى ﷺ قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَيِّبًا﴾ (١) إلى آخر الآيات فلا يوجد تدرج في التعليم ولعل مثل يحيى وعيسى في إيتاء العلم إيتاء العبد الصالح "الخير" ﷺ قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٢) وأنت ترى كيف غاير بين التعبيرين فالرحمة من عنده والعلم من لده ولدن تدل على ما يخص من نسبت إليه كما مر بنا غير مرة (٤).

ويؤيد هذا الفهم ما رواه البخاري: "أن النبي ﷺ رأى رب العزة في المنام في أحسن صورة وفيه: فوضع الحق يده بين كتفي فعلمت ما كان وما يكون" (٥) ومن هذا أيضاً عطاء النبي ﷺ لأبي هريرة قوة الحفظ بالحثيات الثلاث وجعل أبا هريرة يضم حجره إلى صدره فقال أبو هريرة ﷺ: "فما نسبت حديثاً بعدها سمعته من رسول الله ﷺ" (٦).

### ﴿وَعَلَّمَهُ﴾

جاءت الصيغة ببناء التضعيف لتدل على التعدية والانتقال وعلى الكثرة في العلم الممنوح لعيسى ﷺ.

### ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

(١) مريم: ١٢.

(٢) مريم: ٢٩-٣٠.

(٣) الكهف: ٦٥.

(٤) انظر ص: ٢٢ من هذا الكتاب.

(٥) قال في زاد المعاد ج ٣، ص ٥٢: صححه البخاري.

(٦) البخاري ج: ١/ ص: ٤٠-٤١. بمعناه.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ورسولاً هي الحال السادسة من أحوال عيسى عليه السلام التي بلغت مريم بها مع البشارة به صلوات الله عليه وسلامه، والرسالة: هي على رأس الهرم في باب الاختصاص الإلهي الذي لا تعمل للشخص فيها فانه عليه السلام يختص من يشاء من عباده للنبوّة وللرسالة وإذا أختص الله عبداً من عباده للرسالة فقد اختصه بأعلى درجة يمكن أن يكون فيها مخلوق.

### (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِن رَّبِّكُمْ)

في هذه الجملة كان الانعطاف إلى الحديث عن عيسى عليه السلام وعما جرى له مع قومه وكان من حق قصة عيسى أن تبدأ من هذا المقطع.

أنظر إلى أسلوب القرآن في سرد الأحداث ترى أن الجمل السابقة موجهة إلى مريم وهي إخبار عن أحوال ابنها فالحديث معها مباشرة فلما أخبرها أنه سيكون رسولاً من الله إلى بني إسرائيل انعطف لسمعها قصته وماذا سيقول الرسول لقومه وماذا يقال له إن هذا الإنعطاف يشبه إلى حد كبير ما نسميه "التحويلة" من شارع إلى شارع آخر "أني قد جئتكم بآية" وهو على جهة الحكاية.

### (أَنِّي)

فيها التأكيد على الذات فليس الرسول ولا الداعية ممن يتوارى عما يفعله ويدعو إليه بل هو في واجهة الركب ليحمل عن خلفه.

### (قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ)

قد تفيد التحقيق فليس في قلبه شك أو ريب مما هو عليه لأن الذي في نفسه أو قلبه أو أي شيء من مشاعره نقص عن هذا اليقين فيما يدعو إليه فليتنح عن القيادة فليس هذا مكانه.

### (قَدْ)

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

إنه اليقين المطلق ﴿أَفَتَدْرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾<sup>(١)</sup> إن لم يكن ما يدعو الداعية إليه يساوي في اليقين هذه الرؤية البصرية فسوف تنكسر عليه دعوته وينكسر عليها.

### (حَتَّىٰ تَكْفِرَ)

جاء بها وليست منه، إنه جاء بها من ربه لتدلهم على الله ﷻ لا على عيسى ﷺ إن عيسى لا يريد لهم لنفسه بل يريد لهم لمالكهم ومالكه وهو الله جل شأنه، لا يمكن أن ينظر نبي إلى نفسه إطلاقاً إنه أعرف الخلق بمالكه إنه عبد الله كامل في عبوديته لربه لا يتشرف بشيء أكثر من شرفه بكمال عبوديته له ﷻ، وبهذا يكون نجاح الدعوة وبفقدانه يخسر الدعاة ما يدعون إليه ويخسرون أنفسهم.

### (مَنْ رَبِّكُمْ)

فلا يدعوهم إلى شيء يخصه هو فليس ما يدعوهم إليه من نتائج أفكاره ولا من أساليب عبقريته، إن ما يدعوهم إليه هو "ربهم" فلا يقول: من ربي، فلا خصوصية له أبداً فيما يدعو إليه لأنه رسول فقط رسول إليهم. فالعلاقة بينهم وبين ربهم وإنما هو مبلغ بل هو مشمول بهذا التبليغ بل أول من يصل إليه ويعمل به.

### (بِأَيِّ مَنِ رَبِّكُمْ)

بعلامة تدل على أن ربكم أرسلني إليكم، لا بد لكل رسول من الله إلى الناس من علامة تدل على أنه رسول من الله ولكن كيف تكون العلامة دالة دلالة يقينية لا شبهة فيها؟.

بعد أن اخبر النبي ﷺ أصحابه أنه من قال: "لا إله إلا الله" دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، وقال أبو ذر أفأبشر بها يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ "بشر بها

(١) النجم: ١٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

"قال أبو ذر: إذن يكذبني الناس فأعطاه النبي ﷺ نعليه السبتيتين للدلالة على صدقه وكل الناس في زمنه ﷺ يعرفون هاتين النعلين له ﷺ فأخذهما أبو ذر بيديه وراح يبشر الناس فلم يكذبه أحد" ساق هذه الرواية الإمام البخاري في صحيحه<sup>(١)</sup> ومثل هذا الباب كانت آية عيسى عليه السلام من ربه ﷻ إلى بني إسرائيل إنها علامة معروفة لديهم إنها من خصائص الخالق لا يعطيها إلا لمن أرسله لتدل على أنه أرسله وإلا لمن اتبع دينه الذي بلغه رسله للدلالة على صدق الإتياع ممن اتبع ولهذا كانت هذه الآيات تكثر في الناس بقدر حاجتهم إليها سواء حاجة التابع أو حاجة من يدعوهم هذا التابع الصادق في دعوته.

والناس اليوم بحاجة إلى علامة على صدق من يدعوهم إلى الله ﷻ ليسرعوا في الانتظام للسير على دينه الذي يدعو إليه بعد أن فقدوا تذوق العلامة الأصيلة التي تحدى بها القرآن الكريم، وحتى نعلم العلامات سنجعل لكل واحدة منها عنواناً خاصاً بها.

### العلامة الأولى

#### نفخ الروح في الصور

قال تعالى: ﴿أَن تَلْقُوا لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ أَلْتَمَعُ فِيهِمْ كَوْفُ طَيْرٍ﴾

﴿أَن تَلْقُوا﴾

للخلق: التفسير يقال خلق الأديم إذا قدره قيل القطع، وبإيه نصر<sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري: ج: ١، ص: ٤٠ - ٤١.

(٢) مختار الصحاح ص: ٧٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وفيه نسبة الخلق إلى العبد والعجيب أن بعض الناس يقول بعلم جواز نسبة الخلق إلى الإنسان ولا أدري كيف يمنعه إذا كان النص الإلهي بهذه الصراحة في النسبة.

### (لَكُمْ)

أي وليس لي فإن النبي ليس له نظر إلى حظ نفسه وليس بحاجة إلى أية مثل على إرساليته وهكذا الدعوة إلى الله كان السلف الصالح يستحون من ظهور الكرامة على أيديهم ولكن يسارعون إلى إظهارها إذا كان المدعوون بحاجة إلى رؤيتها كما وقع لخالد بن الوليد عندما شرب السم وكذا ما وقع لأبي مسلم الخولاني عندما ألقى في النار<sup>(١)</sup>.

### (مِنَ الطِّينِ)

الطين: الوحل أي التراب المخلوط بالماء حتى يكون كالعجين.

### (كَمَثَلِ الطَّيْرِ)

أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير<sup>(٢)</sup> فالكاف هنا واقعة موقع الاسم ولهذا صح أن يعود الضمير إليها من قوله "فيه".

### (كَمَثَلِ فِئَةٍ)

أي في الشيء الذي مثل صورة الطير فالضمير يعود إلى الكاف كما مر بنا قال الله ﷻ عن خلقه لآدم الطير: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ: إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقُمْوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾﴾<sup>(١)</sup> فأنت

(١) انظر الفرقان لين تيسية، مجموع الفتاوى ج: ١١/ص: ٢٧٩.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٣١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ترى النفخ من الله في خلق الإنسان والنفخ من جبريل في خلق عيسى عليه السلام ونفخ عيسى في صورة الطير فنتساءل: لماذا التأكيد على وجود السبب في خلق الله؟ وهل وجود السبب ضروري في خلق الله كما هو ضروري في أفعال المخلوقين؟ ثم لماذا التأكيد على النفخ في الصور الثلاث: خلق الله لآدم؛ وخلق عيسى في الرحم؛ وإحياء الصورة الطينية من قبل عيسى عليه السلام؟ سوئ الله صورة آدم من صلصال من حمأ مسنون فنفخ فيه فكان آدم وصور عيسى عليه السلام الطين بصورة الطير ونفخ فيه فكان طيراً، صور الله وصور عيسى ونفخ الله ونفخ عيسى أليس هذا غريباً عن أفكار الناس اليوم؟!.

لم أقرأ لأحد من السلف الماضين من المسلمين ومن غيرهم ممن وقع له ما وقع لعيسى عليه السلام من إحياء صورة الطين على كثرة ما قرأت في كتب المتصوفة وهم المولعون بنقل مثل هذه الأخبار وكلّي رجاء وعرقان بالجميل لمن وجد ذلك فأخبرني عنه ودلني على مصدره.

وحول التعامل بالسبب: فاني أحسب أن الإنسان لا يمكنه إطلاقاً الخروج عن عالم الأسباب وكل ما نقرأه عن سلفنا الصالح يندرج في الارتقاء من عالم الأسباب المادية إلى عالم الأسباب الروحية أو الفكرية أو المعنوية أو كما يقول بعضهم: الارتقاء من سبب كثيف إلى سبب لطيف، وأمامك جميع ما وقع للماضين سواء كان من وقع له نبياً مرسلأ أو ولياً مقرباً مما يسمى خرقاً للأسباب فإنك غير واجد حدثاً واحداً خالياً من استعمال سبب وخذ مثلاً: وضع الأصابع في الماء القليل، أو البصاق في البئر وحتى مناداة الشجر كلها كانت تقع بأسباب لطيفة وإلا فما الحاجة إلى الماء القليل، ولماذا البصاق في البئر بل لماذا كان وجود شيء من



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الماء في البئر تتوقف عليه الزيادة في الماء؟ وكذلك الأمر في الخلق الإلهي فكلمة كن أو توجه الإرادة أو الإرادة بدون توجه قل ما شئت فلن تخلص من السبب. وأما كون النفخ هو السبب في بعث الحياة فالنفخ ريح وله مناسبة بالروح لفظاً ومعنى وأنت تعلم أن الحياة لا تتوقف على شيء توقفها على الهواء والله أعلم.

### (فَيَكُونُ طَيْرًا)

هكذا عبر القرآن الكريم: فيكون أي أن الشيء هو الذي يكون لأنه هو الذي استقبل الأمر بكن ومن المعروف ضرورة أن غير القادر على الفعل لا يؤمر به فظاهر النص يدل دلالة واضحة أن المعلوم من حيث انه معلوم له القدرة على التكون وإلا لما صح أمره بكن ولما صح الإخبار عنه بقوله "فيكون" ولم يقل فيكونه ومثال هذا أيضاً توجيه الأمر الإلهي لنار النمرود: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup>، فلو لم يكن في قوة النار أن تكون برداً لما صح أمرها بذلك وكذلك كينونتها سلاماً.

### (طَيْرًا)

الطير اسم جنس يقع على الواحد والكثير وفي قراءة: فيكون طائراً ومحاولة بعض المفسرين تخصيص الطير بالخفاش أو أن الطير كان يطير أمام الحاضرين فإذا غاب عنهم سقط إلى الأرض أو أن الحدث إنما وقع مرة واحدة فقط افتراضات لا يدل عليها النص بل يتعارض مع بعضها فالفعل المضارع "فيكون"

(١) الأنبياء: ٦٩

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

دال على التجدد وكذلك انفخ والأوضح في الرد هو الفعل أخلق الذي ابتدأ به ذكر الحدث.

﴿فَأَنْفُخْ فَيُوقَىٰ كُوْنٌ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

يصح أن يتعلق الجار والمجرور "بإذن الله" بالفعل "فأنفخ" وبالفعل "فيكون" فإذا قلنا يتعلق بأنفخ على التقدير: فأنفخ فيه بإذن الله فيكون طيراً احتمال أن يحتاج إلى الإذن في كل مرة أو أن الإذن عام في كل ما ينفخ فيه من الصور، وأما إذا قلنا إن "بإذن الله" متعلق بـ"يكون" فتكون الكينونة متوقفة على الإذن من الله أو أنه أعطى عيسى عليه السلام امتثال هذه الصور لأمره بالحياة عن طريق النفخ فيها<sup>(١)</sup>، وأحسب أن هذا هو الأرجح في تفسير النص لأن تعلق الجار والمجرور بالأقرب أولى من تعلقه بالأبعد إذا لم يكن مانع من تعلقه بالأقرب.

### العلامة الثانية

#### في إبراء الأكمه والأبرص

قال تعالى: ﴿وَأُبرئِ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾

يقال: برأ من الدين وبرأ من العيب. بفتح الراء. بمعنى سلم. ويقال: برئ من المرض بكسر الراء من برئء ويقال: برأ الله الناس أي خلقهم<sup>(٢)</sup>.

﴿وَأُبرئِ﴾

الفعل برئ فعل لازم تقول برئ زيد فإذا أردت تعديته قلت: أبرأ زيداً خالداً وبما أن الأكمة والأبرص ليس في قوتها أن يبرءا جيء بالفعل على هذه الصيغة.

(١) انظر التفسير الكبير: ج ٣ / ص: ٢٢٩ .

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٦ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لم ينقل لنا القرآن الكريم الطريقة التي كان يبرئ فيها عيسى عليه السلام الأكمة والأبرص كما نقل لنا الطريقة في الطير إلا على بعض وجوه التأويل في صفته بالمسيح وأحسب أن ذلك أمر يختلف باختلاف الأشخاص فقد يُبرئ الواحد بالمسح والآخر بالرقية وآخر بالتخيل بل الأغرب من ذلك أن من الناس اليوم من يشفى بوضع يده فوق مكان الألم بدون ملامسة.

كذلك لم يقيد الإبراء بالأذن إلا على وجه ضعيف في تعليق الجار والمجور بقله: "وأبرئ" وذلك فيما أكسب إشارة إلى أن قوة الشفاء أو الإبراء كانت ذاتية في عيسى عليه السلام كما هي موجودة في كثير من الناس في هذه الأيام.

### ﴿الأكمة﴾

وهو الذي ولد أعمى. وقيل: هو الممسوح العين. وقيل: هو الذي عمي بعد أن كان بصيراً. وقيل: هو الذي لا يبصر بالليل<sup>(١)</sup>.

### ﴿والأبرص﴾

البرص: مرض يعترى الجلد فيجعله أبيض ويسمى القمر: أبرص: لبياضه<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر الكشاف: ج ١ / ص: ٣١. والتفسير الكبير: ج ٣ / ص: ٢٢٩.

(٢) البحر المحيط ج ٣ / ص: ١٤٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### العلامة الثالثة

#### في إحياء الموتى

قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ يَأْذَنُ اللَّهُ﴾

استعمل الفعل المزيد بالهمزة أيضاً في هذه العلامة للدلالة على أن الميت ليس في قوته أن يحيى بنفسه.

ونسب الفعل إلى نفسه لأن الله أذن له في الأحياء وهل يحتاج إلى الإذن في كل مرة؟ أو أن الأذن كان عاماً؟ النص يحتمل الوجهين وأحسب أن الراجح منهما هو الثاني لأن النص أو صل الأحياء المتجدد بالموتى ثم أخبر عن الأذن ولو كان المراد الوجه الأول لقال: وأحي بأذن الله الموتى أو وبأذن الله أحي الموتى.

#### ﴿الْمَوْتَىٰ﴾

الموت: ضد الحياة. مات يموت ويمات أيضاً فهو ميّت وميتٌ مشدداً ومخففاً وقوم موتى وأموات وميِّتون وميِّتون مشدداً ومخففاً ويستوي فيه المذكر والمؤنث<sup>(١)</sup> وقد يفيد ذكر المفعول بصيغة المفرد مل لم يفيد بصيغة الجمع فلو جاء النص: "وأحيي الميت" لأفاد القدرة على إحياء كل ميت ومن المعلوم أن ذلك ليس مراداً.

#### ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾

لم يذكر القرآن الكريم طريقة عيسى عليه السلام في الإحياء وأحسب أن ذلك عائد لاختلاف الأحوال فقد يحييه بقوله للميت قم أو بالنفخ أو بالدعاء أو بوضع اليد عليه أو باسم خاص كما نقل الكلبي أنه كان يحيى بـ "يا حي يا قيوم".

(١) مختار الصحاح: ص: ٢٦٧ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وعملية الإحياء ثابتة عن السلف ﷺ ذكر ذلك ابن تيمية رحمه الله في  
أواخر كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فارجع إليه ان شئت<sup>(١)</sup>.

### العلامة الرابعة

#### في الإنبياء بالغيب

قال تعالى: ﴿وَأَنبِئِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَنخَرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

جاء الفعل أنبئكم في النص من المضاعف للدلالة على التعدية أو لا وعلى  
التكثير ثانياً فإذا أضفت إليه ما يفيد المضارع من التجدد زادت دلالته على الكثرة  
أي أن عيسى عليه السلام كان هذا الإنبياء يقع منه كثيراً كثيراً.

وإسناد الفعل إلى نفسه فيه أيضاً أن هذا الأنبياء كان في قوته فلا يحتاج  
إلى إخبار مخبر من ملك وغيره.

وإنما جاءت هذه العلامة آخرأ لأن رتبها في العلامات كذلك ففي كل  
عصر من عصور المسلمين تحكى مثل هذه الإنبياءات ولعل شمس الدين ابن القيم  
فيما حكاها عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان يهدف إلى إزالة الغبار الذي  
يثيره العابثون في طريق المسلمين كلما ذكرت كلمة عن هذا الموضوع<sup>(٢)</sup>.

وأنبه هنا إلى أن ما ذكره ابن القيم عن شيخه ابن تيمية من باب الأخبار  
التي يعتمدها الصدق والكذب ولم يكن الرجلان من الكاذبين.

#### ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾

أي في أي مكان سواء كان ما أكلوه في بيوتهم أم لا فالنص عام مطلق

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ضمن الفتاوى ج: ١١ / ص: ٢٧٥-٢٨١ .

(٢) مدارج السالكين ج: ٢/ص: ٥١٠-٥١١ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وذلك لإفادة "ما" العموم وإفادة الفعل الإطلاق إذ من المعلوم أن دلالة الفعل على الحدث من باب دلالة المطلق، وكذلك يدل النص على أنه كان ينبئهم بأي طعام يأكلونه قليلاً أو كثيراً لأن حذف المفعول فيه دلالة على العموم.

### ﴿وَمَا تَذَخَّرُونَ﴾

"قرأ الجمهور: "تَذَخَّرُونَ" بدال مشددة وأصله: إذتخر من الذخر فأبدلت التاء دالاً فصار: إذدخر ثم أدغمت الذال في الدال فقيل: إذخر<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَمَا تَذَخَّرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

فيه عموم "ما" وإطلاق دلالة الفعل أي كيف يكون هذا الإدخار في صندوق أو جدار أو في داخل الأرض إلا أنه مقيد بقوله "في بيوتكم" فلا يشمل ما يدخرونه خارج بيوتهم، وينبغي أن نعلم هذا العموم وهذا الإطلاق في النص لا يقصد به أن عيسى عليه السلام كان ينبئهم بكل ذلك، بل المقصود أنه كان ينبئهم بكل جنس من أجناس ذلك لأنه ليس من المعقول أن يصرف عيسى عليه السلام جلّ وقته في إنبائية كهذه والله أعلم.

### ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ﴾

الإشارة بقوله "ذلك" إلى العلامات الأربع وإنما جعلها كلها آية للدلالة على أن واحدة منها لا تصلح أن تكون آية أو أنه أراد بقوله "آية" الجنس<sup>(٢)</sup> وانظر إلى النص كيف بدأ أولاً بحرف التوكيد "إن" ثم قدم الجار والمجرور لزيادة التأكيد وأدخل اللام على آية والجملة الإسمية تدل على الثبوت والاستقرار كل هذه

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٦٦.

(٢) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٢٧. البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٦٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

التأكيدات استخدمها للدلالة على قوة إنكار اليهود وتعتهم وهي أيضاً تدلنا على مدى الثقة والطمأنينة التي كان عليهما عيسى عليه السلام فيما يدعو إليه.

**(لَكُمْ)**

التخصيص بقوله "لكم" لا يدل على أن هذه العلامات لا تكون آية لغيرهم بل إن المقصود بهذا التخصيص أنهم المقصودون بالدعوة على الخصوص.

**(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)**

إن هنا مستعملة للتهيج كأنه يصدر لهم كل هذه التأكيدات وهم لا يباليون بذلك فاستخدم أسلوب الشك بإيمانهم ليراجعوا أنفسهم لأن الإيمان بالله يدعوهم أن يقبلوا إليه عليه السلام مدعنين بعد رؤية هذه الآيات، وبهذا ننهي الحديث عن آية عيسى عليه السلام.

**(وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**

**وَجنتكم بآية من ربكم فآتقوا الله وأطيعون)**

**(وَمُصَدِّقًا)**

معطوف على محل "بآية" لأن محلها النصب على الحال فيكون المعنى: ورسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جنتكم بآية من ربكم وجنتكم مصدقاً لما بين يدي، وهذا فيما أحسب هو أحسن وجوه الإعراب لهذه الكلمة ولهذا بدأ به أبو حيان<sup>(١)</sup> والمراد بقوله "ومصدقاً" الاعتراف والإيمان بأن ما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله من التوراة وغيرها هي حق وصدق فلا يعقل في جانب الأنبياء والمرسلين إلا هذا فيصدق اللاحق منهم السابق هذا أولاً، وثانياً أن اللاحق يصدق السابق في كل

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٦٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ما أخبر به عن ربه ﷻ لأن الأخبار الصادقة عن شيء واحد لا يمكن أن تختلف فيما بينها، أما ما ليس من باب الأخبار بل من باب التشريعات في الأمر والنهي فهذه قد تختلف من رسالة لرسالة ومن أمة لأمة تبعاً لتطور الإنسان في الوعي على مر التاريخ.

### (لَمَّا بَيْنَ يَدَيْ)

ما موصولة وهي تفيد العموم أي لكل ما بين يدي، والمقصود من قوله: بين يدي أي من سبقه من الأنبياء والمرسلين لأن من كان قبلك فهو بين يديك فكأنه أمامك وهذا من مجاز اللغة.

### (مِنَ التَّوْرَةِ)

من بيانية فهي لا تفيد حصر المبين الذي هو ما بين يديه أي فعيسى ﷺ جاء مصدقاً لكل ما بين يديه من التوراة وغيرها، ولعل غياب معنى البيان هو الذي جعل بعض المفسرين يحاول تعميم النص ظاناً عدم عمومته<sup>(١)</sup>.

### (وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)

جاء عيسى ﷺ مصدقاً وجاء ليحل بعض ما كان محرماً فلا يوجد تعارض بين الهدفين<sup>(٢)</sup>، فلولا ضرورة تغيير التشريع في الحلال والحرام حسب وعي الناس واختلاف أوضاعهم لما كان هناك من داع لإرسال رسول جديد طالما الكتاب السابق لا يزال محفوظاً.

### (وَلَأُحِلَّ)

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٣٠. البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٦٧.

(٢) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٣٠-٢٣١ حيث توهم التعارض.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يعني أن هناك محرماً وقوله: "لكم" أي لبني إسرائيل فإن الخطاب معهم وقد يشمل غيرهم ممن انتسب إلى ديانة موسى عليه السلام من غير بني إسرائيل إن وجد.

**﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾**

أي لا كله فلم يكن الإنجيل ناسخاً لجميع ما في التوراة والبعض يصدق على القليل والكثير وهو ضد الكل فالنص واضح الدلالة في أن عيسى عليه السلام جاء ليحل بعض ما حرم على بني إسرائيل وأكثر الذي أحله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل كان قد حرم عليهم عقوبة على بعض أعمالهم.

**﴿وَجِئْتُمْكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**

أي حال كوني جئتكم بآية يريد عيسى عليه السلام أن يقول لبني إسرائيل: جئتكم مصدقاً لما بين يدي ولأحل لكم... حال كوني معي آية تدل على صدقي في ادعاء الرسالة.

**﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾**

فيه تلميح بهم حيث نسب الرب إليهم لا إلى نفسه أي أنه يقول لهم: إن ربكم الذي تؤمنون به هو الذي أرسلني إليكم ولم أت أنا من نفسي، وأحسب أن إعادة هذه الجملة للتأنيب لأن مدعاهم أنهم يؤمنون بالله ويتبعون موسى والتوراة لا من أجل أنه موسى أو أن كتابه التوراة وإنما الطاعة لله رب العالمين.

**﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾**

هذه الجملة تؤيد ما ذهبنا إليه وإعادتها كالتوطئة لهذه الجملة.

**﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾**

أي اتقوا معصية الله كما تقول: اتق أباك أو اتق المسؤول عنك والمراد

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

اتقاء المخالفة لأن العباد لله وكيف يتقون ربهم وسيدهم إنهم يريدونه ويتمنون النظر إلى وجهه الكريم ويسألون القرب منه دنيا وآخرة.

### ﴿وَأَطِيعُوا﴾

لأنني رسول منه إليكم فإذا عصيتموني فقد عصيتم الله لأنني لا آمركم بأمر من ذات نفسي بل أنقل لكم أمره ونهيه وذلك هو ما أرسلني به إليكم.

### ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

الرب: في اللغة هو المالك ورب كل شيء مالكة<sup>(١)</sup> تقول: رب البيت ورب الدابة ولا تريد إلا المالك، ولا يطلق "رب" على الله إلا مضافاً أو منادى أو محطاً بالألف واللام.

### ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾

أي مالكي ومالككم والطاعة والعبادة ليست لموسى بما أنه موسى ولا للتوراة لأنها التوراة وإنما الطاعة لموسى لأنه رسول من المالك وللتوراة لأن المالك أمر بها هي شرعه وللمالك أن يغير شرعه الذي شرعه ويرسل شرعه الجديد مع من يريد من مملوكيه.

### ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾

الطاعة مع الشعور بالمملوكية لمن تطيع تسمى عبادة فليس كل طاعة عبادة وإلا لكثير المعبودون، وأحسب أن الشعور بالمملوكية هو واسطة عقد الإيمان لأن الإيمان يتكون من هذه الأركان الثلاثة: الخالقية لله والمالكية لله والألوهية لله

(١) مختار الصحاح ص: ١٠١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وكل واحدة تستلزم ما بعدها فلأنه خالق كان مالكا ولأنه مالك كان له الأمر والنهي فهو الإله.

### (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

الإشارة إلى الشأن المفهوم من الجملة التي قبلها وهي: "إن الله ربي وربكم فاعبدوه" أي هذا الأمر والشأن وهو ربوبية الله لي ولكم وعبادة الرب الذي نعترف به جميعاً هذا صراط مستقيم، كما نقول الآن: هذا محل اتفاق فالأمر المنفق عليه بيني وبينكم أن الله هو الرب وهو المعبود فتعالوا نحقق هذا الأمر.

وهذا النداء ينادي به كل نبي ورسول جديد وهو نفسه الذي نادى به محمد رسول الله ﷺ واليهود والنصارى قال تعالى: "تعالوا إلى كلمة سواء.." إلى آخر الآية وسوف يأتي الكلام عليها في هذه السورة.

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ

أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

الإحساس الإدراك ببعض الحواس الخمس يقال: أحسست الشيء وحسست به وتبدل سينه ياء فيقال: حسيت به ذكر هذا أبو حيان<sup>(١)</sup> وقال في الكشف: "فلما أحس: فلما علم منهم الكفر علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس"<sup>(٢)</sup>.

### (مِنْهُمْ الْكُفْرَ)

لأن الكفر بالرسول كفر بمن أرسله بعد بيان الدليل أنه رسول ممن أرسله

(١) البحر المحيط: ج ٣ ص ١٧١ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٤٣٢ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وادعاء الإيمان بالله مع الكفر بمن يرسله الله كالإيمان بملك أو رئيس مع إنكار القانون الذي يحكم به فهل يقبل أحد من ملوك الدول ورؤسائها بمثل هذا الإيمان ؟

**﴿قَلَمًا أَحْسَ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾**

هل ينبغي أن نسأل كيف أحس عيسى عليه السلام الكفر من بني إسرائيل؟ إذا كان يدعوهم ويثبت لهم انه رسول بكل نوع من أنواع الآيات التي جاءهم بها هل هذا العلم يقل عن الإحساس حتى نسأل كيف أحس عيسى منهم الكفر؟ إنه الولوج بالفضول الذي لا طائل تحته أبداً.

**﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾**

من: اسم استفهام مبتدأ وأنصاري: جمع ناصر مضاف إلى ياء المتكلم و"إلى الله" الجار والمجرور متعلق بأنصار لأنه اسم فاعلين، وكل الرسل والدعاة يقفون هذا الموقف كل رسول يعرض دعوته ويفتش ويسأل عن من يقوم معه بالدعوة إلى الله عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل العربية في مكة وفي الطائف وفي موسم الحج فهدى الله الأوس والخزرج لأن يكونوا من أنصاره.

من أنصاري؟ في ماذا؟ لم يذكر عيسى عليه السلام ذلك لأن بني إسرائيل كلهم يعلمون أنه عليه السلام مشغول بدعوة الناس إلى ربهم لأن ربهم أرسل إليهم شريعة جديدة معه وهم لا يريدون أن يصدقوه رغم الآية الباهرة التي معه.

من أنصاري في الدعوة إلى الإيمان بالله، النص مكشوف ظاهر ولا أدري لماذا تاه كثير من المفسرين في بيان هذا النص<sup>(١)</sup>!!!

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٧٣. الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٢. التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٣٣-٢٣٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿إِلَى اللَّهِ﴾

وليس إليه هو عليه السلام إنه يسأل عن ينصره في عودة الناس إلى الله لا إليه ولا إلى موسى لا إلى التوراة ولا إلى الإنجيل المهم أن ترتبط المشاعر بالله وهي تمارس تعاليم دينها واتباع رسولها ولا ينبغي لهم أن يضلوا فيتبعوا الرسول أو الكتاب بمعزل عن الشعور باتباع المالك الحقيقي عليه السلام.

إذا كان الملك واحداً فهل يجوز التمسك بالقانون الملغي حياً بالقانون؟ هل نتبع القانون من أجل الملك؟ أم نتبع الملك من أجل القانون؟ هل نحب القانون لأنه جاء من الملك؟ أم نحب الملك لأنه شرع لنا هذا القانون؟ إن تحديد الموقف بين هذين الاتجاهين هو رأس الأمر كله وهذا الفرقان قد غاب عن الكثير من أهل الكتاب فضلوا الطريق ونخشى أن يكون سارياً في بعض الاتجاهات المذهبية والطائفية في الإسلام.

وفي هذا النص رد على الذين يتوهمون أن عيسى عليه السلام لم يرسل للجهاد بل للدعوة فقط أو بما يسمونه الوعظ فالنص الذي أمامنا صريح في طلب النصر في الدعوة وإذا قام أعداء الدعوة لرد أتباعها وإيذائهم فبماذا تكون النصر عندئذ؟ ثم يقال إن هؤلاء المناصرين في الدعوة سوف ينهال عليهم الأذى من أعداء الدعوة فماذا يكون موقف هؤلاء المناصرين؟ ألا يدافعون عن أنفسهم؟! يصرح الإنجيل المعترف به عند النصارى بنص قاطع يقول عيسى عليه السلام: "ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً" إلى آخر النص الإنجيلي، إن كل الرسل يستقون من عين واحدة والجهاد شريعة الدعاة.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي...﴾ "لو آمنوا لاختلف الموقف

وإنما تطلب النصير عند وجود عدو لا قبل ذلك وهي مسألة واضحة وجلية نص

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

عليها القرآن الكريم ولكن الولع باختلاق الخلاف والتأويل لا يترك أهله<sup>(١)</sup>.

**(قَالَ الْخَوَارِجُ مَنُ أَنْصَارُ اللَّهِ مَأْمَنًا بِآلِهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**

الحواري: يقال الحواري على خاصة الرجل وعلى شدة البياض لأن الحور هو نقاء بياض العين ويطلق الحواري على القصَّار الذي يبيِّض الثياب والبحث في سبب التسمية ومن هم أو كم كان عددهم ليس فيه غناء في التحليل ولذلك نكتفي بما ذكرناه في بيان الإسم فقط.

**(مَنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)**

من أنصاري؟ نحن أنصار الله إنهم فهموا تماماً أن مناصرة عيسى عليه السلام ليست مناصرة لشخص عيسى عليه السلام وإنما هي مناصرة لله لأن عيسى عليه السلام لا يدعو إلى نفسه فليس ما يدعو إليه فكراً ولا مذهباً إنه يدعو إلى التسليم لله لأن الله أرسله بتشريع جديد، إنهم الحواريون فعلاً لا حواريو عيسى عليه السلام فقط إنهم الفئة المخلصة الصافية من كل كدر في توجهها لله رب العالمين عبادة وطاعة.

وياك أن يُخَطِرَ الشيطان عليه اللعنة في قلبك أن كلامنا فيه غض لمقام الرسل والدعاة إنهم الأدلاء على الطريق ننام ويسهرون ونكل ويجاهدون ونخلد إلى الراحة ويتعبون إنهم يرون ونعلم فأنى لنا بمزاحمتهم؟! إنا على آثارهم فلن نضل بإذن الله.

**(مَأْمَنًا بِآلِهِ)**

من آمن بشيء ناصر ذلك الشيء لأن إيمانك بشيء يكون جزءاً من شخصيتك فهل أنت قادر على عدم مناصرة نفسك؟! الإيمان بالله خالقاً ومالكاً وإلهاً

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٧٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لا يدع في نفس المؤمن كسلاً ولا خمولا بل يتحول إلى طاقة يصعب على البعيد عن الإيمان تفسيرها.

### ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾

واشهد: من المعلوم أن الشاهد أجنبي عما يشهد له وبه إنهم استسلموا لله لا له ﷺ وعلى من حضر وعلم هذا الاستسلام أن يشهد على ما علم، إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم شهداء الله على خلقه قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾<sup>(٢)</sup>.

### ﴿بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾

إسلام الوجه لله خضوع الفكر والقلب خضوع عبد لمالكة هذا هو الدين الذي يحاسب الله الناس عليه وعندما يكون القلب مستسلماً لمالكة فلن يوقفه تبديل الشرائع ولا النقل من دين إلى دين ولا الأخذ عن رسول إلى الأخذ عن رسول آخر، الرسل والشرائع وسائط للتلقي عن مالك الوجود ما يريد وما سمي الرسل رسلاً إلا للتأكيد على هذا المعنى.

### ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

### ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾

ربنا صدقنا بكتابك الذي أنزلته على عيسى ﷺ وهو الإنجيل.

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٤١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾

الرسول هو الدليل على مراد الرب من كتابه الذي انزله عليه فإتباع الرسول إتباع للكتاب وإتباع الكتاب إتباع للرب المالك الذي يملك الأمر والنهي وحده على مملوكية.

### ﴿فَاَتَّبَعْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

﴿فَاَتَّبَعْنَا﴾: أي فتقبلنا، ومع الشاهدين أي مع الشاهدين من المؤمنين بدليل "لتكونوا شهداء على الناس" فالرسل تشهد على أممها والمؤمنون من كل أمة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الأمم بالإيمان لمن آمن وبالكفر على من كفر.

### ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

### ﴿وَمَكَرُوا﴾

المكر: الاحتيال والخديعة<sup>(١)</sup> وقيل أصل المكر: من الاجتماع على الأمر وإحكامه ومنه يقال امرأة ممكورة: أي مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع فلما كان رأيهم رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور سمي مكرأ<sup>(٢)</sup>.

### ﴿وَمَكَرُوا﴾

أي بنو إسرائيل الذين أحس منهم عيسى عليه السلام الكفر فالمكر إنما ترتب على كفرهم فلا يصح تفسير كفرهم بإرادة قتله كما توهمه بعضهم،

(١) مختار الصحاح ص: ٢٦٣.

(٢) التفسير الكبير: ج: ٣/ ص: ٢٣٥ - ٢٣٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والمراد بمكرهم: التخطيط لقتله والخلاص من الدين الجديد لتسلم لهم مكانتهم عند قومهم.

﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾

قيل أن نسبة المكر إلى الله إنما جاءت للمشكلة مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوُا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) ومثله مقابلة المخادعة بالمخادعة والاستهزاء بالاستهزاء، وقيل: إن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسميت بذلك.

ورأي ثالث يقول: إن المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل وهو بهذا المعنى يجوز أن ينسب إلى الله، ذكر هذه الأقوال الإمام الرازي رحمه الله (٢). وأحسب أنه يمكن أن يفسر مكر الله على سنته الموضوعية في الخلق كله وهي أن فاعل الشر يدور حوله شره ولعل المثل "من حفر بئراً لأخيه وقع فيه" هو محاولة للتعبير عن هذه السنة ويكفيك أن يوصف صاحب عمل الشر بالشر نفسه، والأكثر من هذا وضوحاً أن المكر الإلهي جعل عمل الماكر يرتد عليه أنظر إلى الكذاب فبعد أن أراد أن يصدق الناس في غير الواقع جازاه الناس برد قوله حتى في صدقه، وإضافة إلى ذلك ما يتفق عليه الآن الباحثون في علم النفس أن الأفكار الشريرة التي يرسلها الدماغ إلى الآخرين تحيط به أولاً وتؤدي به إلى عواقب سيئة (٣)، وقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَأَخْطَأْتُمْ بِهِ خَبِئْتُمْ﴾ (٤)، تر العجب.

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٣٦.

(٣) حواسك الزائدة في خدمتك — هيرولد شيرمان — ص: ٧٠.

(٤) البقرة: ٤١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾

لأنه الأقدر على الأحكام أو لأنه وضع سنة أن دائرة السوء تنور على  
المسيء.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَسْمَعَ تِلْقَآنَ الْكَلِمَةِ الْكُفْرَ الْإِنَّمَا كَانَ مُقْتَدِرًا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾  
﴿وَجَعَلَ الَّذِينَ اتَّبَعُكَ قَوْمًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ قَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَدْرَأُ أَنَّ مَرْحُمَتَنَا كَذِبًا عَلَيْكُمْ إِنَّكُمْ لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾

إذ ظرفية إما لقوله تعالى "خير الماكرين" وإما لقوله تعالى "ويمكر الله"  
ذكر تلك الزمخشري<sup>(١)</sup> ولكن الأول هو الأرجح ولهذا يبدأ به رحمه الله .

﴿لِيَسْمَعَ تِلْقَآنَ الْكَلِمَةِ الْكُفْرَ﴾

التأكيد بأن ودخلها على ضمير المتكلم وهو الله جل جلاله كان أنزع أي عامل  
من عوامل الخوف التي يمكن أن تنال من نفسية عيسى عليه السلام، فاليهود  
يتآمرون على قتله والحق يقول له لن يقتلوك بل أنا الذي أتوفئك ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ  
مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>، هذا قانون إلهي عام في جميع المرسلين قلن يقتل رسول قط.

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾

متوفئك: أحصى الزمخشري رحمه الله وجوه التأويل في هذه الكلمة  
فقال: "إني متوفئك: أي مستوفي أهلك ومعناه: إني عاصمك من أن يفتك الكفار

(١) الكشاف ج ١ / ص ٤٣٣ .

(٢) المائدة: ٦٧ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم، وقيل: متوفيك: قابضك من الأرض من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته، وقيل: متوفيك أي متوفي نفسك بالنوم من قوله تعالى: "والتي لم تمت في منامها" ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف تستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب<sup>(١)</sup>.

### (وَرَأْفُكَ إِلًا)

الرفع: نقل من سفلى إلى علو<sup>(٢)</sup> والواو العاطفة لا تقتضى الترتيب مما أحدث احتمال الرفع قبل الوفاة النهائية قبل استكمال أجله عليه السلام. والرافع هو الله ولهذا لا ينبغي أن تستشكل عملية الرفع بالقياس على القانون الطبيعي للكون وللإنسان طالما أن الرافع هو خالق الكون وقواتينه والإنسان وأحكامه أمام هذا القانون ومنه "سبحان الذي أسرى بعبده" فلم يسر هو ﷺ وإنما أسرى به ﷺ .

### (إِلًا)

قال الزمخشري: إلى سمائي ومقر ملائكتي<sup>(٣)</sup> وقال الرازي: إلى محل كرامتي وجعل ذلك رفعا إليه للتفخيم والتعظيم ومثله قول الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبِّحِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وإنما ذهب إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان: ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي وقد يسمى الحاج زوار

(١) الكشاف: ج ١/ص: ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) البحر المحيط ج ٣/ص: ١٧٧ .

(٣) الكشاف: ج ١/ص: ٤٣٢.

(٤) الصافات: ٩٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الله ويسمى المجاورون لمكة جيران الله والمراد من كل ذلك التفضيم والتعظيم فكذا هاهنا أو يكون معنى "ورافعك إلي" أنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله<sup>(١)</sup>.

والنص القرآني يتخاطب مع الإنسان وبلغته هذا الإنسان، الإنسان بكل ما هو عليه أو بكل ما فيه من فكر وخيال من وجدان وإحساس من حب وكره من. ولهذا لا يجوز في أي حال أن نتجه في تفسير المحتوى النصي في القرآن إلى اعتباره يخاطب جهة دون جهة أخرى لقد أسرف المتكلمون في الحديث عن نسبة الرفع إلى الله ففسروا الرفع ما هو؟ ثم السفلى والعلو ما هو؟، وجرهم ذلك إلى تفسير المكان والحيز إلى الظرف والمظروف ولو أنهم رحمهم الله إذ بحثوا ذلك جعلوه بحثاً فلسفياً يخص عليّة القوم من الفلاسفة وممن جرى مجراهم بعيداً عن القرآن الكريم لما عارضهم أحد ولكنهم أصرّوا أن يكونوا أئمة العقيدة ودعاة الدين فرفضتهم أنفسهم قبل أن يرفضهم الناس وإن كنت في شك من هذا فهات لي بواحد منهم لا يرنو ببصره إلى السماء وهو يريد ربه ﷻ إن الله خاطبنا وتخاطب معنا فكراً وخيالاً فإن كان في باب الفكر قال لنا: "ليس كمثلته شيء" فإنه بشرنا برويته يوم القدوم عليه في دار ضيافته الجنة، وإنه وصف لنا نزوله وإنزال كتابه وإنزال الملائكة بعيداً عن مفاهيم الفلاسفة في التفريق بين العلو الحقيقي والنسبي وما إلى ذلك.

إن الأنبياء والمرسلين جميعاً وهم أعرف الناس بل أعلم الخلق بربهم علمونا أن الله في قبلة المصلي وأن نعبد الله كأننا نراه وأن الله جاء في المنام إلى محمد ﷺ في أحسن صورة كل هذا التعليم يتعامل معه المسلمون فقهاً وعبادة ولا

(١) التفسير الكبير ج ٣ / ص ٢٣٨. وأنظر البحر المحيط ج ٣ / ص ١٧٧ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يبالون في خلاف المنكلمين ولا الفلاسفة إن منطقة الخيال لها حصّة في العقيدة لا يجوز إنكارها ولا السطو عليها وأنى لهم ذلك!!!  
إن الله رفع عيسى عليه السلام إليه وكفى بلا تشبيه ولا تأويل ذلك أسلم لعبادتنا وأحكم لعقيدتنا وأرضى لمشاعر حبنا لله جل جلاله.

### ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

نزهك من أن ينالوا منك سواء فيما يمكرون من التخطيط لقتلك أو تلوّث سمعتك أو القضاء على رسالتك إن الطهر والبقاء لك لا لهم.

### ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

الذين اتبعوه هم أنصاره من الحواريين ومن كان على شاكلتهم إنهم الذين عرفوا الحق لأهله عرفوا الدين أنه إسلام الوجه لله والرسول والكتب تتبدل حسب مشيئة الله ولولا معرفتهم هذه لما سهل عليهم الانتماء إلى دينك وشريعتك وكتابك وترك ما كانوا عليه من ديانة موسى عليه السلام.

ولم يقل فوق الذين كفروا بك أو بشريعتك أو بكتابك الذين اتبعوك فوق الذين كفروا هذا أولاً وثانياً: إن عيسى عليه السلام بشر بنبي يأتي من بعده وبعد مجيء محمد صلى الله عليه وسلم لم يستطع الذين كفروا من النصارى على طول أربعة عشر قرناً أن يعارضوا معجزته القرآن الآية الظاهرة على صدق رسالته فمن قامت عليه الحجة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتبعها لم يكن من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام بل هو ممن خالفوا أمره وشريعته وهو من الذين كفروا، وبهذا الفهم الواضح يكون أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين اتبعوا عيسى عليه السلام وبذلك كان المسلمون فوق النصارى على الرغم من ضعف قوتهم المادية.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

إن النصارى ولحد اليوم يخشون من فتح حوار بين الأديان أو بين شرائع هذه الأديان إنهم مهزومون في قرارة أنفسهم وإن ارتفعت سطوتهم وملكوا وسائل التدمير.

### (إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

هكذا الأمر هو نفسه إن الله ختم رسالاته بالإسلام، وأنبياءه ورسوله بمحمد ﷺ والمالك أعلم بخلقه وشرعه إننا فوقهم منجاً ورسالة إنسانية ونزاهة حياً ورحمة عدلاً وجهاداً وتلك هي قوائم الحياة لا ما هم عليه من ضد ذلك كله.

### (ثُمَّ إِنَّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

إن الله بشر عيسى عليه السلام برفعه إليه وتطهيره من أن يتدنس بمكر أعدائه كما بشر ﷺ بأن الذين يتبعون تعاليمه والتي منها إتباع محمد ﷺ عند بعثته، هؤلاء وأولئك سيكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وفي يوم القيامة سيعرض الجميع على الله وهم فريقان: الأول: اليهود الذين لم يتبعوا عيسى عليه السلام إلى حين بعثته محمد ﷺ والثاني: اليهود مع النصارى من الذين لم يتبعوا محمداً ﷺ.

### (ثُمَّ إِنَّكُمْ مَرْجِعُكُمْ)

وعد ووعد بشارة وندارة مرجع الكل إلى الله لا ظلم اليوم ولا تحريف.

### (فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

الخطاب يتحدث عن مسألة خاصة وهو موقف الكفر والإيمان بالرسول والاختلاف في ذلك ولهذا جاء النص على الحكم فيما كانوا فيه يختلفون فقط وإن كان الحكم عاماً وشاملاً في ذلك اليوم.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ ٨ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

قلنا المقصود بالذين كفروا ليس الذين يكفرون بالله ولا بعموم الأنبياء والمرسلين وإنما المقصود بهم أناس من أتباع موسى عليه السلام يؤمنون بالله وبموسى والتوراة ولكنهم يريدون أن يقفوا في وجه إرسال الرسل من بعد موسى عليه السلام إنهم يريدون أن يتحكموا على الله فلا يرسل بعد رسولهم رسولا إنهم لا ينتمون إلى اليهودية حبا في الله بل ينتمون إلى الله حبا باليهودية والفارق كبير وكبير جداً بين أن تحب غير الله من أجل الله وبين أن تحب الله من أجل غيره الأول إيمان والثاني كفر الأول ينظر إلى الله أولاً والثاني ينظر إلى الخلق أولاً.

﴿ فَعَذَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

﴿ فَعَذَبْنَاهُمْ ﴾

إنه عذاب مفزع حقاً إنها المواجهة مع الحق نفسه جل جلاله لو وجه هذا التهديد ملك من ملوك الدنيا إلى أحد رعاياه لارتعدت منه الفرائص ولكابد الليل قلقاً وأرقاً فكيف به إذا صدر من ملك الملوك وبصيغة المضارع التي تقتضي التجدد؟.

﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

الشدة: القوة وشديد صيغة مبالغة فهو عذاب قوي جداً.

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

يكفي من عذاب الدنيا لهم أن الله لا يكلوهم بل يكفي من العذاب أن يُحرم

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الإنسان من لذة الإستناد في كل شؤونه إلى الله رب العالمين فكيف به إذا سلط عليه أول ما سلط نفسه وأهله كيف به إذا انفرط عليه أمره وصحته وأسباب حياته أنى له السعادة وقد فرغ قلبه من جلال الله.

### (فِي الدُّنْيَا)

صدق ابن عطاء الله السكندري حيث قال: "جل ربنا أن نعامله نقداً فيعاملنا نسيئة"<sup>(١)</sup>.

### (وَالْآخِرَةِ)

وأقل ما فيها الحرمان من لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم وأما أصناف العذاب المعدة للكافرين في جهنم فتشعر لذكرها الأبدان.

### (وَمَا لَهُمْ مِنْ تَمِيمِينَ)

وأنى لهم ثم أنى لهم إذا كان الله هو نفسه المعذب فمن ينصرهم على الله رحماك يا رب.

وبعد هذا التحليل الموجز لهذه الآية نتساءل: هل هذا الخطاب موجه أصالة للذين كفروا؟ أم هو موجه ظاهراً للذين كفروا ولكن المقصود به أهل الإيمان؟ والراجح هو الثاني فإن الذين كفروا لو صدقوا بمثل هذا الخطاب لآمنوا إنه خطاب للذين آمنوا إخباراً وتخويفاً.

### (وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

في الذين كفروا اكتفى بذكر الكفر منهم لأن من كفر فقد بلغ القمة في استحقاق العذاب ولكن "في الذين آمنوا" فلا يستحق الإنسان على مجرد الإيمان

(١) الحكم العطائية ص: ٣٠



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أعلى المراتب من النعيم، الكفر عملية هدم لا تبقى ولا تذر والإيمان بناءً بناءً بحاجة إلى كل الحاجيات والتكميليات ليكون البناء جميلاً والسكن فيه مريحاً وممتعاً.

### (الصَّالِحَاتِ)

تحتل الألف واللام في الصالحات عدة وجوه: فإن كانت هذه الصالحات معهودة عند من سمع هذا الخطاب كانت عهديه وإن كان مقصود الشارع استيفاء كل أفراد الصالحات دلت على العموم وإن كان المقصود بالصالحات الأعمال المفروضة والتي هي مثل أركان الإسلام كانت الألف واللام دالة على الكمال. ولا يغيب عن البال أن جمع المؤنث السالم إذا تجرد عن القرائن تكون أفراده أقل من جمع المذكر السالم والإثنان أقل من جمع التكسير.

### (فِيؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ)

أي يعطيهم أجورهم وافية كاملة غير منقوصة فجازاهم مع إحسانه لهم وعليهم وإنما جاء في هذه الآية بالفعل الدال على الغيبة لينزههم عن الحضور في مقام الجلال مع الذين كفروا، ثم هل المملوك يستحق أجراً على مالكة؟ إنه أعطانا وجودنا وصحتنا ووفقنا لفعل الخير وإليه ثم جازانا جزاء الأجراء بل جزاء الكرماء الحسنة بعشر أمثالها فله الحمد والمنة والثناء والمجد.

### (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

قد يقال أن هذه التعقيية تليق بالآية السابقة أكثر من موقعها هنا!! فلماذا جاءت هنا؟ ونجيب عن ذلك بما يأتي: إن نفي الحب لا يستلزم الكراهية فلو قيل في الذين كفروا إن الله لا يحبكم لكان لهم متنفس بالخلاص ولتعارض مع إبعادهم بالعذاب الشديد ولكن ذكر التعقيية هنا فيه نوع من إدلال المؤمنين وأن ما يعطيهم

## التفسير التجيلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ربهم كأنه - والله المثل الأعلى - لا منة له عليهم فإن هذا حقهم ولا يمكن أن يظلمهم حقوقهم لأنه لا يحب الظالمين فكيف يظلمهم هو ﷺ؟ ملو جاز لنا التعبير لقلنا: إنها مياطرة ومجاملة من حضرة الحق ﷺ لعباده أو كما يسميها علماؤنا السابقون - بالتنزول الإلهي - إنه يجازيهم بالوفاء الكامل ويقول لهم أنا لا أحب الظالمين نعم الربُّ ربنا.

وبهذا تنتهي قصة عيسى عليه السلام

## الفصل الثالث عشر

في الحجاج بين نبينا  
محمد ﷺ وبين أهل الكتاب



الفصل الثالث عشر

في الحجاج بين نبينا محمد ﷺ وبين أهل الكتاب

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ  
 آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ  
 حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَسَاءَ مَا وَصَّاهُمْ  
 وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ  
 الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَرْشُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾  
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا  
 وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾  
 يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا  
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنتمْ هُنُوْلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ  
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا  
 كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ  
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ آل عمران: ٥٨ - ٦٨.

في هذه الآيات الكريمات يصل الحجاج بين النبي ﷺ وبين أهل الكتاب ذروته ويقف الفريقان وجهاً لوجه في نظرتهما إلى عيسى وإبراهيم فالنبي ﷺ يعلن أن عيسى عليه السلام عبد من عباد الله اصطفاه الله لنبوته ورسالته بعد أن ختم به الإعجاز في خلق الإنسان فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من أب

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

من غير أم وخلق عيسى من أم من غير أب وكذلك يعلن النبي ﷺ أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وهي بديهية لا تحتاج إلى دليل ولا جدل وأهل الكتاب يدعون غير ذلك في عيسى وإبراهيم عليهما السلام.

**(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)**

**(ذَلِكَ)**

اسم إشارة أشار به إلى ما سبق من قصص وأخبار عن عيسى وزكريا ومريم وأمها وهو مبتدأ والفعل "نتلوه" خبره

**(نَتْلُوهُ)**

نقول تلا فلان فلاناً في السفر إذا سافر بعده وجاء هذا تلو هذا إذا جاء بعده ، هذا هو المعنى اللغوي للكلمة ١ فيكون المعنى على هذا أن ما سبق من قصص عيسى وزكريا ومريم وأمها نذكره لك بعد أن ذكرنا لك ما قبله من الآيات السابقة ومن الذكر الحكيم

**(عَلَيْكَ)**

استعمال على يفيد الاستعلاء فالمتلو عليه صلى الله عليه وسلم فيه من الشدة والتقل من ناحية المنزل وليفيد استعلاء المنزل جل جلاله على المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، هذا مع أنه كان ينزل عليه شيئاً تلو شيء

**(مِنَ الْآيَاتِ)**

قال في الكشف خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف "٢" تقديره هو من الآيات ومعنى الآية على قول الزمخشري (خبر بعد خبر) ذلك نتلوه عليك وذلك من الآيات لأن تعدد الخبر على نية تعدد المبتدأ وهذا لا يصح إلا بإخراج نتلو عن

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

معناها اللغوي إلى معنى الإنزال وهو يذهب بجمالية النص بل يروحه أيضاً فإن في معنى الإنزال شيئاً بعد شيء غير الإنزال المطلق والتأكيد على أن ما ذكره الله من أنبياء عيسى وزكريا ومريم وأمها عليهم السلام هو صحيح وهو صدق كما ذكره له من الآيات السابقات ليواجه النصرى بثبات وحزم هو روح هذا النص ويذهب به تأويل الزمخشري رحمه الله ، قال أبو محمد ابن عطية " من لبيان الجنس " ٣ ويكون المعنى عليه أن ما ذكرناه لك عن عيسى وزكريا ومريم وأمها من جنس الآيات السابقات التي ذكرناها لك قبل هذه وما ذهب إليه أبو محمد هو الراجح في التأويل فإنه يبقى على جمالية النص وروحه في أن واحد وانتقد أبو حيان ما ذهب إليه أبو محمد ابن عطية بما لا يلزم قال : " إن تفسير من البيانية بالموصول فيكون ما قبلها مساوياً لما بعدها كأن يكون الممتلئ من قصص عيسى ومن قبله هو جميع الآيات " ٤ وهذا غير لازم فإذا قلت: اشتريت كيلة من القمح لا يصح أن تقدر بالموصول فيقال: اشترى كيلة التي هي القمح كله وأحسب أن ذلك لا يقول به أحد في كل موضع.

### (من الآيات)

أجاز الزمخشري أن يكون اسم الإشارة "تلك" بمعنى الذي و "نتلوه" صلته و "من الآيات" خير المبتدأ "تلك" فيكون المعنى على هذا التفسير الذي نتلوه عليك من الآيات وهذا وإن أجازته الكوفيون<sup>(١)</sup> إلا أنه يضعف معنى الآية وقوة نفعها في ميدان الحجاج مع الخصوم وأي فائدة جديدة في الإخبار عن ذلك بأنه من الآيات؟

### (والذكر المكي)

(١) نظر الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٣. البحر المحيط ج: ٢/ ص: ١٨٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

معطوف على الآيات قال أبو حيان: ومن جعلها للقسم وجواب القسم: "إن مثل عيسى" فقد أبعد<sup>(١)</sup>.

### (وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ)

أي أن ذلك المثل من جنس آيات الله ومن القرآن الكريم فإن القرآن هو الذكر وهو الذكر الحكيم وقيل: الذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذي نقلت منه هذه القصص وجميع الكتب<sup>(٢)</sup>.

ويطلق الذكر ويراد به ضد النسيان ويطلق ويراد به الصيت والثناء قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف، ويطلق الذكر على ذكر اللسان وعلى ذكر القلب<sup>(٣)</sup>.

### (الْحَكِيمُ)

يطلق الحكيم ويراد به العالم ويطلق ويراد به: صاحب الحكمة ويطلق أيضاً على: المتقن للأمر<sup>(٤)</sup>.

### (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على رسول الله ﷺ<sup>(٥)</sup>.

(١) البحر المحيط ج: ١ / ص: ١٨٣.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٤٢.

(٣) مختار الصحاح ج: ٣ / ص: ٩٩.

(٤) مختار الصحاح ص: ٦٩.

(٥) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٤٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد أنت سلمت أن عيسى لا أب له من البشر فوجب أن يكون أبوه الله تعالى الله عما يقول الظالمون فكان الرد عليهم بآدم فإنه لا أب له ولا أم باتفاق أهل الأديان فلتقولوا: آدم ابن الله!!!<sup>(١)</sup> إن عيسى مثل آدم بل آدم أولى بالنبوة إذا كان ما تزعمون صحيحاً لأنه لا أب له ولا أم إنه قياس بالأولى كما يسميه الأصوليون.

### ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾

ذهب بعض المفسرين إلى تفسير كلمة "مثل" بالصفة ولهذا يكون تقدير الآية عندهم أن صفة عيسى من حيث التكوين بدون أب كصفة آدم بدون أب ولا أم<sup>(٢)</sup>، وقريب من هذا ما قال الزمخشري "إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم" وأورد الزمخشري على نفسه إيراداً وهو: "فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب ولا أم؟ قلت: هو مثله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه"<sup>(٣)</sup>، ولكن أبا محمد بن عطية ذهب للتفريق بين قولنا: هذا مثل هذا بكسر الميم وسكون التاء وبين قولنا: مثل هذا كمثل هذا فإن المثل

(١) التفسير الكبير: ج ٣ / ص: ٢٤٢.

(٢) نفسه: ج ٣ / ص: ٢٤٢.

(٣) الكشف: ج ١ / ص: ٤٣٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

عنده يختلف عن المثل المثل بالفتح يعني الصورة الذهنية للشيء فيكون معنى الآية أن ما تتصوره النفوس والعقول من عيسى هو مثل المثل الذي تتصوره من آدم إذ أن الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه بدون فحل يقول رحمه الله وكذلك قوله تعالى: "مثل الجنة" عبارة عن المتصور منها" قال رحمه الله: "وفي هذه الآية صحة القياس - يقصد أن فيها دليلاً على صحة القياس - أي إذا تصور أمر آدم قيس عليه جواز أمر عيسى" وبهذا ينحل الإشكال في دخول الكاف على مثل قل رحمه الله: "والكاف في كمثل آدم" اسم على ما ذكرناه من المعنى" أي على تقدير الجملة هكذا مثل عيسى مثل مثل آدم عليهما السلام وأحسب أن الفارق واضح بين المثل والمثل فإنك عندما تقول هذا مثل هذا تقصد الشبه في الوجود الخارجي وأما إذا قلت: هذا مثل هذا على الصورة الذهنية فلا يصح لأنه لا يتصادق في الوجود، الوجود الخارجي مع الوجود الذهني على شيء واحد فيجب أن تقول مثل هذا كمثل هذا وهنا تقع المشابهة في الصورتين الذهنيتين وهو كلام واضح على الرغم من عدم ظهور هذا الفارق لأبي حيان رحمه الله<sup>(١)</sup> وقول أبي محمد هو نفسه ما جعله أبو حيان قولاً ثالثاً في تفسير المثل حيث قال رحمه الله: "وجعل بعضهم المثل هنا من ضرب الأمثال وقال: العرب تضرب الأمثال لبيان ما خفي معناه ودق إيضاحه لماً خفي سر ولادة عيسى من غير أب لأنه خالق المعروف ضرب الله المثل بآدم الذي استقر في الأذهان وعلم أنه وجد من غير أب ولا أم كذلك خلق عيسى عليه السلام بلا أب ولا بد من مشاركة معنوية بين من ضرب به المثل وبين من ضرب له المثل من وجه واحد أو من وجوه لا يشترط الإشتراك في سائر الصفات

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٨٤ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

والمعنى الذي وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى عليهما السلام كون كل واحد منهما خلق من غير أب<sup>(١)</sup>، فأنت ترى النص على المشاركة المعنوية وهي ذهنية لا خارجية فلهذا درك بن عطية.

### (عِنْدَ اللَّهِ)

أي فهذا المثل المضروب إنما هو عند الله" إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم" والصورة العلمية الثابتة في علم الله- ولا يقال الصورة الذهنية لعدم جواز إطلاق ذلك في جناب الله تعالى.

### (خَلَقَ مِنْ تُرَابٍ)

ذكر الله خلق آدم ونص على جميع المراحل في خلقه فذكر أنه خلقه من تراب ومن ماء ومن طين ومن طين لازب ومن صلصال من حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وهي جملة تفسيرية لصورة المعلوماتية عند الله ﷻ .

### (ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

جاءت ثم التي تفيد الترتيب مع المهلة لتحكي لنا مراحل خلق آدم وإن شئت أن سمّاه مراحل لتطوره من تراب ثم ماء ثم من الاثنتين طيناً ثم طيناً لازباً ثم من حمأ مسنون ثم صورته ويبسه فصار كالفخار إنها مراحل تقتضي الزمن من حيث حاجة المخلوق لا من حيث قدرة الله ثم قال للصورة الكاملة "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي" كان آدم ولا أب ولا أم، وقد مر بنا شرح تعلق الخطاب بمن قبل أن يكون المخلوق في الخارج.

(١) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ١٨٤-١٨٥ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ولعل ما ذهب إليه ابن عطية في تفسير المثل كان حكاية لكون الحق يقول للصورة العلمية كن فتكون خارجاً والله أعلم.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

الحق من ربك: أي هذا الحق أو هو الحق فالحق خبر مبتدأ محذوف يدل عليه السياق وهو تأكيد للدعم المقدم لرسول الله ﷺ أن ما قلناه لك وما نقوله الحق لا غيره وهي صورة لما ينبغي أن يكون عليه الداعية إلى الله من اليقين والثبات وهو ما يحتاج إليه أكثر الدعاة اليوم.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

لا: ناهية و"تكن": فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والضمير المستكن في تكن اسمها ومن الممترين الجار والمجرور خبرها والتقدير: فلا تكن ممترياً، وقد ذكرنا غير مرة أن النهي إنما يصح أن يوجه إلى القادر على القيام بالمنهي عنه فتقول للقادر على القيام وهو غير قائم: لا تقم فإن كان عاجزاً عن القيام فلا يصح أن تقول له لا تقم وكذلك إذا كان الشخص متلبساً بالقيام فلا يقال للقائم لا تقم بل يقال له اقعد أو غير ذلك مما هو غير القيام، وإنما قدمنا هذا لأن بعض المفسرين استظهر من هذا النهي إشكالا فقال: إنه "خطاب في الظاهر مع النبي ﷺ وذلك غير جائز" وأجاب عما استشكله بجوابين: أولهما: أن الخطاب للأمة وإن كان ظاهره مع النبي ﷺ، وثانيهما: أنه خطاب مع النبي ﷺ والمعنى: فذم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الإمتراء<sup>(١)</sup>.

﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٤٥. وانظر البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٨٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الامتراء في الشيء: الشك فيه والمرية: الشك بكسر الميم وقد يُضمُّ، والفعل الثلاثي منه: مَرَوْ يَمْرُو يقال: مرَّاه حقه: جرده وماراه: جادله<sup>(١)</sup>، فنقل الفعل إلى باب-افتعل- امترو فصار بقلب الواو ألفاً أمترا وقال الراغب: الامتراء: استخراج الرأي للشك العارض ويجعل عبارة عن الشك ولم يكن ﷺ ممترياً ليكون فيه ذمٌّ من شك في عيسى عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

وأحسب أن خطاب النبي ﷺ في مثل هذا للدلالة على بقاء البشرية فيه ﷺ وإمكان وقوع ذلك منه ولهذا سمي الأنبياء بالمعصومين.

**(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدِّ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعَالَمِ فَقُلْ مَا لَوْ أَنْتُمْ أَنْبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ أَنْتُمْ نَبْتُهُمْ فَنَجْعَلُكُمْ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ )**  
**(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ)**

أي فمن حاججك في عيسى عليه السلام وادعى فيه غير ما علمناك عنه مع وضوح الحجة فيه وإزالة الشبهة التي ضلوا طريق الإسلام لله بسببها فلا تشغل نفسك بحجاجهم فليس بأيديهم حجة تدعوك مسؤولية الدعوة إلى الله العمل على إبطالها وليس في أنفسهم شك هم بحاجة إلى كشفه وبيانه إن الطريق واضحة وهم كفروا بالوحدانية مع استيقانهم بها ويقينهم بأن قائدهم العناد في الرأي والاعتزاز بالشرك إنهم مع نفوسهم ومطامعهم إنهم مع أحقادهم وحسدهم ولهذا لا ينفع معهم إلا معارضة هذه النفوس بما تحب بوضع أنفسهم وأبنائهم ونسائهم أمام خطر جدي إذن إنه التحدي لتعريض النفوس والأبناء والنساء للهلاك للعنة توضع على من هو

(١) مختار الصحاح ص: ٢٦٠.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٨٧.

## التفسير التجليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كاذب من الفريقين أنا ومن آمن معي وأنتم ومن أصر على كلمة الشرك معكم، فلو كان النصراري لهم في أنفسهم بعض يقين أو شبه يقين لأقبلوا مزهويين بالفخر وهم يطمعون بالنصر وأنى لهم.

إن قانون المباهلة باق إلى يوم القيامة يقبل العمل به معهم كل دعاة الإسلام وحماته من أي لسان كانوا وأي لون أرادوا إنا نتحداهم دائماً وأبداً أن ندعو أبناءنا وأبناءهم ونساءنا ونساءهم وأنفسنا وأنفسهم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين في عيسى عليه السلام نحن نقول أنه بشر وهم يقولون أنه ابن الله.

### (حَاجَكَ)

أصلها حاجبك من باب المفاعلة أي أنت تعرض حجتك وهو يعرض حجته.

### (فِيهِ)

أي في عيسى عليه السلام أي في أنه عبد من عباد الله جل شأنه.

### (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْأَمْرِ)

أي من الأدلة الواضحة التي لم تدع شيئاً من شك في نفوسهم.

### (فَقُلْ تَعَالَوْا)

تعالوا: قرأ الجمهور بفتح اللام لأن أصل الكلمة: عَلَوْ يعلو فإذا نقلتها إلى باب تفاعل قلت: تعالوا فإذا جعلتها للجمع قلت: تعالوا فإذا صغت منه فعل الأمر حذفتم واو الفعل فبقيت تعالوا لأن الواو الأولى تحذف في الجزم مثل لم يتعالوا وفي الأمر كذلك ومن قرأ بضم اللام خرج عن الأصل في الكلمة وعن القياس

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أيضاً لأن المعتل الآخر من الأفعال يحذف منه حرف العلة في النهي وفي الأمر كما ذكرنا<sup>(١)</sup>.

وتعالوا: معناها المجيء إلى مكان عالٍ ولا يدعى إلى التعالي إلا من كان في سفلٍ إلا أن كثرة الاستعمال لهذه الكلمة بمطلق المجيء صارت تستعمل بمعنى هلمَّ أو أقبل قال في الكشاف: (تعالوا) هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم كما تقول تعال نفكر في هذه المسألة<sup>(٢)</sup> وأحسب في التعبير بتعالوا إشارة لسفالتهم.

### (تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ)

أي تعالوا أيها النصارى ندع نحن وإياكم أبناءنا وأبنائكم والمقصود أن النبي ﷺ ومن حضر معه من المسلمين في ذلك المجلس ويقابلهم في الطرف الآخر وفد نجران ، ولو أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخص نفسه لقال : تعالوا ندع أبنائي وأبنائكم إلى آخر من يدعون أحسب أن النص ظاهر في هذا المعنى ولو جيء برجل يعرف العربية ولم يطلع على ما يقوله المفسرون لم يفهم إلا هذا المعنى.

ثم إذا حملنا النص على النبي ﷺ وخاصته كما يقال، ألا يضع شبهة في نفوس النصارى أن العرب الذين معه على الإسلام لم يطمئنتوا على صدق مقالته ﷺ وإلا لأشركهم في الدعوة، ثم كيف يوافق وفد نجران أن يقفوا كلهم وأبنائهم ونساءهم وهم مجاميع كبيرة ليراهنوا على أنفسهم مع من ينظرون إليه ﷺ بالعداوة ولا يحضر إلا هو وعليه ﷺ، وفاطمة والحسن والحسين ﷺ أيكون هذا رهان عادل؟

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ص: ١٨٨.

(٢) الكشاف ج: ١/ص: ٤٣٣-٤٣٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يقف مجموع يزيد على المائة يستمطر اللعنة على رهان؛ كذب أو صدق لهذا الخبر مع عدد لا يتجاوز خمسة أشخاص؟! وأيم الله لو كان الأمر كذلك لكان بيدهم الحق في رفض هذه المباهلة ولكنها النزعة المذهبية والطائفية التي تدفع بالإنسان إلى نسيان الهدف الأصيل للرسالة ولوحدانية الله ﷻ، اللهم كما أنك خالقنا ومالكنا فوجه قلوبنا إليك وأنسنا الانتماء إلى غيرك واحفظنا لك يا رب العالمين.

### (وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ)

أي أنفس المسلمين من الذين حضروا المناقشة مع وفد نجران وأنفس النصارى من الذين حضروا في الوفد هذا ما نفهمه ويفهمه معنا كل من لم تكن له أفكار يريد أن يلبسها بلباس النص، ولا شك أن هذا شأنه وهو المسؤول أمام الله عنه.

### (ثُمَّ نَبْتَهَلُ)

لم تستعمل هذه الكلمة "تبتهل" ولا شيء من مشتقاتها في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع فقط فهي الكلمة اليتيمة في القرآن الكريم وهي تحتل وجهين:  
الأول: "تبتهل" بمعنى نجتهد في الدعاء لأن الابتهال من باب الافتعال فيدل على الاجتهاد في الشيء مثل الاكتساب.

الثاني: أن تكون "تبتهل" مأخوذة من قولهم: بهله الله أي لعنه فنبتهل على هذا المعنى بمعنى نتباهل مثل نقتتل بمعنى نقاتل، والمباهلة بهذا المعنى أن يقول كل طرف: عليه بهلة الله إن كان كذا.

رجح القول بالوجه الأول الإمام الرازي قائلاً: والقول الأول أولى لأنه يكون قوله "ثم نبتهل" أي ثم نجتهد في الدعاء ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى الوجه الثاني يصير التقدير: ثم نبتهل أي أي ثم نلتعن "فنجعل لعنة الله على الكاذبين



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وهي تكرار<sup>(١)</sup>، وذهب في الكشف إلى الثاني وبدأ به<sup>(٢)</sup> وأحسب أنه الراجح من الوجهين والتكرار الذي توهمه الرازي غير مانع لأنه تكرار يقتضيه التباهل من الجانبين فإذا قال لهم: ثم نتلاعن فنجعل اللعنة على الكاذبين لا يعد ذكر اللعنة بعد التلاعن معيياً بل هو الذي يقتضيه السياق.

### ﴿فَنَجْعَلُ لَمَن تَاءَىٰ﴾

ترى أن القرآن يجعل الكلمة التي نقولها واقعة كما قلناها وقد نبهنا على ذلك في الكلام على تحليل قول أم مريم "أعيذها" ولم نقل: اللهم أعذها وكذلك هنا: فلا يقال: اللهم العن الكاذبين ليكون طلباً يتردد بين القبول والرد بل تأتي الجملة بصيغة الخبر كأن يقولوا: لعنة الله على الكاذبين وفي ذلك دلالة على أن الله يكون معنا على ما نكون عليه وبذلك على ذلك: أنك لا تقول في الاستعاذة: اللهم أعذني من الشيطان بل تقول: أعوذ بالله من الشيطان فإذا اتخذت الله ملاذاً ومعاداً فقد كان.

وإذا تأملت النص القرآني وجدته قد أغفل الكلام عن نتيجة هذا العرض فلم يحك لنا عن النصارى هل قبلوا التحدي فابتهلوا أم خافوا على أنفسهم فأبقوا عليها، إن الله ﷻ يريد أن يبقى النص حياً مفتوحاً أمام الدعاء إلى الله وبذلك كفل القرآن الكريم للنص البقاء في حلبة الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا السبب اخترت التخفيف من كلام طويل ذكره المفسرون في ما لا طائل تحته في تفسير النص من حيث بيان النتيجة.

(١) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الكشف ج: ١ / ص: ٤٣٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

**(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَيْتَ اللَّهُ لَهَوَ الْمَرِيضِ الْحَكِيمِ)**

الإشارة إلى ما قص الله ﷺ عن عيسى وغيره من القصص وأعيد التأكيد على أحقية ما ذكره في قصة عيسى وأمه وغيرهما ليدعم الثقة في نفوس الدعاة وهم يرون وفداً من علماء النصارى يصرون على مقاتلتهم في عيسى وأنه ابن الله أو أن الألوهية حلت فيه، كما أن النص القرآني كما يصارع النصارى في فريتهم في الغلو في عيسى عليه السلام يصارع في نفس الوقت اليهود الذين يحطون من قدر عيسى عليه السلام فهو برزخ بين الجهتين أو وسط بفتح السين يقول للنصارى لا تغلوا ولليهود لا تسفلوا بعيسى عليه السلام.

**(هَذَا)**

اسم إن و"هو": ضمير فصل "القصص": خبر إن ويجوز أن يكون "هو" مبتدأ و"القصص" خبره والجملة خبر "إن"، وهذه الوجوه الإعرابية لا تعطي مذاقاً تحليلياً إلا في مسألة هامشية وهي إن اعتبار الخبر جملة أقوى منه مفرداً وأن اللام في "لهو" تفيد زيادة تأكيد إن هذا القصص هو الحق لا غيره ومن أجل هذين الوجهين ذكرنا وجهي الإعراب.

**(الْقَصَصُ)**

مصدر من قصّ تقول: قصّ يقصّ قصاً وقصصاً بالإدغام والفتح ويجوز أن يكون القصص بمعنى: المقصوص كالقبض بمعنى: المقبوض<sup>(١)</sup> والأكل بمعنى المأكول.

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ١٩٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وقال الرازي: أصل القصص "اتباع الأثر يقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان وقصاً وذلك إذا اقتصر أثره ومنه قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِي﴾<sup>(١)</sup> أي اتبعي أثره وقيل للقصص إنه قاصص: لإتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً فمعنى القصص: الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة"<sup>(٢)</sup>.

### ﴿الْحَقُّ﴾

حَقٌّ يَحِقُّ بكسر الحاء حقاً أي وجب وثبت وتحقق عنده الخبر: صح<sup>(٣)</sup>.

والصدق: ضد الكذب، وقد صدق في الحديث يصدق صدقاً<sup>(٤)</sup>.

إذن فلنا أن نسأل: هل يوجد فارق بين قولنا: هذا القصص الحق وهذا

القصص الصدق أو الصادق؟

فالأمر الواقع في الخارج مثل حياة زيد يقال عنه حق لأنه موجود ثابت والإخبار عن حياة زيد بالكلام أو بغيره يسمى صدقاً ولا يسمى حقاً لأن كلامه متصادق مع الواقع الخارجي، ولا يقال للكلام حقاً لاحتماله الصدق والكذب في آن واحد فإذا تحققنا من الخبر كأن ذهبنا إلى زيد فوجدناه حياً نقول صح الخبر بحياة زيد، وإذا عرفنا هذا فلنعد إلى الآية.

### ﴿إِنَّ مَدَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

الإشارة إلى ما أخبرنا الله عنه فهل يريد الحق عنه أن يقول لنا: إن ما

(١) القصص: ١١.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٠.

(٣) مختار الصحاح ص: ٦٨.

(٤) سورة ص: ١٥٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أخبرتكم به حق باعتبار مطابقته للواقع؟ أو يريد أن يقول لنا: أن كلامي عما أخبرتكم به كان صادقاً ليس فيه احتمال للكذب؟

من الواضح أن الثاني لم يكن ليخطر ببال مسلم فضلاً عن محمد ﷺ إذا كان لا مناص من اعتبار "الحق" صفة للقصص فالراجح أن تكون كلمة القصص المراد بها المقصوص وليس القص بمعنى الفعل الذي هو الكلام لأنه عند ذلك أي لو أراد الكلام لكان يقول: إن هذا لهو القصص الصدق هذا ما بدا لي في تحليل هذه الكلمة والله أعلم بمراده من كلامه.

(وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)

(ما)

نافية وهي في النفي فرع عن لا النافية فإن لا النافية هم أم الباب في النفي ولهذا يكون النفي بلا أقوى منه بما ويدلك على ذلك أن العرب في لسانها أجازت النصب في الاسم الواقع بعد ما ولم تجزه في الواقع بعد لا فيصح عربية أن نقرأ وما من إله إلا الله بالفتح على الاستثناء ولكن لم ترد قراءة بذلك<sup>(١)</sup>، والفتح أمانة الضعف ويدلك على ذلك أيضاً شيوع مجيء من التي لبيان الاستغراق في الجنس ولو كانت ما مفيدة هذا الاستغراق في نفي ما بعدها لما كان من داع إلى استخدام من، كيف وأنت ترى أن جواز نصب الجلالة وارد مع مجيء من؟ وعلى هذا كانت لا إله إلا الله أبلغ في النفي من ما من إله إلا الله<sup>(٢)</sup>، ولهذا أيضاً كانت كلمة الوحدانية التي يدخل بها الإنسان الإسلام إنما هي: لا إله إلا الله وذلك: لأن لا

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ١٩٢.

(٢) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٠-٢٥١ حيث عكس المسألة ولهذا نبهنا عليها.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

إذا انتصب الاسم بعدها دلت على نفي الحقيقة نفيًا مطلقاً بحيث لا تدع مجالاً لتوهم أن فرداً من أفراد المنفي لم يدخل في النفي فإذا استثنيت واحداً من هذه الأفراد بقي النفي شاملاً لغيره من أفراد المنفي، وأحسب أن التعبير في هذه الآية بصيغة "ما من إله إلا الله" لأنه في مقابلة خصوم يقولون بوجود إله في عيسى عليه السلام فلو قال هنا: لا إله إلا الله لكان فيه مصادرة لآرائهم وفي ذلك قطع سبيل الدعوة بينه وبينهم فهو تنزل من أجل كسب الخصم إلى الحق فيما أحسب.

﴿وَلَيْكَ اللَّهُ لَهْوًا الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الكلام في إعراب هذه الجملة كالكلام فيما قبلها فلا نعيده.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قال أبو حيان: إشارة إلى وصفي الإلهية وهما: القدرة الناشئة عن الغلبة فلا يتمتع عليه شيء والعلم المعبر عنه بالحكمة فيما صنع والإتقان لما اخترع فلا يخفى عليه شيء وهاتان الصفتان منفيتان عن عيسى عليه السلام (١).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾

يصح أن يكون الفعل "تولوا" ماضياً ومضارعاً حذف تاءه (٢) وتولوا عن ماذا؟ لم يذكر النص ذلك وهو مفهوم من قرينة السياق أي تولوا عن الإقرار بالوحدانية لله. قال الزمخشري: فإن تولوا عن التوحيد (٣) وهو تعبير بعيد عن

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه ج: ٣ / ص: ١٩٢.

(٣) الكشاف ج: ١ / ص: ١٣٥.

## التفسير التحليلي للشرط الأول من سورة آل عمران

السلامة ديناً ولغةً فإنك لن تجد كلمة التوحيد جارية على لسان الشارع لا في كتاب ولا في سنة ثم هو خروج عن استعمال اللغة إلا بتكلف التأويل فإن التوحيد تفعليل أي جعل ما ليس بواحد واحداً بإزالة غيره وذلك لا يصح في جانب الحق فإنه الواحد الأحد فلا تقول بالتوحيد إلا مع افتراض وجود الشريك ولا وجود له أصلاً فقل بوحدانية الله لا بتوحيده.

الفارق بين ولّوا وتولّوا أن الإخبار عنهم بأنهم ولّوا يدل على مطلق الانصراف لأن دلالة الفعل المجرد إنما هي على أصل الحدث وأما تولّوا فهي على الحركة والتجدد في دلالتها على الحدث لأن نقل الفعل من فعّل إلى فعّل فيه زيادة وينقله إلى تفعلّ فيه زيادة أخرى فالتولي في الآية وإن كان الراجح فيه أنه ماضٍ وليس مضارعاً إلا أن في التعبير بتفعلّ لذهابهم وعدم سماعهم لما يقال لهم من الحجة مزيد بيان عن حالهم.

وكان الظاهر أن يكون جواب الشرط في هذا التعبير: فإن تولّوا فهم مفسدون ولكن القرآن لا يريد أن يفزعهم إنه كلام الله والله أرحم بعباده من أنفسهم إنه يريد أن يبقى لهم شيئاً لعلهم يُسلّموا وجوههم لله ويقرّوا بوحدانيته ﷻ ولهذا عدل عن القول: فهم مفسدون إلى " فإن الله عليهم بالمفسدين" كأنه يقول لهم صلى الله عليه وسلم من هم نحن أم أنتم؟! وهذه قضية يؤمنون بها وإذا فهمت هذا فلا داعي لتأويل العلم بالعقاب كما ذهب إليه أبو حيان<sup>(١)</sup> وإلى ما ذهبنا إليه ألمح الزمخشري حيث قال: " فإن الله عليهم بالمفسدين" وعيدٌ لهم بالعذاب المذكور في قوله

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ١٩٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تعالى: ﴿رَدَّتْهُمْ عَنَّا فَوْقَ الْعَنَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> وفي هذا الأسلوب في محاوراة الخصوم زاد للدعاة وأي زاد.

### (المفسدين)

من هم المفسدون ألا ترى أن أكثر الطغاة في العالم يغضب لو قلت له أنت مفسد؟ ألا ترى أن أكثر الدول إغراقاً في الإنحراف عن الفضائل لا يرضيها الوصف بالفساد؟ هل الفساد حقيقة نسبية يصح الاختلاف فيها أو عليها؟ عشرات الأسئلة يمكن أن تطرح للتفتيش عن أجوبة.

من هم المفسدون؟ يمكن أن يُصنَّف الفساد من حيث النظر إلى الإنسان إلى فساد فكري وفساد نفسي ويمكن للباحث أن يصل إلى نتيجة مفادها أن الإنسان إذا كان صحيح الفكر والنفس فلا يمكن توصيفه بالفساد لأن الفساد علة تعود أسبابها إما إلى فكر الإنسان وإما إلى شخصيته النفسية وآيات القرآن وهي تؤشر إلى المفسدين لا تخرج عن هذين الميدانين فيما أحسب.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَانَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِلَّا تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا

### مُسْلِمُونَ﴾

في هذه الآية الكريمة شدد القرآن الكريم الخناق على الذين اختصمهم الله برسالته وأنزل عليهم كتبه وكلماته فبعد أن ضايقهم من الناحية النفسية في الابتهاال إلى الله وإنزال اللعنة على الكاذب من أي الفريقين كان وبدون تخصيص وظهر

(١) النحل: ٨٨.

(٢) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ترددهم ونكسوا على أقدامهم وكانوا بين إحدى الفضيحتين إما نزول اللعنة عليهم وعلى أبنائهم ونسائهم وإما فضيحة المكابرة والعناد وانكشاف أمرهم أمام تابعيهم بل ظهورهم بالضعف والخور أمام أبنائهم ونسائهم. بعد هذه المضايقة النفسية شدد عليهم الخناق في التوقيع على البنود المتفق عليها في كل الكتب الإلهية والتي اتفقت عليها جميع الأنبياء والمرسلين فكانوا أمام خيارين لا ثالث لهما: إما التصديق عليها فتبطل دعوى النبوة لعيسى عليه السلام وحلول الألوهية فيه وما شاكل ذلك من الإنحراف في الفكر والعقيدة وإما أن تنزل عليهم لعنة الله بدون ابتهال بل بالرفض لكلمات الله وآياته.

### ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

تسميتهم بأهل الكتاب في مثل هذا الخطاب الذي يدعوهم فيه إلى إبرام الاتفاق على العناصر المشتركة في كل الديانات هذه التسمية من باب التذكير لهم بأن الله اختصهم بكتبه فلا يليق بهم أن يتكروا لعناصر الإيمان بالله.

### "أهل الكتاب"

يقول لهم أنتم أهله فكيف تكفرون بما يأمركم به أو لا توافقون من تزعمون أنهم ليسوا أهل كتاب إذا كانوا هم يدعونكم إلى الاتفاق على ما ينص عليه كتابكم؟ إنه إخراج شديد فعلاً.

وأهل الكتاب هم أهل الكتابين من اليهود والنصارى فالمراد بأهل الكتاب في كل آيات القرآن الكريم أهل التوراة من يهود وأهل الإنجيل من النصارى، وأما الكتب الأخرى فلم يبق منها شيء يثبت النقل أو يصدقه العقل إلا ما تتأثر هنا وهناك من تعاليم مطموسة وتقاليد منكوسة يتعلق بها بعض فئام الناس لا يمثلون أمة ولا ينتهون إلى دين ثابت.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿سَأَلُوا إِيَّاهُ كَلِمَةً﴾

كلمة: تطلق على ما يقابل الكلام ويراد بها الكلمة الواحدة مثل الاسم أو الفعل أو الحرف وتطلق ويراد بها الكلام في مسألة معينة، فيقال للمقالة التي نتحدث عن أمر واحد كلمة والمراد في الآية المعنى الثاني لا الأول كما هو واضح.

### ﴿سَوَّلَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

أي مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل ولا تعجب من ذلك فإن في الإنجيل الموجود إلى الآن في أيدي النصارى والمعترف به من رجال الكنيسة بالاتفاق أنهم أمروا بعبادة الإله الواحد.

### ﴿إِلَّا نَسْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾

هذا هو البند الأول ، العبد ضد الحر تقول عبدٌ بين العبودية والعبودية وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبيد: التذليل يقال : طريق معبّد والتعبيد أيضاً الاستعباد وهو اتخاذ الشخص عبداً وكذا الاعتباد ، والعبادة: الطاعة، والتعبد التتسك<sup>(١)</sup>.

أي أن لا نطيع إلا الله وذلك لأن الطاعة عبادة والعبادة طاعة يقال: فلان طوع يديه أي منقاد له<sup>(٢)</sup>، ويُفهم من هذا أن الانقياد لغير الله هو عبادة لغير الله ولا تسمى الطاعة انقياداً إلا إذا ألقيت مقادك إلى غيرك يقودك حيث يشاء هو لا أنت

(١) مختار الصحاح ص: ١٧٥.

(٢) المصدر نفسه.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أي لم يعد لك خيار هذه هي العبادة حقاً وذلك لأن الانقياد هو الخضوع يقال: فاده فانقاد والمقود: الحبل يشد في الزمام أو في اللجام تقاد به الدابة<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِوَجْهِكَ﴾

وهو البند الثاني: يقال: شرك زيد عمراً في البيع وفي الميراث يشركه مثل علمه يعلمه إذا صار شريكاً في بيعه وميراثه ويقال: هذا شرك فلان أي حصته أو نصيبه من المال المشترك أرضاً أو عقاراً أو غير ذلك، وتقول من الرباعي: أشركت زيداً في مالي إذا جعلته شريكاً لك في مالك فأصبحتما شركاء بهذا المال لكل واحد منكما حق التصرف به لأن له شركاً به<sup>(٢)</sup>.

أي: ولا نجعل شيئاً شريكاً بعبادتنا لله مع الله فالجملة الأولى نفت أن نعبد غير الله ولكنها لم تنص على نفي الشركة والجملة الثانية نفت الشركة في العبادة لتقع العبادة خالصة لله، والتعبير القرآني: لا نشرك يدل على أن الشريك غير موجود إلا إذا جعلته أنت شريكاً.

### ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

هذا هو البند الثالث:

### ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾

الاتخاذ من باب الافتعال والثلاثي منه: أخذ يأخذ فلما نُقل إلى باب الافتعال قيل: إلتخذ يأخذ فقلبت الهمزة واواً فصار إوتخذ ثم قلبت الواو تاءً وأدغمت في

(١) المصدر نفسه: ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٤-١٤٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

التاء فصارت إتخذ يتخذ بتشديد التاء<sup>(١)</sup> وباب الافتعال يدل على التعمُّل مثل: اكتسب فما تتخذهُ أنت لشيءٍ كأنه كان لغير ذلك الشيء أو أنه لا يصلح أن يكون هو بل أنت الذي تجعله كذلك.

ولا يعقل أن يكون الجنس الواحد أو النوع الواحد بعض أفرادهِ رباً والبعض الآخر مربوباً ضرورة اشتراكهما في مفهوم الجنس أو النوع فمثلاً جنس الإنسان كلهم يشتركون في الإنسانية والإنسانية في كل إنسان بالتساوي فلو زاد فرد من أفرادهِ أو نقص في تحقُّق معنى الإنسانية فيه لما جاز ولما صح أن يقال عنه أنه إنسان وهكذا في كل مفاهيم الأجناس والأنواع وفي هذا النص إلزام للنصارى إذ كيف يصح أن يكون عيسى عليه السلام رباً للناس وهو يشترك معهم في الإنسانية؟! وإذا كان الرب يعني المالك فكيف يصح أن يكون الفرع مالكاً لأصلهِ، الإنسانية أصل وعيسى فرع منها وهي سابقة عليه في الوجود فكيف يصح أن يكون مالكاً؟!!!!

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿من دون الله﴾

كأنهم يحسون في داخل نفوسهم أن ما اتخذوه رباً أقرب إليهم من الله أو هم أقرب إليه من الله نسأل الله السلامة، قال الرازي: وإنما ذكر الله تعالى هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح عليه السلام ويشركون بالله غيره لأنهم يقولون إنه ثالث ثلاثة: أب وابن والروح القدس وأما

(١) مختار الصحاح ص: ١٢.

(٢) الحج: ٤٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الثالثة وهو اتخاذ بعضهم أرباباً من دون الله فكانوا يأخذون التحليل والتحرير من أبحارهم لا من الله وكانوا يسجدون لأبحارهم ويطيعونهم في معصية الله<sup>(١)</sup>.

### ﴿إِن تَوَلَّوْا فَكُفِّرُوا بِنَافْسِكُمْ وَمَا يُغْنِي عَنْكُمْ كُفْرُكُمْ شَيْئاً سَيُعَذِّبُ اللَّهُ النَّاسَ فِي الْكُفْرِ أَلَمّاً﴾

"اشهدوا بأننا مسلمون" أراد الله ﷻ أن يذكر بهذه الشهادة بما مر من إسهاد الحواريين لعيسى عليه السلام "واشهد بأننا مسلمون" ومعنى الإسلام هناك هو إسلام الوجه والقلب والشعور لله رب العالمين ويدخل فيه مسمى الإسلام الاصطلاحي من حيث شمول العام لكل أفراد أو من حيث صدق المجمل على أي فرد من أفراد.

### ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ﴾

### ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

يقول الزمخشري: زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقبل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد نزول الإنجيل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين إبراهيم وعيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم عليه السلام على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاوله؟

### ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

"أي فهل أنتم مجانين أفلا تعقلون حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال"<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٥٢.

(٢) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

( هَاتَمْتُمْ مَوَآءَ حَاجِبَتِكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ )

( هَاتَمْتُمْ مَوَآءَ )

ها: للتبنيه و"أنتم" مبتدأ و"هؤلاء" خبره "حاجبتكم" جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى: يعني: أنتم هؤلاء الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم "فيما لكم به علم" مما نطق به التوراة والإنجيل<sup>(١)</sup>.

( فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ )

( فِيمَا )

أي في شيء أو في أمر "لكم" الخطاب مع أهل الكتاب وكأنه لهم خاصة "به" الضمير يعود على ما وإنما قدم الجار والمجرور وهو يفيد الاختصاص مع ما أفادته "لكم" من الاختصاص لبيان اختصاصهم به فعلاً وليبيان أنا لا نكذبكم بهذا الاختصاص وهو أسلوب من أساليب الترفق بالخصم ليهتدي مع علمك بأنه على خطأ في فهم ما عنده من نصوص العلم الإلهي وعلمك بتحريفه لبعضها.

( عِلْمٌ )

العلم: هو صورة الشيء في الذهن ومنهم من يقول: حصول صورة الشيء في الذهن ومنهم من يقول: عند الذهن لا في الذهن<sup>(٢)</sup> ويمكن الاعتراض على تفسير العلم بالصورة بأن ليس لكل ما يعلم صورةً فبعض المعلومات لا

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر شرح ملا عمر علي گلنبوي برهان ص: ٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تخضع للتخيُّل أصلاً كاستحالة الجمع بين النقيضين مثلاً فإنه لا صورة له لا خارج الذهن ولا داخله.

قال بن عطية: "فيما لكم به علم" أي على زعمكم<sup>(١)</sup> وذلك لأنهم يفسرون النصوص على ما تشتهيهِ نفوسهم قال أبو حيان: أي تدعون علمه<sup>(٢)</sup>.

**(فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)**

**(فَلِمَ)**

استفهام المتعجب من حالهم إنهم يقولون ما لا يعلمون مكابرةً وعناداً. ولو أبقوا على أو هامهم لما فضحهم الله إنهم لا علم لهم فيما يؤمنون به ولا يكتفون بهذا بل يريدون أن يثبتوه لغيرهم وفاقداً الشيء لا يعطيه كيف تثبت للناس ما لم يكن ثابتاً عندك؟ وفي هذا تنبيه لكل عامل بالدعوة إلى الله أن يثبتوا مما يعرضون على الناس فإذا تحققوا من ثباته استطاعوا أن يعرضوا على غيرهم ما عندهم، وأحسب أن ما عاب به القرآن الكريم أهل الكتاب أصبحنا الآن نقع فيه في صورة أو أخرى.

**(وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)**

"والله يعلم" كل العلم الإلهي الذي لا طريق للفكر إليه إنما يعلمه الله ويعلمه من علمه الله فطريق العلم به واحد وهو تلقي العلم به من الله تعالى ولهذا قال: "وأنتم لا تعلمون".

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه ج: ٣ / ص: ١٩٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ولأن ما يكابرون بالحجاج فيه من العلوم الإلهية والله ﷻ يقول لهم " أنا ما أنزلت لكم هذا النوع من العلم أو أني أنزلته ولكنكم أعلمتم فيه التحريف والتأويل بما تشتهيهِ نفوسكم وأنا أعلم بذلك. وهذا الخطاب خطاب قرآني فكيف يخاطبهم به وهم بعد لم يؤمنوا له؟ ويجاب عن ذلك: بأن الخطاب القرآني لم يكن يخاطب أهل الكتاب مباشرة وإنما يخاطب من نزل عليه القرآن أولاً وكل دعاة الإسلام ثانياً فالنبي ﷺ هو الذي يخاطبهم به يحاججهم بل ويجاهدهم به جهاداً كبيراً ومن بعده كل الداعين إلى الله.

ويجوز أن يحمل العلم في الآية على العموم أي وأنتم لا تعلمون شيئاً "والله يعلم" لأنه هو الذي خلق كل المعلومات فكيف لا يعلمها وأما أنتم والمخلوقون جميعاً فلا تعلمون لأنني لو لم أخلق المعلوم فماذا تعلمون؟ ولو لم أهب لكم وسيلة العلم فبم تعلمون؟

**﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾**

هل تستحق هذه المقولة أن ترد؟ هل من يصل تفكيره إلى هذا المستوى من الهبوط يستحق البيان أو المناقشة؟ ألم يكن العقلاء من أهل الكتاب يدركون مستوى الجهل والظلام الذي ألم بعقولهم فبيادروا إلى الإيمان بالكتاب الجديد من ربهم وهو يتبسط معهم أشد من تبسط الآباء مع أبنائهم؟ رحماك يا رب كيف يصل من ضل عن طريقك إلى التصديق بأن من مات يمكن أن ينتسب إلى من أتى بعده بالإتباع في الدين أو في الرأي؟

**﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾**

الأصح بل الصحيح في كان الناقصة أنها تدل على الحدث وليس فيها دلالة على الزمن وأنت ترى أن كان التي تدل على مطلق الكون وهو الوجود

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

دخلت عليها ما النافية فيكون المعنى نفي مطلق الوجود أي ما وجد ولا كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً في وقت من الأوقات لأن نفي الوجود يستلزم نفي الزمن الذي يقع فيه ومثل هذا التعبير بالنفي لمطلق الوجود والوجود قوله تعالى: ﴿مَا آتَّخَذَ

اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ ﴿١﴾

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾

أي ولكن كان وجوده وجود الحنيف المسلم هكذا كان وهذا واقعه.

"الحنيف"

هو اسم لمن يستقبل الكعبة في صلاته ويحج إليها ويضحي ويختنن ثم سمي من كان على دين إبراهيم حنيفاً<sup>(٢)</sup>.

﴿مُسْلِمًا﴾

أي مسلماً وجهه وقلبه لله وكل الأنبياء والمرسلين ومتبوعهم في وقت سريان شرائعهم وكتبهم يقال عنهم إنهم مسلمون.

هذا ما تدل عليه آيات القرآن وتوهم من توهم أن إبراهيم كان مسلماً بمعنى الإسلام الاصطلاحي أي دين القرآن المنزل على محمد ﷺ لا يختلف عن وهم اليهود والنصارى في شيء ضرورة تبعية اللاحق للسابق لا العكس.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

هاجر إبراهيم عليه السلام مع والده إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة المكرمة ليعيد

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٠٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بناء البيت الذي وضعه الله لعبادته ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ (١) وعيَّن الله ﷺ لإبراهيم مكان البيت إذ محت آثاره السيول وعوامل التعرية الأخرى يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ (٢)، فماذا يقال عن إبراهيم بعد أن وجد الناس البيت الذي بناه مملوءً بالأصنام ولا يقوم بالعبادة فيه إلا المشركون؟ إن القرآن الكريم وهو يقدم لنا هذا النص كان يعالج بعض الأوهام وأنواعها من التخرصات والظنون في عقول بل أوهام بعض الناس.

وهل يمكن أن يكون حنيفاً مسلماً ويكون في ذات الوقت من المشركين؟ يمكن الجواب عن هذا التساؤل: بأن الفقرة الثانية جاءت مؤكدة لمضمون الفقرة الأولى لأن إسلام الوجه والقلب لله لم يُثَقِّقْ لمن أسلم شيئاً يشرك به هذا أولاً وثانياً: إن المنتبِع لأيات القرآن الكريم يجد هاجس الشرك قريباً من قلوب الكثير من الناس مع إعلان الإيمان منهم، وإذا كان الشرك يتناول حتى خلجات القلوب في ميلها إلى نظر المخلوقين مع الله كانت الطهارة من لوثة الشرك مطلقاً لا يصل إليها إلا الصديقون.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُبْأَىٰ لِيَبْرَأَهُمُ اللَّهُ لَدِّينَ الَّذِينَ آتَبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

في هذه الآية الكريمة انعطف القرآن الكريم في الحديث من جهة إلى جهة أخرى فبعد أن كان النبي ﷺ هو الذي يقوم بدور المخاطب بأمر من ربه ﷻ مع أهل الكتاب تدخل الحق لحسم النزاع في إبراهيم ﷺ بهذا البيان الإلهي إنها شفرة انتقال يستخدمها القرآن الكريم في التحول من خطاب إلى آخر.

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) الحج: ٢٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ)

قال ثعلب: لم يقل أحد في أولى أحسن مما قاله الأصمعي: وفلان أولى بكذا: أي أحرى به وأجدر ويقال: هو الأولى وفي المرأة: هي الولي<sup>(١)</sup>، وقريب من قول ثعلب ما قاله علي بن عيسى: أولى الناس بإبراهيم: أحقهم بنصرته<sup>(٢)</sup> ولكن الزمخشري في الكشاف فسر أولى بغير هذا قال: إن معنى الآية: إن أخصهم به وأقربهم منه من الولي بسكون اللام وهو القرب<sup>(٣)</sup> ويرد على تفسير الزمخشري أن أولى لو كان بمعنى القرب لقال إلى إبراهيم أو من إبراهيم ثم التعقيبية في آخر الآية "والله ولي المؤمنين" لا تناسب تفسيره.

### (لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ)

أي في زمانه وبعد إلى مجيء ناسخ لدينه وهؤلاء هم الطبقة الأولى .

### (وَهَذَا النَّبِيُّ)

العطف على خبر إن وهو "الذين اتبعوه" وهو ٱ الطبقة الثانية وذكر أبو حيان هنا وجوهاً للإعراب لا فائدة فيها في تحليل النص إلا صناعة الإعراب.

### (وَالَّذِينَ آمَنُوا)

أي المسلمون الذين آمنوا بالقرآن وإنما جاء هنا التعبير بالذين آمنوا بدل الذين اتبعوا لأن الإيمان بالقرآن يستدعي الإيمان بجميع الكتب وجميع من أنزلت

(١) مختار الصحاح ص: ٣٠٦.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٠٣.

(٣) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

عليهم والذين منهم إبراهيم عليه السلام وكتابه، وبذلك استحق أتباع محمد عليه السلام أن يوصفوا بالإيمان المطلق فلم يقل آمنوا بمحمد ولا بالإسلام ولا .. ولا .

### ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

بالنصرة والمعونة والتوفيق والإنعام والإكرام<sup>(١)</sup>.

والولي: ضد العدو يقال منه: تولاه وكل من ولي أمر واحد فهو وليه وقال ابن السكيت: الولاية بالكسر: السلطان وبالفتح: والكسر: النصرة وقال سيبويه: الولاية بالفتح المصدر والولاية بالكسر: الاسم<sup>(٢)</sup>.

ولما والاه المؤمنون بالإيمان به وبكتبه وبرسله والاهم بالنصرة والتأييد

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾<sup>(٣)</sup> فمن عادى المؤمنين فقد

جعل نفسه مع الله في العداة وجهاً لوجه إذا نازعتك نفسك في عداة مؤمن فانظر

لنفسك من تعادي، لو تعامل المسلمون وهم يستحضرون هذا الشعور لساد بينهم

الوفاق ولأحبوا جميع أهل الإيمان من أجل وليهم ولما اعتدى أحد منهم على أحد إذ

كيف يعتدي مؤمن على من كان الله وليه؟ اللهم أغفر وأرحم.

(١) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٥.

(٢) مختار الصحاح ص: ٣٠٦.

(٣) الحج: ٣٨.



الفصل الرابع عشر

في مكاييد أهل

الكتاب لدين الإسلام

وأهله



الفصل الرابع عشر

في مكايد أهل الكتاب لدين الإسلام وأهله

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا الْكُتُبَ أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٧﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَجِبَ وَيَتَذَكَّرْ قَلَّ إِنَّ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤَقِّعَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قَلَّ إِنَّ الْقَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٧٠﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ ءَامَنَهُ يَقْظَارِ يُوَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ ءَامَنَهُ يَدِينَارِ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهُم بِالْكِتَابِ لِئَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْحِنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّيْبَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٩ - ٨٠

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

في هذا الفصل يكشف الله وهو العليم الخبير للمؤمنين سوءة أهل الكتاب يكشف أحقادهم وحسدتهم ومناكدتهم لآيات الله مع علمهم بها ونيابتهم عن الشيطان في أقبح أفعاله وأعماله فألبسوا الحق بالباطل ليكتموا جمال الحق على عمد منهم ومكروا بالضعفاء ممن آمن منهم ليعيدونهم إلى الكفر وهم يشهدون فأمنوا أول النهار وكفروا آخره وتواصوا على ذلك ليفتحوا طريق الردة عن الحق والأسوة بالخروج عليه وفي الخروج منه وتحلوا عن المسؤولية الأخلاقية فخانوا الأمانة وكذبوا على الله في إباحته لهم ذلك ثم عاد عليهم خلقهم السيئ وعدا عليهم فلوا أسنتهم عن سبيلها وأجروها في غير مجراها فزوروا على الله في كتابه سفهاً وجهلاً يقولون هذا من عند الله وهم يعلمون أنهم كاذبون، ثم عدا شرهم على رسولهم فألبسوه ثوب الألوهية وهو عبد الله ففضحهم الله في ذلك وكشف كيدهم وما يعملون فتقذرهم الخلق الرفيع ولعننتهم الأمانة بما خانوا مكانتها والصدق بما كانوا يفترون فصد أهل الأيمان عنهم بعد أن استياسوا من صلاحهم والله الأمر من قبل ومن بعد ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾

تقول: وددت لو تفعل كذا بكسر الدال الأولى أي تمنيت وكذا لو قلت: وددت لو أنك تفعل كذا فلا يختلف المعنى<sup>(١)</sup>.

﴿طَّائِفَةٌ﴾

أي جماعة لأن الطائفة من الشيء: قطعة منه<sup>(٢)</sup>.

(١) مختار الصحاح ص: ٢٩٧. انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٥ حيث فارق الرازي بينهما.

(٢) نفسه ص: ١٧١.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

قال في الكشاف: هم اليهود دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية<sup>(١)</sup> وأود في مثل هذا النص أن المفسرين لو لم يذكروا طائفة بعينها ولا أفراداً ممن دعوهم بعينهم فإن ذلك لا يغني النص ولا يزيده وضوحاً فيبقى في محيط ذكر المثال لا أكثر.

### ﴿تَوَيْبُونَ﴾

تقول: أضللت فلاناً إذا كنت تعلم أنك تضله وذلك لأن الفعل لا ينسبه الفاعل إلى نفسه إلا إذا كان قاصداً ما فعل لأن أفعال: للتعدية، ولكنك يصح أن تقول: أضل فلان فلاناً وإن لم يكن الفاعل قاصداً لأنك تخبر عن فعله لا عن قصده فإن كان المخبر عنه قاصداً صح من الجهتين يقول: أنا أضللته وتقول عنه أنه أضله. والظلال: ضد الرشاد وأضله: أضاعه وأهلكه وضللت الدار: إذا لم تعرف موضعها والقاعدة: أن كل شيء مقيم لا تهدي إليه تقول: ضللته<sup>(٢)</sup>، والمعنى: أن طائفة من أهل الكتاب تمنى إضلالنا أي القدرة على ذلك مع ما بذلوا من جهد ومشقة.

وهذا المقطع من النص جاء يحكي لنا ما يحاك ضدنا من مكر وخديعة في جانبنا ويحكي لنا مدى اليأس الذي كان يقطع قلوبهم وما وصلوا إليه من إحباط ونزق وقلق فلم يكونوا يودون إضلالنا بل يودون لو يضلونا فهذه الكلمة — لو —

(١) الكشاف ج: ١/ص: ٤٣٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ١٦٣-١٦٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هي التي أخبرتنا عن وصولهم وقناعتهم بالعجز عن إضلال المسلمين هذا هو تحليله من حيث الحديث.

### (وَدَّتْ)

فعل ماضٍ فهي خبر عن طائفة مضت هذا مدلول حروف الكلمة ولكن الناس هم الناس وفي الماضي كانوا أتقى لله منهم اليوم، وأقرب إلى الصدق والأمانة فما بالك بأهل الكتاب اليوم؟ وقد انسلخوا عن كل فضائل الدين بعد أن مقتتها رذائلهم وما يشتهون.

### (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

إن الكاذب أول ما يكذب على نفسه فإذا كذب على نفسه في داخلها استطاع أن يظهر بهذا الكذب على الناس وإذا عرف الناس أنه كاذب أو أن لديهم من اليقين ما يخالف قوله، بقي الناس على ما هم عليه من اليقين وعلى معرفتهم بأنه كاذب وعاد المسكين بلعنة الكذب على نفسه فقط، وهكذا المضلون وهم يحاولون إضلال الناس فيبدوون بإضلال أنفسهم عن حب الفضيلة وعن محبة فاعليها ويدأبون ليل نهار بالتفكير بالرذائل وما يوصل إليها من زينة وشهوة فتلبسهم الرذيلة أولاً لتظهر بهم ويظهروا بها فإذا تبين للناس أمرهم واشتهرت مساوئهم، نبذهم الناس نبذ الحصاة فلم يعودوا إلا برذائلهم كما عادت رذائلهم بهم وذلك تصديق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِيئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾<sup>(١)</sup>.

### (وَمَا يَشْعُرُونَ)

كيف يشعر الضال أنه ضال؟ لو علم بضلاله لطلب الهداية أفلا يكفي من

(١) فاطر: ٤٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يحاول إضلال الناس أنه انحرف عن محاولة هدايتهم؟ أفلا يكفيه أنه لا يستطيع الدعوة إلى الطريق المضل إلا بعد أن يقف على رأس هذا الطريق أو يسير عليه؟ اللهم إنا نعوذ بك أن نُضِلَّ أو نُضَلَّ.

﴿يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾

"لم" أصلها: لما لأنها "ما" الموضوعه للاستفهام ودخلت عليها اللام فحذفت الألف من أجل التخفيف ولأن حرف الجر "اللام" صار كالعوض عن الألف ولأن الألف أيضاً وقعت طرفاً فإذا حذفت دلت الفتحة عليها ومثل: لم عمّ وبم في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وفي قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ الآية الرابعة والخمسون فإذا أردت أن تقف على هذه الحروف وقفت بالهاء: له وعمّه وبمه<sup>(٢)</sup>.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

" قال في الكشاف: أي بالتوراة والإنجيل وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة محمد ﷺ وغيرها أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول ﷺ أو تكفرون بآيات الله جميعاً<sup>(٣)</sup>.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾

(١) النبا: ١.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٥.

(٣) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أي تشهدون نعت النبي ﷺ في الكتابين أو تعلمون أنه حق<sup>(١)</sup> بعد أن أصروا على عنادهم ولم يقبلوا بأي عرض لا الابتهاال ولا المصادقة على البنود الثلاثة المتفق عليها لم يبق إلا إظهار ما يخفون وكشف ما يسرون وتحديهم بالكذب واتهامهم بالكذب على مجمع من الناس ومسمع.

﴿تَأْمَلِ الْكِتَابَ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿تَلِيْسُونَ﴾

جاءت مادة "ل ب س" على وزنين الأول: لبس يلبس مثل ضرب يضرب ومعناه الخلط تقول: لبس زيد الأمر على فلان أي خلطه ومن قوله تعالى: ﴿وَاللَّبَّاسَاتُ عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وتقول: في الأمر لبسة بضم اللام أي شبهة يعني لبس بواضح والثاني: لبس يلبس على وزن علم يعلم وهذا بمعنى اللبس تقول: لبس الثوب يلبسه لبساً<sup>(٣)</sup>، وإذا عرفت هذا فتلبسون في الآية بمعنى تخلطون لا على وزن ضرب وجاء في بعض القراءات: تلبسون بفتح الباء فيكون معنى الآية: يلبسون الحق أي يتظاهرون به بالباطل أي ليس حياً بالحق وإنما للتغريب والمرء وهذه قراءة يحيى بن وثاب، وجاء في قراءة أخرى: تلبسون بتشديد الباء وهي تدل على التعدية والتكثير<sup>(٤)</sup>.

﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٦.

(٢) الأنعام: ٩.

(٣) مختار الصحاح ص: ٢٤٧.

(٤) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الباطل: ضد الحق ويقال للعاقل عن العمل: بَطَّالٌ والاسم: البطالة<sup>(١)</sup>.

**﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾**

يقال: كتم الأمر إذا أخفاه لئلا يطلع عليه أحد والفارق بين كتم وخفي إن الخفاء قد يقع بغير فعل فاعل فنقول: خفي كذا ولكنك لا تقول كتم كذا إلا وأنت تريد فعل فاعل ولهذا يقال للسر الذي لا يُرغب في إفشائه سر كاتم أي مكتوم<sup>(٢)</sup> ويدل على ذلك أيضاً أن خفي فعل لازم بخلاف كتم وتكون هذه الجملة حال مؤكدة لأن من خبط الحق بالباطل فقد كتمه.

**﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**

أي وأنتم تعلمون الحق، وتعمدتم في كتمانها بخطئه بالباطل، قال الرازي: وتحتمل أن تكون وعيداً أي وأنتم تعلمون بعقاب من يكتم الحق<sup>(٣)</sup> وهو احتمال معقول ولكن الأول أكثر ظهوراً.

**﴿وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ**

**وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لِمَا لَهُمْ بِحِجْرُونَ﴾**

هذه واحدة من طرق بعض اليهود الخبيثة لزعزعة أصحاب الديانات الأخرى عن دياناتهم ليسلم لهم دينهم وأتباعهم.

**﴿ءَامِنُوا﴾**

أمن يأمن أمناً وأماناً والاسم: أمانة من باب فهم وسلم نقول: أمن زيدٌ

(١) مختار الصحاح ص: ٣١.

(٢) المصدر نفسه ص: ٢٣٧.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

عمرأ أي لم يخف زيد من عمرو وتقول آمن زيد عمرأ أي أن زيدا جعل عمرأ في أمن.

وأصل: أمن: أمن فهو من المزيد مثل أنزل فسُهِّلَتِ الهمزة الثانية فصارت أمن وهي من الأمن، وتقول: آمن الله المتقين أي جعلهم في أمن من عقابه فهو المؤمن ولا تقول: آمن المنقون الله ولا أنا أو فلان مؤمن الله فإن الله هو المؤمن عباده وليس العكس.

ولكنك تقول: آمن زيد بالله فتعدّيه بالباء لأنك ضممت أمن معنى: أقر أو اعترف فمعنى: آمن زيد بالله اعترف أو أقر زيد بالله وكذلك نقول: آمنت بالله أو بآيات الله أو باليوم الآخر وغير ذلك، وكذلك إذا عدّيت آمن باللام فقلت: آمن زيد لعمرو بحقه على تضمين أمن معنى اعترف أو أقر.

وكذلك تأتي أمن متعدية بعلى فنقول: آمنت زيدا على مالي أي جعلته أمينا عليه<sup>(١)</sup>.

وإنما أطلنا بتحليل هذه الكلمات لأنها سوف تأتي على كل هذه الوجوه في هذه الآية وفيما بعدها بقليل.

### ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾

أي اعترفوا وأقروا بالدين الجديد المنزل على الذين آمنوا أي المسلمين والمقصود بهذا الاعتراف الخديعة فقط ولا تنس أن الخطاب من هذه الطائفة من اليهود لأتباعها ليقوموا بهذا الدور الخبيث ومن العجيب أن الكلمات التي يوصون بها أتباعهم هي نفسها الكلمات التي قالها فرعون وهو يغرق في مياه البحر، قال

(١) انظر مختار الصحاح ص: ١٨. البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢١٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فرعون "أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل" (١) لم ينكر موسى ﷺ ولا التوراة ولكنه كان خيراً من هذه الطائفة في صدق التوجه إلى الإيمان فقال وأنا من المسلمين فلو لا أنه في حال اليأس لقبّل منه إيمانه ولكن هذه الطائفة تريد المكر والخديعة لا غير.

### (وَجَاءَ النَّهَارُ)

أي أوله لأن أول النهار هو الذي يواجهك منه فسمي وجهاً للنهار (٢).

### (وَأَكْفَرُوا كُفْرًا)

أي أعلنوا كفرهم به آخر النهار وهذا مكر يراد به إعطاء قوة دفع وتشجيع لمن تحدثهم أنفسهم بالردة عن الدين الجديد حسب تقديرهم هم لأن أفكارهم المريضة لم تكن تتصور معنى الثبات على الدين الحق لا سيما وهم يرون أنفسهم في حل من تزوير الدين وكتابه والتقول على الله ورسله فأنى لهم معرفة الصدق في القول والأمانة في العقيدة؟ إنهم يرون الناس في أنفسهم ولا يرون أنفسهم في الناس وتلك علة انحرافهم.

### (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

كانوا في الموقف السابق في موقف المتمني الذي يحزُّ في نفسه الأسى والحزن إذ لم يكونوا قد قدموا أسباباً يمكن أن توصلهم إلى ما يريدون وهذه مرتبة التمني في اللسان العربي وأما الآن وبعد أن قدموا أخبث ما في أنفسهم من خديعة ومكر ودهاء حتى صار ما فعلوه يقوم مقام الأسباب في إضلال المؤمنين فزمت

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بهم مطامعهم وتوهموا أنهم بذلك يرجون لا يتمنون فقالوا: لعلمهم يرجعون خابت أفكارهم وبطل ما كانوا يصنعون، ولك الآن أن تنتقل إلى ذلك الزمن المبارك وهم يخططون في الظلام مثل هذا الكيد والخديعة فتلمع شمس الوحي وتفضح سرهم، ما كان موقفهم؟ كيف كانوا يفسرون إخبار النبي ﷺ بكل ما كانوا يعملون؟ ما هو موقف أتباعهم؟ ما هو أثر مثل هذه الصدمة على نفوسهم؟ أسئلة محيرة فعلاً إذا تتبعناها وتناولتها بالتحليل الواحد تلو الآخر بان لك طبع اليهود وخبثهم ومكرهم وتجلت لك معجزة القرآن الكريم، وفكر ثانياً ألم يكن إعلام أهل الكتاب اليوم هو ابن إعلامهم في أمس؟ كيداً وفساداً ومكراً وخديعة؟

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤَيِّدَ أَحَدًا مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ

بِمَا جُرؤُ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

هذه متصلة بالتي قبلها كأنها ملحق توضيحي لها فهي من كلام اليهود باتفاق المفسرين.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

فيها وجهان للتأويل:

**الأول:** ولا تؤمنوا أي ولا تقروا ولا تعترفوا إلا لنبي يقرر شرائع التوراة أي لنبي من أنبياء بني إسرائيل فأما غير ذلك أي إذا جاء نبي بغير الشريعة بأن يأتي بكتاب جديد وشريعة جديدة فلا تعترفوا به، قال الرازي: "وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم"

**الثاني:** ولا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لأجل من تبع دينكم من اليهود فإنهم إذا رأوكم تؤمنون أول النهار وتكفرون آخره ازداد ثباتهم على



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

اليهودية لأن من في نفسه شبهة ويريد أن يسلم يقول لو كان دين محمد حقاً لما دخل فيه فلان وفلان ثم كفروا به في نفس اليوم<sup>(١)</sup>.

### ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَىٰ مُدَىٰ اللَّهِ﴾

هذا يشبه ما نسميه المداخلة بل هي فعلاً مداخلة من قبل الحق ﷻ كأنه يقول لهم وهو جل جلاله يسمع ما يتواصون به من مكر وخديعة: إن الهدى إنما هو هدى الله فسواء جاء به نبي من بني إسرائيل أو من غيرهم فإنكم لم تؤمنوا بموسى لأنه منكم ولا لأنه جاءكم بالتوراة بل أنتم به لأنه يحمل إليكم هدى الله يقول الرازي رحمه الله: "إن الذي هم عليه دين موسى إنما ثبت ديناً من جهة الله لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الإنقياد له وإذا كان كذلك فمتى أمر الله بعد ذلك بغيره وأرشد إلى غيره وأوجب الإنقياد إلى غيره كان نبياً يجب أن يتبع وإن كان مخالفاً لما تقدم لأن الدين إنما صار ديناً بحكم الله وهدايته فحيثما كان حكم الله وهداية الله وجبت متابعتها"<sup>(٢)</sup>، رحم الله الرازي وغفر له فالناس كلهم بحاجة إلى هذا اليقين وهم يتبعون طوائفهم ومذاهبهم وأيم الله لو وضع المسلمون هذه الروح نصب أعينهم وهم يدرسون هذه الطوائف والمذاهب لضافت شقة الخلاف ولزالت نزعة العصبية فيما بينهم.

### ﴿أَنْ يُؤَفَّقَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُجَازِمُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾

في هذه القطعة من الآية وجهان:

الأول: أن تكون من جملة كلام الله الذي سميناها مداخلة ويؤيد هذا الوجه

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٩.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ما جاء في قراءة ابن كثير: "أَنْ يُؤْتَى... بالاستفهام، وهذا الوجه ظاهر من النص لأن الاستفهام في هذه الحالة لتوبيخ اليهود وهو يشبه ما نسميه العتب على موقفهم هذا، وهو رد ما يأتي من الله على أي رسول إذا خالف التوراة فكأنه يقول لهم موبخاً وعاتباً أتريدون أن تكفروا بالقرآن الذي أنزلته لأنني أنزلت كتاباً بعد كتابكم وأرسلت رسولاً بعد موسى؟ الهدى هداي لا هدى موسى ولا هدى محمد ﷺ أم لا تريدون أن تؤمنوا بمحمد لأن كتابه سوف يحاجكم على ما حرفتم وبدلتم في دينكم؟ ولكن يرد على هذا الوجه قوله تعالى بعده: "قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ... فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَوْ كَانَ مِنْ اللَّهِ لَمَا قَالَ: قُلْ بَلْ كَانَ يُوَصِّلُ أَنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ بِكَلَامِهِ السَّابِقِ لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ بَقْلٍ، وَيَجَابُ عَنْ هَذَا الْإِيرَادِ: بَأَنَّ اللَّهَ وَبِخَمِّهِ عَلَى عِنَادِهِمْ بِقَضِيَّتَيْنِ الْأُولَى: "أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أَوْتَيْتُمْ" وَالثَّانِيَّةُ: "أَوْ يَحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ" فَكَانَتِ الْإِجَابَةُ الْأُولَى: "إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ لِلأُولَى وَالثَّانِيَّةُ لِلثَّانِيَّةِ."

**الوجه الثاني:** أن تكون من كلام اليهود فإنهم يعملون هذه المكيدة فيؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره مخافة أن يؤتى غير بني إسرائيل من الدين والرسالة مثل ما آتاهم الله حسداً من عند أنفسهم ومخافة أن يأتي الكتاب الجديد فيفضح تزويرهم وأكاذيبهم وعلى هذا الوجه تكون المداخلة الأولى على قولهم السابق آمنوا... الخ وتكون المداخلة الثانية على حسدهم وعلى خوفهم من كشف تزويرهم<sup>(١)</sup>، وأجديني أميل إلى الوجه الثاني وما ذكره الرازي رحمه الله من إشكالات قد لا يخلو منها وجه من وجوه التأويل فلولا الإشكال لما وجدت هذه الوجوه فارجع إليه إن شئت.

﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) انظر الوجهين في التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٥٩-٢٦٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

قال أبو حيان: هذا توكيد لمعنى " قل إن الهدى هدى الله" وفي ذلك تكذيب لليهود حيث قالوا: شريعة موسى مؤبدة<sup>(١)</sup>.

### ﴿الْفَضْل﴾

الزيادة أي ما يزيد عن حاجة صاحبه ثم كثر الاستعمال لهذه الكلمة في معنى الإحسان والخير<sup>(٢)</sup>.

### ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

من الأفضل عدم التأويل فمرها كما جاءت لأنك كيفما أولتها فسوف لن تخرج عن دائرة التشبيه حساً أو معنى.

### ﴿تَوْفِيهِ مِنْ يَشَاءُ﴾

فالملك ملكه والهداية هدايته ولا إله غيره.

### ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

الله واسع في فضله يختار من يشاء من خلقه إلى من يشاء وهو عليم بالهدى لكل أمة فينزل لكل عصر ما يناسبه ولكل أمة ما يصلحها إلى أن أتم الله دورته التعليمية على يد أنبيائه ومرسله فختم الدورة بالقانون الأعم ليصلح لجميع الأمم على يد محمد ﷺ.

### ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

يقول العلماء: إن الله من خلقه خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص فأختص الله من الأزمنة ليلة القدر وشهر رمضان والأشهر الحرم والعشرة من ذي

(١) البحر المحيط ج: ٣/ص: ٢١٧.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٦١.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الحجة ويوم الجمعة والاثنين وغير ذلك، واختص من الأمكنة الكعبة المشرفة ومكة وعرفات والمشاعر كلها وبيت المقدس والمسجد النبوي والمساجد كلها وغير ذلك كثير واختص من الأشخاص ملائكته وأنبياءه ورسله وأولياؤه والعلماء والشهداء وحملة القرآن وغير ذلك كثير.

هؤلاء أشخاص وأزمنة وأمكنة جعل رحمته فيها اختصاصاً إلهياً وإن كان في بعض الأشخاص بما قدموا من عمل فالملائكة والأنبياء والمرسلون ليس من جهتهم اكتساب لما اختصهم الله به<sup>(١)</sup>.

وإيتاء الفضل أعم من الاختصاص فكل اختصاص هو فضل وليس كله فضل اختصاص ولهذا جاءت هذه الآية وفيها "يختص برحمته من يشاء" ونكر قبلها أن الفضل بيد الله وبعدها وصف الله بأنه "ذو الفضل العظيم" فكان ذو الفضل يناسب الأولى وذو الفضل العظيم يناسب الاختصاص بالرحمة.

**﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْتَنِرُ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِينِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**

قبل الدخول في تحليل مفردات هذه الآية وتركيباتها ينبغي أن نقدم نبذة مختصرة عن تحليلها من حيث المعلوم الكلي الذي تطرحه هذه الآية ولنجعل هذا التحليل على صفة السؤال ثم نتبع ذلك بالإجابة عليه، هل جاءت هذه الآية مدحاً لأهل الكتاب أم ذمماً؟ أحسب أن الآية جاءت تطف الجوبين المسلمين وأهل الكتاب إن كل أمة لا تخلو من هذين الصنفين: الأمين والمماطل وذكر الأمناء منهم بهذا

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٦١-٢٦٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الوصف "بقتار" وتقديمه على النّم يستدعي الاعتذار عن أهل الكتاب فكأنه يقول إن كان فيهم الرديء ففيهم المحسن، كذلك ذكر الدينار في جانب المماثلة حيث لم يبلغ به إلى الأدنى وهو الدرهم في زمن نزول القرآن بل قد يوجد أقل من ذلك، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم ذكر مستندهم الديني في المماثلة إذن فالجاهل بأن هذا المستند مزور وغير صحيح عن الله قد يكون معذوراً وهو أحسن حالاً من المماطل الذي يعلم أن المماثلة ممنوعة في الدين ثم يماطل ولعل أروع ما في هذه الآيات أنها لم تسم الطائفة باسمها ولا من أي أهل الكتاب هي مع أن المفسرين ذكروا في تفسيراتهم اليهود بل اسم الشخص أيضاً، إن الله رب الجميع فلم يصادر حسناتهم ولم يسم المسيء بل ذكر المحسن قبل المسيء لأن الهدف هدايتهم لا تعبيرهم والتلطف بهم لا الإساءة إليهم، نكتفي بهذا ونعود إلى ما يلزم من تحليل الألفاظ.

### ﴿إِنْ تَأْمَنُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾

التعبير بأن التي تفيد الاستقبال وكذا مجيء الشرط والجزاء بصيغة المضارع للدلالة على أن هذا خلقٌ فيهم وليس عمل جيل دون آخر، و"إن" مع إفادتها الاستقبال إلا أنها إنما يعبر بها عن الشك في وقوع ما بعدها أو صعوبته وهي تحكي لنا تردد المسلمين في كل عصر في استئمانهم على أموالهم، "القنطار" وكذا ذكر الدينار فيما يأتي المراد من ذكرهما هنا ليس المقدار بل ما يمكن أن يستأنوا عليه وما يجوز أن يماطلوا بأدائه<sup>(١)</sup>.

### ﴿يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾

(١) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أدى دينه تأدية قضاءه والاسم الأداء ويقال: فلان أدى من فلان أي أحسن أداءً ويقال أيضاً: تأدَّى إليه الخبر أي انتهى<sup>(١)</sup>.

### ﴿لَا مَادِمَتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾

أي كما كان منهم من يصل إلى أفضل صور الأداء في الكثير فإن منهم من يصل إلى أدنى حالات الأداء في القليل هذا النوع لا يؤدي إليك حَقُّك إلا ما دمت أي في حالة دوامك "عليه قائماً" أي تُقصر قيامك عليه فلا تتركه يستريح من مطالبتك حتى يُخَيَّلَ إليه أنك فوق رأسه دائماً تطالبه بما عليه من حَقِّك<sup>(٢)</sup>، وأنت ترى أن هذا الأداء للمعنى بوساطة الألفاظ صعب وفي هذه الكمية القليلة من الكلمات أكثر صعوبة ولكنه الله وكتابه.

### ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾

أي ذلك الأداء السيء إنما كان بسبب أنهم قالوا.

### ﴿قَالُوا﴾

تحتل هذه الكلمة وجهين: الأول: أنهم قالوا فعلاً ذلك القول والثاني: أن قالوا بمعنى اعتقدوا أي كان هذا رأيهم في دينهم. والظاهر من النص هو الاحتمال الثاني لأن ذلك لو كان قولاً ثابتاً في دينهم لم يعمل به البعض ويتركه البعض الآخر ولهذا قال عنهم "ويقولون على الله الكذب" أي ينسبون آراءهم إلى الدين وما هي من الدين والله أعلم.

### ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾

(١) مختار الصحاح ص: ١٢.

(٢) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أي لا يتطرق علينا عتاب ولا ذم في الدنيا ولا عقاب ومحاسبة في الآخرة إذا حبسنا أموال الأميين أي العرب أو إذا أكلنا أموالهم واستبجنا حريمهم لأن كتابنا أي التوراة إن كانوا من يهود والتوراة والإنجيل إن كانوا من النصارى لم يجعل للأميين في كتابنا حرمة<sup>(١)</sup>، نعم تذكر التوراة في سفر التثنية ما نصه "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منه نسمة ما بل تحرمها تحريماً: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا تعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم"<sup>(٢)</sup> وفي الإنجيل: "أقبلت إليه امرأة كنعانية من تلك البلاد وصاحت ارحمني يا سيدي يا ابن داوود ابنتي فيها شيطان ويعذبها كثيراً فما أجابها يسوع بكلمة فدنا تلاميذه وتوسلوا إليه بقولهم اصرفها عنا لأنها تتبعنا بصياحها فأجابهم يسوع ما أرسلني الله إلا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل ولكن المرأة جاءت فسجدت له وقالت ساعدني يا سيدي فأجابها لا يجوز أن يؤخذ خبز البنين ويرمى إلى الكلاب فقالت له المرأة نعم يا سيدي حتى الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها فأجابها يسوع ما أعظم إيمانك يا امرأة فليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة"<sup>(٣)</sup>، فالأميون العرب في التوراة رجس وفي الإنجيل كلاب فماذا تنتظر ممن ينظر إليك هذه النظرة؟

### ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الْأَمِينِ سَيْئٌ﴾

ترجم الحق ﷺ رأيهم ذلك الذي لو أعملت فيه فكرك اختصاراً ودقة

(١) أنظر الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٨.

(٢) التوراة سفر التثنية الإصحاح ٢٠

(٣) إنجيل متى ٢٤ ومرقص ٧ و٢٤ و٣٠ إيمان المرأة الكنعانية

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأعانك عليه قوم آخرون لما استطعت أن توصل المعنى سليماً معافى في خمس كلمات، النفي بليس وهي فعل ناقص وتقديم علينا ليقولوا هذا خاصة بنا نحن وأما على غيرنا فمن اهتضم حق غيره فعليه سبيل وفي الأُميين فقط وأما في غيرهم فليس كذلك وسبيل نكرة أي ( أي سبيل علينا منهم لا يوجد أصلاً ) لأن ليس تنفي مطلق الوجود فلا سبيل في الدنيا من عتاب وذم من أهل دينهم ولا عقاب في الآخرة من الله .جل من أنزل القرآن.

### ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾

إذا قلنا: قال زيد عن عمرو الكذب يكون الكاذب عمروً ،وزيدٌ إنما نقله عنه فقط ولكننا إذا قلنا: قال زيد على عمرو الكذب يكون الكاذب زيد أي أنه قولٌ عمرا ما لم يقله، فهذه الطائفة من أهل الكتاب تكذب على الله أي أنها تقول قال الله في كتابهم كذا وهو لم يقله، قال في الكشاف: "ويقولون على الله الكذب" بادعائهم أن ذلك في كتابهم "وهم يعلمون" أنهم كاذبون<sup>(١)</sup>، وأنت ترى أن القرآن الكريم لا يني بذكر هذه المقولة عن الطائفة الشاذة فيكرر عنهم "وهم يشهدون" "وهم يعلمون" فهم إنما ضلوا عن علم بأن دينهم وكتابهم بريء مما يعملون ويقولون وهذا فيه تزكية لمن يعمل بعمل هذه الطائفة الضالة أو تحييدها عن الصراع على أقل تقدير.

### ﴿بَلَىٰ مِّنْ أَوْفَىٰ بِمَهْدِهِمْ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

"بلى" جواب للتحقيق توجب ما يقال لك لأنها ترك للنفي وهي حرفت لأنها ضد لا<sup>(٢)</sup>، وقال في الكشاف: "بلى" إثبات لما بعد النفي وهو قوله تعالى "وقالوا لن

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٣٨.

(٢) مختار الصحاح ص: ٣٤.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

تمسنا النار" أي بلى تمسكم أبداً بدليل قوله تعالى بعدها: "هم فيها خالدون" قال الزمخشري هذا في تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة<sup>(١)</sup>، وقال هنا: "بلى" إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين أي بلى عليهم سبيل فيهم<sup>(٢)</sup>، وذكر الرازي وجهاً آخر وهو أن "بلى" كلمة تُذكر ابتداءً لكلام آخر يُذكر بعده وذلك لأن قولهم: ليس علينا فيما نعمل جناح قائم مقام قولهم: نحن أحياء الله فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم<sup>(٣)</sup>.

وإذا صح ما يقول الرازي من أن بلى تذكر ابتداءً لكلام آخر فيصح أن يوجه ما بعدها بغير ما وجهه هو رحمه الله، والذي يبدو لي أن ما بعد بلى مقول لإثبات السبيل عليهم في كتابهم فيكون المعنى: بلى عليكم سبيل لأن كتابكم يقول لا سبيل عليكم في الأميين إذا أوفيتم واتيتم فإن الله يحب المتقين لا الخائنين.

**(مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ)**

**(مَنْ)**

فيها احتمالان: الأول أن تكون موصولة أو شرطية قال أبو حيان الأظهر أن تكون شرطية<sup>(٤)</sup>.

**(أَوْفَىٰ)**

قال أبو حيان: "أوفى" لغة الحجاز و"وفى" لغة نجد و"وفى" بالتشديد لغة

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٢٩٢، ٤٣٨.

(٢) نفسه ج: ١ / ص: ٢٩٢، ٤٣٨.

(٣) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦٤.

(٤) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٢٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أيضاً<sup>(١)</sup> يعني أبو حيان بقوله لغة الحجاز ولغة نجد ولغة أيضاً كثرة الاستعمال وليس الاختلاف في اللغة لأن الثلاثي المجرد يستخدمه أهل نجد والمزيد بالهمزة "أوفى" يستخدمه أهل الحجاز والمضعف يستخدمه آخرون والمضعف "وفى" هو المستعمل في العراق بكثرة فيقول من أوفى دينه: وفيت ديني.

### ﴿وَاتَّقَى﴾

واتقى ماذا؟ عندما يحذف المعمول الظاهر يراد العموم واتقى الله واتقى النار واتقى السيئات لأن كلمة اتقى تشمل الكل.

### ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

الجملة جواب الشرط قال في الكشاف: فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير<sup>(٢)</sup>، وذلك لأن عموم المتقين قام مقام الضمير في "يحب" أي فإن الله يحبه.

### ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا

### يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا الخطاب يحمل وجهين من المعنى والوجهان مقصودان للمخاطب وهو الحق ﷻ الأول: طابع إخباري بما يكون عليه المخبر عنه وهو الذي يشتري بعهد الله ويشتري بيمينه ثمنًا قليلًا إما حقيقة وإما بالمقارنة لما يفوته من الخير في الآخرة والثاني: طابع طلبي يحمل معنى النهي كأنه يقول لا تشتروا... لأن الله ﷻ رتب على العمل الذي أخبر عنه جزاءً بقوله: أولئك لا خلاق لهم، ولا تنس أن

(١) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص: ٤٣٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

سياق الخطاب بهذا الروح الإخباري العام يعد أسلوباً رائعاً من أساليب الدعوة فلا يذكر من فعل وإنما يوجه الخطاب إلى من يفعل وبعد أن كشفنا عن تحليل خطاب النص نعود إلى تحليل مفرداته ومفاصله.

### (إِنَّ الَّذِينَ)

الاسم الموصول يفيد العموم فكأنك تقول: إن كل الذين يشتركون... والاسم الموصول "الذين" من الأسماء المبهمة ولهذا احتاجت إلى ما يفسرها.

### (يَشْتَرُونَ)

أي يستبدلون فإن الشراء مبادلة شيء بشيء<sup>(١)</sup> والتعبير بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد لإفادة أن الخطاب إنما جاء لمن كان هذا دينه لا لمن فعل ذلك مرة أو مرات متفرقة لأن ترك الفعل دليل على عدم الرضا وعدم الرضا معناه الندم على ما وقع والندم توبة والله يحب التائبين والتوابين.

### (بِعَهْدِ اللَّهِ)

العهد: الأمان واليمين والموثق والذمة والحفاظ والوصية. وعهد يعهد عهداً أي أوصى أو أمر أو نهى فعهد الله كتابه أخباره وأوامره ونواهيه وليس المقصود هنا المعاهد أو التعاهد بين اثنين وذلك لأن مصدر عاهد: معاهدة ومصدر تعاهد: تعاهداً ولم يأت النص بذلك أي لم يقل بمعاهدة الله ولا بتعاهد الله وعهد الله: مفرد مضاف فيعم.

### (وَأَيَّمَنَ بِهِم)

اليمين: القسم وإضافة الإيمان إليهم لإفادة اعتبار كل ما يسمونه يميناً

(١) انظر الكشاف: ج ١/ص ٤٣٨ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وليس اليمين المشروع في الإسلام فإن من التزم بشيء وأقسم عليه بما يراه قسماً ثم تنازل عما التزم به وأهدر قسمه يدخل في هذا الوعيد، واليمين: هي الحلف التي يؤكد بها الإنسان خبره من وعد أو وعيد أو إنكار أو إثبات<sup>(١)</sup>.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ﴾

﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾

مفرد مضاف فيفيد العموم أي بكل عهد لله.

﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾

جمع مضاف فلا يفيد العموم أي ببعض أيمانهم أو بمجموعة من أيمانهم فيصدق على ثلاثة فأكثر، فيكون الوعيد في الآية متوجهاً إلى الذين يشترون بكل عهد الله ثمناً قليلاً، ويشترون ببعض أيمانهم ثمناً قليلاً، وإنما جاء هذا الفارق بين الاثنين لأن الالتزام بعهد الله أحياناً وعدم الالتزام أحياناً أخرى يدل على وجود الإيمان بالله ومن آمن بالله لا يتوجه إليه مثل هذا الوعيد وذلك لأن ما بين الله وعبده مبني على المسامحة إن الله غفور رحيم.

وأما الأيمان فهي التزام بين العبد وأخيه وهي حقوق يجب الوفاء بها وهي تحمل خطيئتين: الأولى: هضم حق المحلوف له، والثانية: اهتزام حرمة ما حلف به.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

له وجهان: إما أن يكون قليلاً حقيقة بأن عصى الله من أجل كسب قليل ومثال ذلك ما يقع به التجار من ارتكاب ما حرم الله من الغش والتغريب مقابل

(١) التفسير الكبير: ج ٣ / ص ٢٦٦ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كسب قليل ولو تتبعت ما يقع الناس فيه من المحرمات في معاملاتهم لتبين لك أنهم حقيقة يرضون بالثمن القليل في مقابل معصية الله.

**والوجه الثاني:** أن يكون ما يكسبونه ثمناً قليلاً بالنسبة لما يخسرونه من النعيم في الدار الآخرة.

وجملة يشترون إلى ثمناً قليلاً كلها صلة للموصول "الذين" وصلة الموصول تقوم مقام الصفة للذكرة من حيث كشف الإيهام عنه.

بقي أن ننبه إلى أن الباء في قوله "بعهد الله" تدخل على ما يدفعه المشتري، فالمقصود بالثمن في الآية المثلن أي السلعة أو البذل.

وإذا عرفت هذا ينبغي لك أن تعلم أن المفسرين لهذه الآية وكما هو شأنهم في أغلب آي القرآن الكريم يتجهون بالتفسير إلى أسباب النزول فيكون تفسيرهم ذا منحى شخصي في تفسير المراد من النص ولنقرأ ما يقول الزمخشري: ("يشترون" يستبدلون "بعهد الله" بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم "وأيمانهم" وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه)<sup>(١)</sup> هذا التفسير لا يعد كاشفاً لكل ما يحويه النص بل يكون تفسيراً بذكر مثال فقط.

**﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾**

**﴿أُولَئِكَ﴾**

خبر إن.

**﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾**

الخالق: النصيب والنصيب: الحظ الحسن ويطلق النصيب على السهم من

(١) الكشاف: ج ١/ ص ٤٣٨-٤٣٩ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

مال مشترك أي الحصة.

و"لا" نافية للجنس تعمل عمل إن فيكون النفي فيها عاماً للجنس كله ولهذا لا يصح الاستدراك بعدها لبعض أفراد الجنس فلا يقال: لا رجل في الدار لكن زيد في الدار لوجود التناقض بين الأول والثاني وهذا بخلاف ما لو كانت "خلاق" بالرفع فلو قيل: لا خلاق لهم احتمل النفي نفي الوحدة ولهذا يصح الاستدراك بعده فتقول: لا رجل في الدار بل رجلان.<sup>(١)</sup> وإنما أطلنا في تحليل هذه الكلمة لأن بعض المفسرين لما اكتفى بتفسير الخلاق بالنصيب اضطر أن يقول المراد بالنصيب الخير لا الشر ولأن بعضهم أيضاً لما لم يستحضر دلالة النفي على الجنس والفارق بين دلالة المرفوع بعد لا والمنصوب راح يقدر النصيب بالوافر وهو إفساد للمعنى<sup>(٢)</sup>.

### (لَا خَلَقَ لَهُمْ)

أي لا خلاق لهم مطلقاً سواء كان عن طريق الاستحقاق على ما قدموا من خير أو كان عن طريق إيصال الثواب إليهم من أبنائهم أو غيرهم أو عن طريق الدعاء لهم أو عن طريق العفو عنهم يوم القيامة وذلك لأن الآية إخبار وليست إيعاداً حتى نقول يمكن أن يدركهم العفو الإلهي فالفارق كبير بين أن يقول الحق: من عمل كذا وكذا أعذبه عذاباً أليماً وبين صيغة نفي الخلاق بلا الجنسية .

### (فِي الْآخِرَةِ)

(١) ينظر ابن عقيل على الألفية: ج ١/ ص ٣٠٨ .

(٢) أنظر التفسير الكبير ج ٣/ ص ٢٦٦ و البحر المحيط ج ٣/ ص ٢٢٦ . ومجمع البيان ج ٢

ص ٣٢٧ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأما في الدنيا فنصيبهم وافر لأن الله مع كل عبد على ما يكون العبد من نفسه ومن ربه فجميع أعمال الخير التي يعملها الإنسان من أجل الكسب الدنيوي لا يُمنع من نتائجها مؤمنٌ ولا كافرٌ خيرٌ ولا شريرٌ ولكن الله سبحانه يعطي المؤمن من فائض إحسانه ما يتتعم به في الحياة الآخرة بناءً على نيته على فعل الخير واستشعاره بالعبودية لربه.

### ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾

انتقل النص في النفي إلى سياق آخر فلم يقل: ولا كلام لهم مع الله أو لا كلام من الله لهم، لا يكلمهم: ينفي تجديد الكلام مرة بعد أخرى ولا دلالة لنفي المضارع على العموم وهذا يلغي الاستشكال الذي أورده الرازي رحمه الله حيث قال: "ولا يكلمهم الله" ففيه سؤال وهو أنه تعالى قال: "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون" الحجر: -٩٢-٩٣- وقال: "فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين" الأعراف: ٦ فكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟<sup>(١)</sup>

لو شئت أن تقول إن تقديم المفعول يدل على التخصيص فيكون المعنى: ولا يخصهم الله بكلام فلك ذلك والنص يدل عليه وهو يبعد النص عما استشكله الرازي رحمه الله وهذه ألمعية النص القرآني المعصوم عن الزيغ والخطأ.

### ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

يأتي في تحليل هذه الجملة ما ذكرناه في الجملة التي قبلها فلا نعيده. والنظر: تأمل الشيء بالعين وقد نظر إلى الشيء<sup>(٢)</sup> والرؤية هي مطلق

(١) التفسير الكبير ج ٣ / ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٧٨ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

حصول الصورة ومنه قوله تعالى: " فلما تراءى الجمعان " ومن المعلوم أنك لا تتأمل شيئاً بعينك إلا إذا كان لك غرض في هذا التأمل إما حبا أو إعجاباً أو عطفاً أو غير ذلك.

### (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

مفرد مضاف أي كل يوم القيامة أي كل أجزائه.

### (وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

زكى الزرع: أي نما فهو فعل لازم وإذا أردت إيقاع الزيادة والنماء على غيرك احتجت إلى حرف من حروف التعدية أو أكثر فتقول: أزكيتُ الزرع بقيامي عليه أو تقول: زكيتُ الزرع كذلك وسميت فريضة المال: زكاة لأن الله تعالى تعهد في كتابه بتعويض المعطي بأكثر مما أعطى وكذلك تزكية النفس إنما تأتي بزيادة فضائلها ولكن لما كانت زيادة الفضائل تصاحب تطهيرها من الرذائل قيل في تزكية النفس أنها التطهير من الرذائل ومن هذا الباب قوله تعالى: " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " فقد جمع بين الأمرين وقدم التطهير على التزكية لأن الفضيلة سوف تقعد مكان الرذيلة الكرم مكان البخل ولذلك ورد عن السلف "التخلية قبل التحلية" وهو أمر جارٍ على سنن الطبيعة.

### (وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

ولا يزيدهم لأنه تعالى إنما يزيد من له عمل صالح لذلك اليوم وهؤلاء ليس لهم شيء حتى يزيدهم من عطائه ﷻ هذا رأيي في تفسير هذه الكلمة وقد أعرضت عن بعض الكلام في تفسيرها لجلّة من المفسرين لعدم قناعتي بما



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كتبوا<sup>(١)</sup>.

### (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

تقديم الخبر يفيد الاختصاص وكون الجار يفيد الملك يزيد من معنى الاختصاص فكانه يقول: لهم لا لغيرهم بل هو ملكهم واستحقاقهم فلم يأتيهم من خارج أنفسهم وصدق من قال: "من أضاع حرفاً من القرآن أحوجه الله إليه".

### (عَذَابٌ)

نكرة وللنكرة في باب التخويف والترويع ما ليس للمعرفة بل إن الكثير من الذين يقدمون للمحاكم على جنابات لهم يستريحون للنطق بالحكم لتبينه لهم وهكذا يبقى أن لهم عذاباً نكرة إلى يوم يلاقونه حمانا الله وإياكم.

### (أَلِيمٌ)

وصف للعذاب بأنه مؤلم أي يسبب الألم وهو ليس صيغة اسم الفاعل بل على صيغة المبالغة هو عذاب مؤلم جدا كيف؟ وبماذا؟ وكم؟ كل هذا مبهم. ولكن النص تغيرت صياغته عن سابقاته فلو قال ويعذبهم الله عذاباً أليماً لكان جارياً على سنن الجمل السابقة فلماذا هذا التغيير؟ الجملة الاسمية تفيد إثبات الخبر للمبتدأ من غير التعرض لاستمراره وتجده فمن أوقع الله عليه عذاباً أليماً ولو مرة أو في لحظة صدق الخبر، ولكن لو جاء الإخبار بالجملة الفعلية عنهم ويعذبهم عذاباً أليماً لإفادة التجدد، وهذا من رحمة الله ليبقي باب العفو أو التخفيف مفتوحاً.

(١) انظر التفسير الكبير: ج٣/ص٢٦٧. والكشاف: ج١/ص٤٣٩ والبحر المحيط: ج٣

ص٢٢٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ مِنَ  
الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَمْلِكُونَ ﴾  
﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾

الضمير يعود إلى الذين: أي أن الخطاب يتحدث عن جماعة من الذين يشتركون بعهد الله...يقومون بلي ألسنتهم.. قوله تعالى: ﴿وَرَاعِنَا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> والفرقة: الطائفة من الناس والفريق أكثر منهم<sup>(٢)</sup>، أي أكثر من الفرقة وهذا يعني أنه يصح أن نقول: فرقة من الفريق دون العكس.

### ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾

لوى الحبل فتلّه يلوّيه لياً ولوى رأسه وألوى برأسه: أماله وأعرض قال في الكشف: "يلوون ألسنتهم بالكتاب" يفتلونها بقراءته -الكتاب- عن الصحيح إلى المحرف ويجوز أن المراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب<sup>(٣)</sup> وقال الرازي: "يلوون ألسنتهم" قال القفال: معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيجرّفوها في حركات الإعراب يتغير به المعنى وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد أن يكون مثله في العبرانية فلما فعلوا ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: "يلوون ألسنتهم" وهذا تأويل في غاية الحسن<sup>(٤)</sup>، والدقة في التحليل لهيكل النص تلزماً التفريق بين هذين التعبيرين:

(١) النساء: ٤٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢١٢.

(٣) الكشف ج: ١ / ص: ٤٣٩.

(٤) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يلوون ألسنتهم بالكتاب" و يلوون الكتاب بألسنتهم" حتى لا تقع في خطأ في فهم النص، فما ذكره الزمخشري أقرب إلى لي الكتاب بألسنتهم منه إلى لي ألسنتهم بالكتاب ولا سيما أن "يلوون" من لوى لا من ألوى وإذا قلت لويت الحبل بيدي يكون الملتوي الحبل وليس يدك، وأما ما استحسنة الرازي من تحليل القفال وقال عنه: في غاية الحسن فهو حقاً حسن، وهو يصلح للتمثيل للنص فهو واحد مما ينطبق عليه النص ولكن النص أعم من ذلك ومثله ما ذكر الزمخشري تجويزاً بقوله "يعطفون....الخ" فلي اللسان بالكتاب يقع إذا أعطينا الكلمة غير معناها الصحيح أو فسرناها بالتأويل البعيد الذي تحتمله لغة النص، أو أضفنا قيوداً على النص ويجمع هذه المعاني الإنحراف في لفظ النص أو معناه والله أعلم.

### ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكُتُبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكُتُبِ﴾

الحسبان: الظن والتخمين، والهاء من لتحسبوه قال في الكشف: تعود إلى ما دل عليه "يلوون ألسنتهم بالكتاب" وهو المحرّف<sup>(١)</sup> وإذا كان جل همهم أن نحسبه دل على أنهم لا يطمعون بيقين وذلك إما لشهرة هذا الفريق بالكذب وإما للمغالاة في عداة المسلمين وإما مخافة الرجوع إلى الصادقين الأمانة منهم علي كتاب الله التوراة أو الإنجيل فينبغي أن لا ننسى أن القرآن الكريم جعلهم فريقاً من الذين يشتركون بكتاب الله... الخ لا كلهم فهم يحرفون النص التوراتي أو الإنجيلي إما في لفظه أو في معناه ولكن لماذا يريدون أن يقنعونا ولو إلى درجة الظن أن ما يقولوه من كتابهم؟ سياق الآيات لا يدل على أن هذه الطائفة أو الفريق من اليهود أو من النصارى ثم أن أغلب المفسرين يذهب إلى أن الذي عمدوا إليه بالتزوير إنما

(١) الكشف ج: ١/ ص: ٤٣٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هو صفة النبي محمد ﷺ وليس في النص دلالة على هذا أو ذلك، بل سياق هذه الآية والتي قبلها يمكن حمله على إرادتهم التحايل على المسلمين بأن كتابهم لم يجعل عليهم سبيلاً في هضم حقوق الأميين، وعلى هذا فيمكن أن يفسر لي اللسان بالكتاب ادعاؤهم أن كتابهم يقول كذا وكذا وهو عبري وليس عبري فيفسروه للعرب حسب ما يحلو لهم وبهذا المعنى تكون الآية واضحة الدلالة على هذا الغرض.

وهذا تابع لإخبار الله عنهم أنهم يلوون أسنتهم بالكتاب لهذا الغرض ولم يقولوا هم أنه من الكتاب بل الذي يقولونه هم إنما هو: "ويقولون هو من عند الله" فيرد الله عليهم "وما هو من عند الله" فيكون تقدير الآية: وإن منهم لفريقاً يلوون أسنتهم بالكتاب ويقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، غاية ما في النص أن الله ﷻ قدم الإخبار عن نيتهم ودوافعهم على الإخبار عن قولهم وأحسب أن النص جاء على هذه الصيغة للدلالة على أمرين: الأول: أن النية تسبق الفعل من حيث الوقوع فاستحقت التقدم في الحديث عنها.

الثاني: أن في كشف نيتهم قبل ظهورها يستهدف فائدتين: الأولى: تعريف المسلمين بما ينوي هذا الفريق عمله معهم ليكونوا على بينة من أمرهم.

الثانية: إحباط ما ينوي هذا الفريق عمله قبل وقوعه وبعث اليأس في نفوسهم وقد انكشف مكرهم وبان كيدهم وصار المسلمون يتكلمون به قبل وقوعه، إذا عرفت هذا نجوت من توهم التكرار في النص أولاً واستغنيت عما يذكره بعض المفسرين من الفارق بين الخبرين المكررين حسب وجهة نظرهم<sup>(١)</sup> وبعد هذا التحليل أنقل لك صورة جميلة من صور عدم المغالاة في تسفيه آراء الآخرين وإن

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٦٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كانوا من أشد الناس عداوة وحقداً وكيداً. قال الإمام الرازي رحمه الله متسائلاً: "كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس؟ وأجاب بما يأتي: لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ثم أنهم عرضوا ذلك المحرف على العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكناً".

﴿ مَا كَانَ لِإِنشِرٍ وَلَا أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾  
﴿ مَا كَانَ لِإِنشِرٍ ﴾

ما نافية وكان: تدل على الحدث المطلق غير المقيد زماناً أو مكاناً أو صفة واللام في قوله: "بشر" للنسبة، كما تقول: ما ضربت لزيد أو ما علمت لزيد، لأن المقصود بالحدث هو المصدر وهو في كان: الكون أي الوجود أو الثبوت أو ما قارب هذه المعاني والنفي إذا توجه إلى الحدث أفاد نفي الحقيقة لأن الحقائق إنما هي المصادر كالعلم والحياة والوجود وغيرها فيكون المعنى: ما وجود نسبة كذا إلى بشر أي ما ثبت مطلقاً لبشر.

﴿ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾

هذا النص القرآني أنزل على محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وهذا النص من الكتاب الخاتم لجميع الكتب فليس بعده كتاب فلماذا جاء بالفعل المضارع الدال على الاستقبال "يؤتيه"؟ هو يعلم أن نبياً بعده بشرع جديد سوف لن يأتي ولن يكون ثم لماذا لم يأت التعبير هكذا: لم يؤت الله الكتاب... الخ؟ ومن المعلوم أن "لم" تدل على نفي الماضي والحوار مع أهل الكتاب والظاهر أن الحاجة إلى صيغة نفي تدل على نفي هذه المقولة في الماضي وللجواب على ذلك نقول: لو جاء النص

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بالنفي الذي يخص الماضي لقال أهل الكتاب منع عن مضى ولم يمنع عن نفسه أي محمد ﷺ وأيضاً إن النص على نفي الماضي إنما يدل على عدم الوقوع لا على عدم إمكان الوقوع فلما جاء النص بنفي الوجود المطلق دل على عدم إمكان وقوع ذلك من أي بشر يختاره الله برسالته وهذا هو معنى عصمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أن يقع منهم ذلك ألا تسجد العقول لمثل هذه النصوص القرآنية المحكمة؟..

### (يُؤْتِيَهُ)

تقول أتى زيد فتسند الإتيان إلى زيد لأن زيدا يصح أن يقع منه هذا الفعل كما تقول: نزل زيداً فإذا أردت نسبة الإتيان إلى من لا يصح وقوعه احتجت إلى نقل الفعل إلى صيغة أخرى إما بزيادة الهمزة كما هنا في "يؤتيه" فإن أصل الفعل: أتى يأتى مثل أنزل ينزل فسهلت الهمزة الثانية فصار أتى يأتي فوضعت الهمزة على الواو لأن ما قبلها مضموم فصارت يؤتي وإما بنقل الفعل إلى صيغة التضعيف مثل نزل ونزل فنقل الأفعال من صيغة إلى صيغة أخرى هذا بعض سرها ولهذا الباب من العلم أثر كبير في معرفة علم التحليل في القرآن الكريم .

وإذا علمت ذلك علمت أن القرآن والكتب السماوية لا تأتي هي وإنما يؤتى بها وفي هذا تسميع بالذين يدعون أن النفس إذا زكت من أدرانها وعلاقاتها الطينية نزل عليها القرآن وانطبع في مراتها وأنى لهم ذلك والمرسلون والأنبياء لا يأتهم الكتاب ولكن يؤتونه ؟ .

### (الِكِتَابِ وَالْحِكْمِ وَالنُّبُوَّةِ)

قال أبو حيان : " الظاهر أن الحكم هنا القضاء والفصل بين الناس" وقال

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

في تعليل الترتيب لهذه الثلاثة: هذا من باب الترقى بدأ بالكتاب وهو العلم ثم الحكم وهو التمكين وهو الفصل بين الناس ثم الرتبة العليا وهي النبوة وهي مجمع الخير ومثل قوله قال الرازي<sup>(١)</sup> وإذا أضفت إلى هذا التعليل علمك بأن ما سبق من آيات القرآن الكريم قد سارت في ذكر المحاورة مع أهل الكتاب على هذا الترتيب نفسه حيث كان النقاش أولاً عن الكتاب وموقفهم منهم ثم محاورتهم في الالتزام بعهد الله وهو حكم ثم ختم الحديث عن النبوة وما يتوهمون فيها من النبوة لله أو حلول الإلهية فيها ازداد التعليل جمالاً .

### ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي﴾

ثم : تفيد الترتيب والاستحالة إنما تكون بعد تلقي الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة فالكتاب وحده لا يكون عاصماً من ذلك ومثل الكتاب وحده الكتاب والحكم فالانثنان لا يعصمان من ذلك أيضاً ولهذا زل الأخبار والرهبان وقد أوتوا الكتاب والحكم ولكن العصمة في الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة ، وهذا أيضاً فيه تسميع بالذين يتوهمون العصمة لغير الأنبياء، فالنبي الذي يتلقى كتابه من ربه ويحكم بهذا الكتاب بين الناس يستحيل عليه في منطق العقل والطبع أن يقول: كونوا عباداً لي من دون الله لأن في ذلك مصادرة لنبوته واختلافاً مع كتابه ومناقضة مع حكمه في هذا الكتاب .

### ﴿عِبَادًا﴾

وزن فعال هو الجمع القياسي في لغة العرب لما يكون من الأسماء على وزن فَعَلَّ إذا كانت عين الفعل منه ليست ياء مثل عبد فجمعه القياسي على عباد

(١) البحر المحيط :ج ٣ /ص ٢٣٠ . والتفسير الكبير :ج ٣ /ص ٢٧١ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأما جمع كلمة عبد على عبيد فقليل جداً<sup>(١)</sup> ولهذا جاءت "عباد" في القرآن الكريم مستعملة بكثرة كاثرة بلغت - ٩٧ - سبعا وتسعين موضعاً في حين لم تستعمل كلمة عبيد إلا في خمس مواضع وكان أبو محمد بن عطية قد استقرأ استعمال الكلمتين في القرآن الكريم وفي شعر العرب فوجد أن عبادة مستعملة في أهل الطاعة وفي مواضع الثناء وأن عبيداً مستعملة في المواضع التي يقصد فيها العقاب أو الذم<sup>(٢)</sup>. واليك الآيات التي ذكر فيها جمع عبد على عبيد .

١-٢ - قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾<sup>(٣)</sup>.

٣- قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾<sup>(٤)</sup>.

٤- قال تعالى : ﴿ مَن عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

لِّلْعَبِيدِ ﴾<sup>(٥)</sup>.

٥- قال تعالى : ﴿ مَا يَذَّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾<sup>(٦)</sup>.

وإنما نقلنا لك ذلك كله لأن أبا حيان بعد أن نقل عن أبي محمد بن عطية ذلك الاستقراء حاول أن يشغب عليه بادعاء استعمال كلمة عبيد في القرآن الكريم من أجل الفاصلة<sup>(٧)</sup>، مع أن الآيتين الأولى والثانية تختلف فاصلتها عما قبلها وعما

(١) البحر المحيط : ج ٣ - ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) آل عمران : ١٨٢ . و الأنفال : ٥١ .

(٤) الحج : ١٠ .

(٥) فصلت : ٤٦ .

(٦) ق : ٢٩ .

(٧) البحر المحيط " ج ٣ / ص ٢٣١ .



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

بعدها وكذلك الآية الثالثة من سورة الحج ومن الغرابة بمكان أن هذه الآيات الثلاث جاء قبلها كلمة "عذاب الحريق" وأما الآية الرابعة فتختلف فاصلتها عما قبلها وتنفق مع ما بعدها والآية الرابعة هي الوحيدة التي جاءت فاصلتها متفقة مع ما قبلها ومع ما بعدها وهي التي استدل بها أبو حيان فكان استقراؤه هو الناقص.

### (كُونُوا عِبَادًا لِي)

من المعلوم أن مفهوم العبد ومفهوم الرب من النسب الإضافية لأنه لا يتعقل مفهوم أحدهما إلا بتعقل مفهوم الآخر فهما متضايقان فمعرفة مفهوم العبد تستلزم معرفة مفهوم الرب لأن الشخص إنما يسمى عبدا إذا كان له رب يملكه وذلك كالأبوة والبنوة، ولهذا كانت هذه الجملة "كونوا عباد لي" مساوية لقوله: أنا ربكم ولو جاء هذا النص بصيغة الأمر في العبادة مثل: اعبدوني من دون الله لما أدى هذا المعنى لأن النسبة بين العباد وبين الربوبية نسبة اقتضاء واستحقاق فلا يتوقف فهم أحدهما على الآخر لأننا يمكن أن نتصور مفهوم الرب بدون أن نتصور واقع عبادة.

### (مِنْ دُونِ اللَّهِ)

تحتمل وجهين: إما أن تعني من دون أن تكونوا عبادا لله والوجه الثاني: من دون الله أي كونوا عبادا لي والله وأنا أقرب إليكم من الله وتأخير قوله "لي" يرجح الوجه الثاني فلو أراد الأول لقال: "كونوا لي عبادا".

### (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لكن: حرف عطف للاستدراك والتحقيق يوجبُ بها بعد نفي<sup>(١)</sup> أو نهي إذا عريت من الواو<sup>(٢)</sup> مثال ذلك: ما قام زيد لكن عمرو ولا يقم زيد لكن عمرو ولكنها في الآية لم تتجرد عن الواو ولهذا جاءت جملة بعدها.

### ﴿رَبَّانِينَ﴾

الرباني: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كما يقال في رقباني ولحياتي وهو أي الرباني الشديد التمسك بدين الله وطاعته<sup>(٣)</sup>، وأما الربيون: بكسر الراء فهم الألوفا من الناس الواحد: ربِّي<sup>(٤)</sup>.

### ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلِكِتَابٍ وَمِمَّا كُنْتُمْ تُدْرُسُونَ﴾

أي بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين أو بسبب كونكم ترشدون الناس وتعلمونهم وبسبب كونكم تقومون بتدريسهم وتعليمهم الكتاب الأول على أن تعلمون وتدرسون بدون تضعيف والثاني على قراءة من ضعفهما<sup>(٥)</sup> قال الزمخشري: وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم ثم لم يجعل ذلك ذريعة إلى العمل<sup>(٦)</sup>.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالْتِمِينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

### ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾

(١) مختار الصحاح ص: ٢٥٢.

(٢) البهجة المرضية بشرح الألفية ص: ١٣٥.

(٣) الكشف ج: ١ / ص: ٤٤٠.

(٤) مختار الصحاح ص: ١٠١-١٠٢.

(٥) الكشف ج: ١ / ص: ٤٤٠.

(٦) الكشف ج: ١ / ص: ٤٤٠.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

قرأ عاصم وابن عامر وحمزة بنصب الراء فيكون المعنى: ولا له أن يأمركم فقدروا أن مضمرة بعد لا وتكون لا مؤكدة معنى النفي السابق والتقدير معهود في كلام العرب، وقرأ بعضهم "ولا يأمركم" بضم الراء على الاستئناف والمعنى على هذه القراءة: أنه لا يقع بشر موصوف بما وصف به أن يجعل نفسه رباً فيعبد ولا هو أيضاً يأمر غيره باتخاذ الملائكة والنبیین أرباباً فانتهى أن يدعو لنفسه ولغيره<sup>(١)</sup>.

**﴿أَنْ تَخْذُوا اللَّاتِيكَةَ وَالنَّبِيْنَ﴾**

إنما جاء تخصيص الملائكة والنبیین بالذكر لأن أهل الكتاب لم يقع من أحد منهم عبادة غيرهما<sup>(٢)</sup>.

**﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**

هذا استفهام تعجبي كيف يعقل أن يدعو النبي الناس إلى عبادة غير الله وهو الذي دعاهم إلى إسلام القلب والوجه لله فهل يعقل بعد أن أسلمتم الله على يديه وبدعوته يأتي ليأمركم أن تكفروا من جديد؟

**﴿إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**

هذه شهادة لأهل الكتاب أنهم أسلموا لله مع أنبيائهم ثم اعتراهم الانحراف.

(١) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٣٣.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٧٣.



## الفصل الخامس عشر

في أخذ الميثاق على النبيين  
أن يؤمنوا بمن جاء بعدهم من  
الرسول المصدقين بما معهم



الفصل الخامس عشر

في أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمن جاء بعدهم

من الرسل المصدقين لما معهم

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَضَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثُ لَهٗ، أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا نُبَأٌ عَشْرًا وَإِلسَانًا مِثْلَ لِسَانِكَ وَلَا يَسْمَعُ الْبَصِيرُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَنَعَتْ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ آل عمران: ٨١ - ٩١

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

في هذا الفصل النص على الحقيقة الكبرى وهي أن الله لم يبعث نبياً ولم يرسل رسولاَ إلا وأخذ عليه الميثاق أن يؤمن بمن جاء من بعده من رسول ونبي طالما كان هذا الآخر يصدق كتاب الأول في كتابه وكذلك أخذ الله الميثاق لنصره وأشهد الله أنبياءه عنى ذلك فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين" بعد هذه المقدمة الموجزة ندخل في تحليل النصوص.

### ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

العامل بإذ محذوف تقديره: واذكر إذ... وإذ ظرف تفيد المضي بخلاف إذا الموضوعه للاستقبال.

### ﴿أَخَذَ اللَّهُ﴾

إنما أسند الفعل إلى الله لأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يقع إلا منه عز وجل لأنه هو الذي اختصهم برسالته ونبواته.

### ﴿مِيثَاقٌ﴾

الميثاق العهد والنقة: الأمان نقول: وثقت به أي ائتمنته<sup>(١)</sup>، و"ميثاق" مصدر مضاف إلى "النبیین" فاحتمل وجهين:

الأول: أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله فيكون المعنى أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق على أممهم والله أخذ من النبيين ما أخذوه على أممهم

والثاني: أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله ويكون المعنى أن الله هو الذي أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمن جاء من بعدهم وهو يصدق

(١) مختار الصحاح ص: ٢٩٥.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

ما معهم<sup>(١)</sup>.

وأحسب أن الوجه الثاني هو الراجح لأنه يستلزم الأول دون العكس أي أن أخذ العهد على الأعلى يستلزم أخذ العهد على الأدنى ولكن أخذ العهد على الأدنى لا يستلزم أخذ العهد على الأعلى والله أعلم.

وسواء رجحت هذا أو ذلك فالقضية التي يطرحها القرآن الكريم واحدة في حقيقتها وهي إشعار المملوكين بأن الله هو صاحب الأمر والنهي يرسل الرسول اليوم ويرسل غيره بعد غد وينزل الكتاب اليوم وينزل غيره غداً.

هذه الحقيقة التي لا يني القرآن الكريم من ذكرها الخلق لله إذا انتسبوا إلى نبي وكتاب فإنما ينتسبون إليهما من أجل الله وبأمر الله ولا يجوز لهم أن ينسوا نسبتهم إلى الله أولاً عباداً مملوكين له ﷺ وأنهم إذا اتبعوا رسوله وكتابه فإنما يتبعون الله الذي أمرهم بذلك لا عصبية لرسوله ولا لكتابه.

**(لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)**

**(لَمَّا)**

قرأ الجمهور بفتح اللام على أن ما اسم موصول والذي بعده صلة له وخبره قوله: "لتؤمنن به" والتقدير: للذي آتيتكم من كتاب وحكمة، فما مبتدأ واللام الداخلة عليه لام الابتداء للتوكيد كما تقول: لزيد قائم والضمير العائد إلى "ما" محذوف تقديره: لما آتيتكموه.

(١) انظر الوجهين في التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٧٤-٢٧٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وقرأ حمزة بكسر اللام وما أسم موصول فتكون للتعليل فكأنه يقول: أخذ الله ميثاق النبيين لهذا لأن من يؤتى الكتاب والحكمة يجب عليه التصديق بكل رسول وكتاب مصداقاً لما معه.

وقرأ سعيد بن جبير لماً بتشديد الميم ومعناها حين أي حين آتيتكم<sup>(١)</sup>.

### (ءَاتَيْتُكُمْ)

التأكيد على أن الكتاب والحكمة إنما هما من إعطاء الله لهم للدلالة على أنه لا يصح لمن يعطى شيئاً أن يتعصب لذلك الشيء ضد معطيه.

### (مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)

من بيانية أي أن الكتاب والحكمة ليسا كل ما آتيتكم فأول ما آتيتكم وجودكم وعقولكم وتخصيصكم على الخلق بالخلافة والتكريم فإذا كنتم تدينون لي بهذا كله وأني خلقتكم وأنتم عبادي ومماليكي فكيف لا تقبلون مني رسولاً بعد رسول وكتاباً بعد كتاب والكل من عطائي أنا جل جلال الله.

### (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)

### (ثُمَّ جَاءَكُمْ)

الخطاب في جاءكم إما إلى أمم الأنبياء والمرسلين إن قلنا بالوجه الأول من تفسير ميثاق النبيين وإما إلى الأنبياء على الوجه الثاني الذي رجحناه والمهم أن يفهم الناس أنهم يتبعون أنبياءهم وكتبهم لأمر الله بذلك<sup>(٢)</sup>.

### (رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)

(١) انظر التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٧٥-٢٧٦. الكشاف ج: ١ / ص: ٤٤١.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٧٧.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

يتفق العلماء قاطبة أن العقيدة وما يتصل بها أمرٌ تتفق عليه جميع الديانات الإلهية ولهذا يقولون إن العقائد لا يعترئها النسخ ولا التبديل فلا يوصف الله في ديانة بخلاف ما يوصف به في ديانة أخرى فإله الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل هو الذي بين لنا عن نفسه ما بيّن في كتبه وعلى السنة رسله. وهذا الجانب الإلهي هو المقصود بالتصديق من النبي الجديد وهو البرهان الصادق الذي لا يعترئيه شك على صدق النبي الجديد وذلك لأن الله ﷻ الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء لا يعرف وصفه أحد ولا يحيط أحد به علماً وكل ما بيد الناس عن الله إنما هو من هذا الجانب أي ما تلقوه عن السنة الرسل وما قرؤوه فيما أنزل من كتاب. فإذا جاء رجل يدعي النبوة فإنما يُعرف صدقه بما يذكره عن الله من صفات لأن هذه الصفات لا يمكن أن يعرفها إلا نبي يتلقى عن الله، وهذه العقيدة وما حولها من مفاهيم تكون بمثابة ختم الملك للدلالة على صدق حامل الكتاب أنه جاء من قبل الملك، وأما الشرائع التي تخص تنظيم العلاقة فيما بين الناس أو ترسم شكل العبادة التي يقوم بها المخلوق لخالقه فهذه وتلك لا يمكن أن نفترض مصادقة الدين اللاحق للدين السابق بها، إذ عند ذلك تنتفي الحاجة إلى الجديد من الدين هذا ما أطمئن إليه من معنى النص والله أعلم.

﴿لَا تُؤْمِنُ بِهِمْ وَلَا تَنْصُرُهُمْ﴾

اللام لام القسم وهذا هو الميثاق وهو العهد لا يرسل الله رسولاً ولا يبعث نبياً الا ويأخذ عليه هذا العهد الغليظ والله لأؤمنن به والله لأنصرنّه، وهذا العهد وهو إيمان السابق باللاحق أكد بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة وبصياغة النص للجماعة ودلالته على أن الجميع قد أخذ عليهم هذا العهد فيه توكيد آخر لما يتضمنه من معنى إسهاد بعضهم على بعض.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأنت ترى أن الميثاق يحمل بندين: الإيمان والنصرة ولنتمعن فيهما جيداً يؤمن بمن؟ وينصر من؟ وإنما سمي الرسول رسولاً لأنه يحمل رسالة من غيره إلى غيره وهو يكون مشمولاً بالرسالة التي بيده، المرسل يريد إيصال الرسالة والإيمان بالرسول أنه رسول من المرسل يعني قبول هذه الرسالة التي يحملها من المرسل، إذن فالإيمان بالرسول إنما يراد لإيصال الرسالة التي بيده.

ومن المعلوم بدهامة أن الرسالة لم يرسلها من أرسلها من أجل أن تقرأ فقط لأن فيها أمراً ونهياً وفيها أخبار وقصص وفيها فإيمان بها إنما هو العمل بها والرسول مبلغ ومبين وأسوة، وعلى هذا الفهم يكون البند الثاني "النصرة" إنما هو نصر رسالته ونصر العمل بها على أعدائها وعلى الصادقين عن العمل بها.

**(قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي)**

**(أَقْرَرْتُمْ)**

أي على ما تقدم من الإيمان والنصرة وسواء قلنا أن الميثاق على النبيين من الله أو على الأمم من أنبيائها فيطلب الحق إقرار النبيين على ذلك فيقرون على أنهم أعطوا الميثاق أو على أنهم أخذوا الميثاق على أممهم والإقرار: الإثبات والاعتراف والتصديق. والأخذ: بمعنى القبول أي وقبلتم هذا العهد؟

**(إِصْرِي)**

أي عقدي وعهدي قال في الكشاف: سمي العهد إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ومنه الإصرار الذي يعقد به<sup>(١)</sup>.

**(قَالُوا أَقْرَرْنَا)**

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٤١. مختار الصحاح ص: ١٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أي قال النبيون أقررنا، وهذا الخطاب مع ما سبق من السياق في خطاب المجموع وما يأتي من الإشهاد يوحى بإمكان أن يكون الله قد جمعهم عليهم الصلاة والسلام وأخذ عليهم هذا العهد والميثاق وهو معنى يوحى به النص ولا يرده السياق وفي القرآن الكريم ما هو مثله من أخذ العهد على ذرية آدم بالإقرار بوحدانية الله ﷻ والله أعلم.

﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

هذه الآية فيها من معاني التنزيل الإلهي لعباده ما لو استشعره العبد بكله لخر خاشعاً لله رب العالمين، ترى لماذا يتنزل المالك لمملوكيه كل هذا التنزيل؟ عهد وإقرار وإشهاد اشهدوا! لمن وعلى من؟ وأمام محكمة من؟ أترانا نتنزل مع أهلينا مثل هذا التنزل؟ أترى قادة الناس من الناس يفعلون ذلك مع الناس؟ إنه الرب ونحن العباد إنه المالك ونحن المملوكون لا يمكن أن يعاملنا غير ربنا مثل ربنا ولهذا نقول: الحمد لله رب العالمين.

قال الرازي: وفي تفسير قوله "فاشهدوا" وجوه: الأول: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً.

الثاني: أنه خطاب للملائكة الحاضرين هذا الميثاق بطريق الإلتفات.

الثالث: أي ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه ونظيره "وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا" وهذا من باب المبالغة<sup>(١)</sup>، وذكر وجوهاً أخرى استبعدناها عن بحثنا فانظرها إن شئت.

﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(١) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٧٨.

## التفسير التحليلي للشرط الأول من سورة آل عمران

(تَوَلَّى)

أي أعرض "بعد ذلك" أي بعد هذا العهد والميثاق.

(فَأُولَئِكَ مِمَّنْ أَلْفَسِقُونَ)

أي بعد ظهور الدليل وهو تصديق ما جاء به الرسول أو النبي الجديد لما جاء به الرسول أو النبي الذي قبله.

(الْفَلْسِقُونَ)

فسق عن أمر ربه: أي خرج وفسقت الرطوبة: خرجت عن قشرها قال ابن الأعرابي: لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق قال: وهذا عجب وهو كلام عربي<sup>(١)</sup>.

(فَمَنْ تَوَلَّى)

(تَوَلَّى)

فعل الشرط وهو فعل ماضٍ ومن المعروف أن من وجميع أخواتها من أدوات الشرط تقلب الفعل الماضي إلى الاستقبال وسواء في ذلك فعل الشرط وجزاؤه.

وقبل أن نغادر هذه الآية التي كانت كالتعقيبة للآية التي قبلها أفلا يحس القارئ معي أن النص يحمل في طياته روحاً استعلانية عظمية؟ هل بالإمكان أن يتحدر هذا النص بهذا العنف العنيف والقسوة القاسية من روح وادعة كلها أمل وعبودية وتبتل؟ أنظر إلى من يوجّه هذا الخطاب ثم تمعن في فهمه وقل لي بعد ذلك ممن يكون؟ إن مثل هذه النصوص تدعو رواد الأدب وقادة النقد الذاتي

(١) مختار الصحاح ص: ٢١٣.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

وأستاذة علم النفس ليحللوا هذا الخطاب من جوانبه المتعددة ويقرروا بعد ذلك المصدر الذي يمكن أن يُصدر مثل هذا القرار هذا أولاً.

**وثانياً:** لعل القارئ يسأل لماذا تخطيت ما درج عليه أكثر المفسرين من أن هذه الآية والتي قبلها إنما جاءت للتأكيد على أن جميع الكتب والأنبياء السابقين قد بشروا بمجيء الخاتم ﷺ وأن الميثاق إنما كان للإيمان به ولنصرته وبعثته ونعتذر لهؤلاء المحبين بأن الروح العام هو الطاغي على كلمات النص وحروفه وبما أن محمداً ﷺ واحد ممن ينطبق عليه النص فينبغي أن لا نقيد النص الحاكم بالحادثة التي حكم فيها وإلا انقلب المحكوم حاكماً والنص بعمومه فيه تصديق لعيسى عليه السلام في حكمه بالكفر على من لم يؤمن به من يهود فيكون بهذا العموم دافعاً لليهود بالكفر مرتين الأولى عندما لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام والثانية حين كفروا بمحمد ﷺ وكذلك يبقى النص حاكماً عند مجيء عيسى عليه السلام ويكون نبياً يحكم فينا أمة محمد ﷺ فمن كفر بنبوته لحقه الحكم نفسه وإن كان يحكم بالقران الكريم وبما ثبت أن النبي ﷺ قاله من بيان والله أعلم.

**﴿أَفَعَدَّ دِينَ اللَّهِ يَجْعُونَ لَهُمْ أَسْمَاءً مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**

**وَالَّذِينَ يُجْعَلُونَ**﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف عطف والمستفهم عنه بإنكار إنما هو فعل محذوف والتقدير: أيتولون فغير دين الله يبعثون؟ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله الذي هو يبعثون لأنه أهم من حيث الإنكار الذي هو معنى الهمزة وقد توجه إلى الدين الباطل<sup>(١)</sup>.

(١) الكشاف ج: ١/ ص: ٤٤١-٤٤٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿أَفَرَأَيْتَ دِينَ اللَّهِ﴾

قد يقول قائل: كيف سماه غير دين الله وهم على دين أنبيائهم؟  
ويجاب عن هذا بأن الله ﷻ جعل دينه الإسلام له لا تعاليم بعينها فان  
الشرائع والتعاليم إنما تكون دين الله من حيث أمر الله بها فإذا أبطلها أو أمر بغيرها  
لم تعد دين الله كالفقانون الملغي والنقد الملغي.

### ﴿دين الله﴾

دين: بكسر الدال مصدر دان يدين على وزن عَمَّ يعلم وأما الدِّين فهو  
مصدر دان يدين على وزن باع يبيع.  
والدين بكسر الدال: العادة والشأن والجزاء والمكافأة والطاعة والملك  
فيقال: دانه أي جازه أو كافأه ويقال: دانه أي ملكه<sup>(١)</sup>.  
ودين الله: طاعته وأمره ونهيه والإسلام له.

### ﴿يَبْغُونَ﴾

البغية: بكسر الباء وضمها الحاجة وبغى الشيء طلبه وقولهم: ينبغي لك  
أن تفعل كذا: من أفعال المطاوعة تقول: بغاه فانبغي مثل كسرتة فانكسر<sup>(٢)</sup>.

### ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر ومعنى أسلم: انقاد أي أن من في  
السموات والأرض منقادون لله.

(١) مختار الصحاح ص: ٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص: ٣٢.



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

خلق الله بعض خلقه يسير على ناموس بعينه - الكواكب والنبات والأحياء عدا عالمي الإنس والجن من المكلفين وعدا الملائكة المفطورين على الطاعة - وخلق البعض الآخر على الاختيار في مسيره وهم الإنس والجن فلا الذين خلقهم على ناموس بقادرين أن يغادروا هذا الناموس ولا المخلوقين على الاختيار بقادرين أن يغادروا قدرتهم على هذا الاختيار، فالكل مسلم في خلقه على الحالة التي خلقهم عليها<sup>(١)</sup>.

### ﴿مَنْ فِي...﴾

تستعمل من للعاقل والعاقل في اللسان العربي من المخلوقين الملائكة والأنس والجن وشملت هنا غيرهم من غير العاقلين تغليبا للعاقل على غيره هكذا يجيب أهل اللسان في العربية، والذي يصغي إلى القرآن الكريم قد يجيب بغير هذا الجواب فإن الله ﷻ وهو الخبير بخلقه تحدث عنهم بغير ما يعرفه الناس عن خلقه تحدث عن النحل وعن النمل وعن... وعن وقال عن الجميع ﴿تَسِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسِيحُ بِهِمْ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾<sup>(٢)</sup>.

### ﴿السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

جمع السماوات وفُراد الأرض ولو كنا نعيش على القمر لقال: السماوات والقمر وهكذا أينما تكون أنت فالباقي سماوات بالنسبة إليك لأن السماء كل ما علاك والعلو والسفل من الأمور النسبية هذا ما عنَّ لي والله أعلم.

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٤٧.

(٢) الإسراء: ٤٤.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

الطوع: هو الانقياد والاستسلام تقول: هو طوع يديه أي منقاد له والمطاوعة: الموافقة ومنه أفعال المطاوعة<sup>(١)</sup>. والطوع: الذي لا تكلف فيه<sup>(٢)</sup>، وبهذا يكون طوعاً بمعنى إسلاماً فكأنه قال: وله أسلم... إسلاماً، والكره: بفتح الكاف ما فيه مشقة قال أبو حيان: "بمعنى أن التكليف جاءت على مخالفة الشهوات النفسانية فلو لم يأت رسول من الله مبشر بالثواب ومنذر بالعقاب لم يلتزم الإنسان شيئاً من التكليف كذا قال"<sup>(٣)</sup>. وفي مختار الصحاح: الكره بالضم: المشقة وبالفتح الإكراه يقال: قام على كرهه بالضم أي على مشقة وأقامه فلان على كرهه بالفتح أي أكرهه على القيام<sup>(٤)</sup> وهو على هذا بمعنى الاستسلام فكأنه يقول: اسلم إسلاماً واستسلاماً.

### ﴿وَالِيَهُ يَرْجِعُونَ﴾

فيه احتمالات ثلاثة:

الأول: أن يكون العطف على صدر الآية "أفغير دين الله يبغون... وإليه يرجعون" فيكون على التهديد عند ابتغاء غير دين الله.  
الثاني: أن يكون العطف على قوله: "وله أسلم... وإليه يرجعون" فكأنه يقول لهم كيف تبغون غير دين الله ومن في السماء والأرض أسلموا لله ورجعوا إليه في حاجتهم؟

(١) مختار الصحاح ص: ١٧٠-١٧١.

(٢) البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مختار الصحاح ص: ٢٣٩.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الثالث: أن يكون استئناف خبر جديد وهو أن مصيرهم ومنقلبهم إلى الله فيجازيهم بما كانوا يعلمون<sup>(١)</sup>.

وعندما نقول فيه ثلاثة احتمالات أو أن نصاً فيه أقل أو أكثر فإنما ذلك بالنسبة إلى فهمنا نحن البشر الذين يستقون المعنى من ظاهرة النص وهو مصوغ بلغة البشر وما يألفون ويعرفون من معان وأفكار أما بالنسبة للخالق ﷻ فقد صاغ هذا النص وهو على علم بما يحتمل من معان وما يعطي من أفكار، ومن المعلوم أن النص إذا وضع بعلم وكما نقول نحن البشر وعلى عمد لا يجوز أن يوصف أي احتمال بالخطأ لأن الخطأ إنما يوصف به من أخطأ مقصود الناص وهذا إنما يمكن افتراضه في كلام البشر لا في كلام الله تعالى هذا رأيي وهو ما أدين الله به فإن أصبت فبتوفيق الله وإن أخطأت فحسبي أني اجتهدت والله غفور رحيم.

**﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِنَّبِرْهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**

**﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾**

التصدير بقل كالرد على ما يقتضيه الإنكار في الآية السابقة فكأنه يقول: كلا لا نبغي غير دين الله ديناً بل آمنا بالله... الخ.

**﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾**

أصل الفعل: آمن تقول: أمن زيد أي صار آمناً فإذا أدخلت عليه الأمان قلت: أأمنت زيدا أي جعلته آمناً فإذا عبرت عن نفسك قلت: أأمنتُ بزيدا أي أن زيدا

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ ص: ٢٤٨.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هو الذي جعلك في أمنٍ وبما أن الفعل الثلاثي مهموز الفاء فإذا دخلت عليه همزة التعديّة اجتمعت همزتان فسهّلت الثانية ألفاً فصارت آمن وهي مشابهة لصيغة فاعلٍ فإذا قلت آمن زيد عمرا إن حملتها على المزيد بهمزة صار معناها أن زيدا أدخل أو أعطى الأمن لعمرو وإن حملته على المزيد ألفاً للمفاعلة صار معناها أن كل واحدٍ منهما آمن صاحبه.

### ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾

أي بالله وبما أنزل علينا قال في الكشف: فإن قلت: لم عدّي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر<sup>(١)</sup>.

### ﴿ وَمَا أَوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

أحسب أن تغيير الخطاب في الكلام على موسى وعيسى والنبيين إلى هذه الصيغة "وما أوتي" بدل "وما أنزل" فيه ترفق بأهل الكتاب إذ كان حبهم ولعهم وتمسكهم بموسى وعيسى والنبيين ليس من الولع بالكتاب المنزل بل بما أوتي كل واحد منهم من الآيات على صدق رسالته ونبوته فما أوتي كل منهم أقرب إلى نفوس متبعيهم مما أنزل عليهم فأراد القرآن أو الله في القرآن أن يوصل إليهم رسالة مفادها أن من آمن بمحمد ﷺ وكتابه يؤمن بكل ما أوتي موسى عليه السلام من الآيات وبكل ما أوتي عيسى أيضاً بل أراد الله ﷻ أن يقول لهم أن محمداً ﷺ وكتابه أحفظ للأجيال المتعاقبة لما أوتي موسى وعيسى عليه السلام، ألا ترى أن إيمان من يؤمن

(١) الكشف ج: ١/ص: ٤٤٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

اليوم بما أوتي موسى وعيسى من عطاء الإيمان بمحمد ﷺ وكتابه وليس من عطاء التوراة والإنجيل؟ إن القرآن قد حفظ ما أوتي موسى وعيسى وما أوتي الأنبياء والمرسلون من قبلهما ومن بعدهما ولولا هذا الحفظ الكريم لرأيت اليهود والنصارى أعجز من أن يثبتوا ذلك أو بعضه ولرأيت الإيمان بما أوتي موسى وعيسى أدنى إلى الخرافة منه إلى الحقيقة.

### (لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ)

كل مسلم من عالم وجاهل وعربي وأعجمي وذكر وأنثى يؤمن بأن الأنبياء من لدن آدم إلى الخاتم محمد ﷺ إنما يستقون من عين واحدة كلهم يأمران بما أمر الله وينهون عما نهى الله عنه ليس لهم من ذات أنفسهم شيء من الدين ولا طمع في نبوة أو رسالة، وتلك هي عالمية الإيمان في الإسلام يؤمن أهله بكل ما آمن به من مؤمن بالله ورسالته على أي كتاب كان وأي رسول أو نبي تابع يؤمن أهل القرآن وأتباع محمد ﷺ بكل كتاب أنزل وبكل نبي أرسل وبكل إنسان نبئ لا يفرقون بين الإيمان بمحمد والإيمان بنوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو غيرهم لا يُعدُّ المسلم مسلماً إلا بأن يؤمن بالكل فلو كفر بواحد عدَّ كافراً بالكل أليست هذه عالمية الإيمان التي لا يقوم بها دين ولا أهل دين إلا الإسلام وأهله.

والفارق بين لا نفرق ولا يفرق أن الأولى ليست خبراً بل ميثاقاً ولهذا يستغرق الزمن كله وأما لا يفرق فالنفي عن الغير يصدق على غالب الظن أولاً وعلى نفي التجدد ثانياً.

### (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

له أي لله وحده فليس التسليم لكتاب بخصوصه ولا لنبي أو رسول باسمه أو بشخصه أمنا بالله فأمنا بكل كتبه وأنبيائه ورسالته لا نفرق بين أحد منهم لأن

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

المرسل والمنزل واحده ﷺ فنحن مملوكون له لا لغيره لا يختلف إنسان عن إنسان في هذه المملوكية رسولا كان أو نبيا أو كان من عامة الناس بل الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أكثر الناس شعورا بهذه المملوكية وأكثرهم أداءً لحقوقها.

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾

قلنا أن الابتغاء الطلب ومن يبتغ: أي ومن يطلب.

﴿ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾

الإسلام: مصدر أسلم فإسلام الشخص نفسه لربه هو الدين كله هذا هو الدين الذي دعت إليه الكتب المنزلة من الله وهو الدين الذي نادى به الأنبياء والرسل إسلامك النفس الله يجعل من السهل عليك أن تنتقل من التوراة إلى الإنجيل ومن هذين إلى القرآن ومن موسى إلى عيسى ومن عيسى إلى محمد ﷺ أجمعين أنظر لنفسك فإن الفارق كبير جدا بين من آمن بالله لأنه أنزل التوراة وبين من آمن بالتوراة لأن الله أنزلها الفارق كبير جدا بين من أحب الله لأنه أنزل القرآن وبين من أحب القرآن لأن الله أنزله المسلمون أسلموا لله فتركوا دين الآباء والأجداد ومن تمسك بالتوراة والإنجيل آمن وأسلم للتوراة والإنجيل فترك الله والإيمان به، محمد ﷺ علم الناس أن دينه الإسلام لله لا له وبذلك استحق دينه أن يسمى الإسلام وكذلك كان الرسل من قبله ولكن الناس ضلوا الطريق فأسلموا للتوراة وموسى لا لله وللإنجيل وعيسى لا لله هداانا الله وإياهم إلى الإسلام لله لا لغيره وإذا عرفت ذلك لم يبق معنى للخلاف في المراد من كلمة الإسلام في هذه الآية<sup>(١)</sup>.

(١) انظر البحر المحيط ج: ٣/ص: ٢٤٩-٢٥٠. التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٨٢.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

**﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**

كيف يرضى الملك أن تتبع رسولا وأنت تنسى أنه رسول؟ كيف يرضى الملك أن تعبد الرسول وتكفر بالمرسل؟ تلك وأيم الله ضرورة من ضرورات العقل ما كان ينبغي أن يجهلها أحد.

**﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**

قال في الكشاف: "من الخاسرين" من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشيعاء<sup>(١)</sup> أي أن القرآن لم يذكر الخاسرين من ماذا؟ وذلك من أدلة العموم الذي عبر عنه أبو القاسم الزمخشري بالشيعاء وهو مصدر شاع يشيع إذا انتشر.

**﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾**

أي في آخرة الأمر أو في آخرة الحال أو في الآخرة المعهودة وهي الحياة الآخرة.

**﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ**

**الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**

**﴿كَيْفَ﴾**

اسم مبهم غير متمكن وإنما حرك لاتقاء الساكنين وهو للاستفهام عن الأحوال وقد يقع للتعجب<sup>(٢)</sup> مثل هذه الآية وذلك لأن الله لا يخفى عليه شيء حتى يستفهم عنه.

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٤٢.

(٢) مختار الصحاح ص: ٢٤٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾

لا زال الخطاب يتحدث لنا عن أهل الكتاب من الذين لم يؤمنوا بالدين الجديد<sup>(١)</sup> إنهم آمنوا بالله وآمنوا بالتوراة أو بالتوراة والإنجيل وما من كتاب إلهي ولا نبي قبل محمد ﷺ يقول للناس أنا الخاتم فلا كتاب بعدي ولا نبي بل إن الكتابين يبشران بمجيء كتاب بعدهما، فإيمانهم اليهود والنصارى يلزمهم عدم الوقوف عندها بعد مجيء الكتاب الخاتم والنبي الخاتم فلما جاءهم القرآن الكريم ومن أنزل عليه ﷺ وكفروا به فقد كفروا من جهتين بما في كتابهم من التبشير بالدين الجديد وبالدين الجديد أيضاً فإذا طلبوا الهداية من كتابهم بعد إلغائه ونسخه كانوا كمن يريد التعامل بنقد بعد إلغائه كيف يعاملهم الناس بهذا النقد الملغي؟

﴿ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾

الواو للعطف وشهدوا معطوف على كفروا من عطف الجملة على الجملة والواو لا تقتضي الترتيب لأن شهادتهم قبل كفرهم هذا ما ذهب إليه ابن عطية<sup>(٢)</sup>، وأحسب أن الذي حسن هذا العطف مع مغايرة الترتيب أن الجملتين موقعهما النعت لقوله "قوماً" والقاعدة في ذكر الصفات المتعددة أن تذكر حسب الأهمية في موضع الخطاب لا حسب النظم الوقوعي في الزمن، وهذا أفضل من اختيار الزمخشري أن العطف على آمنوا المفهوم من إيمانهم وأفضل أيضاً من تجويزه أن تكون الواو واو الحال ويقدر "قد" بعدها على تقدير: وقد شهدوا.<sup>(٣)</sup>

(١) البحر المحيط ج ٣ / ص ٢٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الكشف: ج ١ / ص ٤٤٢ .



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ)

قال أبو حيان: والرسول هنا: محمد ﷺ قاله الجمهور وجوز أن يكون الرسول هنا بمعنى الرسالة قال: وفيه بعد<sup>(١)</sup> والذي يرجح قول الجمهور أن كلمة "رسول" ليست مصدراً بل هي اسم فاعل فكيف يُفسر بالرسالة ثم إن الألف واللام الداخلة عليه ترشح أن يكون ما دخلت عليه معهوداً ذكراً أو ذهنياً وأن يكون له مدخل في الإيمان والكفر بالنسبة لأهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ ومن المعلوم أنهم كفروا برسول وهو محمد ﷺ ولم يكفروا بعموم الرسالة، على أن النص ليس فيه دلالة واضحة على أنهم آمنوا بمحمد ﷺ ودخلوا في الإسلام بل الأقرب في دلالة النص أنهم شهدوا أن هذا الرسول الموصوف عندهم في التوراة والإنجيل حق يجب عليهم الإيمان به ولهذا اضطروا بعد مجيء محمد ﷺ أن يزوروا صفته على أتباعهم لكي لا تنطبق عليه صفته فيطالبونهم بالإيمان به ﷺ ومن المعلوم أن أهل الكتاب- اليهود والنصارى- يشهدون أن الرسول الذي صفته في كتبهم حق ولكنهم ينتظرون مجيئه؟ قاتل الله الضلال والنتيه فكم أعمى من قبيل!!؟

### (وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

البيئات: أدلة النبيين والمرسلين على صدق دعواهم النبوة والرسالة وهي جمع بيئة ويكتفي من المفسرين من علق على إسناد الفعل إلى المؤنث المجازي بالقول: أن الفعل إذا أسند إلى المؤنث المجازي ولم يتقدم على الفعل جاز فيه وجهان إلحاق تاء التأنيث وعدم إلحاقها فيجوز أن تقول: جاءتهم البيئات وجاءهم البيئات، وذهب بعض من لقيتهم من مشايخ العلم إلى التفريق في مواطن الخطاب

(١) البحر المحيط ج ٤ / ص ٢٥٢ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

فإن كان هذا المؤنث مجازياً قد كان له أثر وفعل في الواقع جاء الفعل قبله خالياً من علامة التأنيث؛ وإن كان عديم الأثر في موقع الخطاب جاء الفعل مصحوباً ببناء التأنيث، وبناء هذا الفارق كما يقولون على أن التأنيث من مقولة الإنفعال وأن التذكير من مقولة الفعل أي التأثير لا التأثر والله أعلم.

وأنت ترى أن البيئات التي جاء بها محمد ﷺ على صدق دعواه في غاية التأثر بل التحدي وحقائقها كما تطرب العقلاء بيانا تضرب السفهاء تقريباً وإهانة.

### ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

لا نافية دخلت على فعل مضارع وهو يفيد التجدد فيكون النفي متوجهاً إلى تجدد هدايتهم فإذا قلت: فلان لا يدرس أو لا يفهم فليس معناه نفي الدراسة والفهم مطلقاً بل نفي التجدد فيهما فإن أردت الدوام والتجدد في النفي قلت: لا يدرس أبداً والهداية هنا هداية الإيصال لأن هداية الدلالة عامة لظالم وغير ظالم.

فيكون معنى لا يهديهم: أي لا يأخذ بأيديهم بل يتركهم إلى نفوسهم فإن شاعوا اهتدوا وإلا فلا ويعد هذا قيماً آخر على المنفي فلا يهديهم دائماً هداية إيصال ويقابل النفي: وقد يهديهم أحياناً هداية إيصال وكم من ظالم هداه الله بدعوة أحد والديه أو بعمل صالح يقوم به فتدركه العناية الإلهية فيأخذ بيديه، غفرانك اللهم.

### ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الألف واللام في " القوم " تحتل وجهين:

الأول: أن تكون عهدية فيكون النص متحدثاً عن صنف بعينهم.

الثاني: أن تكون جنسية فتفيد الاستغراق فيكون النفي متوجهاً إلى نفي الهداية عن كل القوم لا عن بعضهم وبذلك تتلاقى القيود على النفي ويكون المعنى الكلي للآية: والله لا يهدي هداية إيصال دائماً كل القوم الظالمين.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### ﴿الظَّالِمِينَ﴾

أصل الظُّم وضع الشيء في غير محله<sup>(١)</sup> واستعمل في منع الحق أن يصل إلى أهله.

### ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

### ﴿أُولَئِكَ﴾

إشارة إلى قوله "قوما" وقوله "جزاؤهم" أي استحقوه على كفرهم.

### ﴿أَنْ عَلَيْهِمْ﴾

أن واسمها وخبرها في محل رفع خبر "جزاؤهم" وجزاؤهم وخبره خبر أولئك وإذا عرفت هذا علمت أن اللعنة لم تتوجه إليهم بل أخبر الله سبحانه أنهم يستحقون ذلك على فعلهم، وتقديم خبر أن على اسمها يفيد الاختصاص فهؤلاء هم الذين يستحقون هذه اللعنة.

### ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾

اللعن: الطرد والإبعاد من الخير واللعنة: الاسم<sup>(٢)</sup>.

أي تلوهم لعنة الله وتضللهم أينما كانوا فهم بعيدون عن الخير لأنهم كفروا بمن بيده الخير كله "مالك الملك" وهم بعيدون عن الخير للناس لأنهم لم يسلموا لمالك الجميع حتى ينظروا إلى غيرهم بعين الأخوة في مملوكيتهم لله .

### ﴿أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾

(١) مختار الصحاح ص: ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص: ٢٥١ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

هذه بديهة من بديهات العقل عندما يطرد الله مخلوقاً لا يطرده حتى يتبرأ هذا المخلوق من خالقه ويسلم وجهه لغيره وعندما يتبرأ واحد من أبيه ويطرده أبوه يطرده جميع أخوته لأنه هو الذي تحلل مما يربطه بهم وهو أبوه فعندما تبعد من الأصل فقد ابتعدت عن جميع فروعها، فمن من الملائكة يقدم إليه بخير وهو قد ابتعد عن الله؟ من يجراً على ذلك؟ بل من يقدر على ذلك؟ إن الكل يشحذ الخير من الله لنفسه أو لغيره.

**﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ﴾**

أولئك عليهم لعنة الناس هكذا يكون سياق الكلام. فلا يدخلون مع عموم الناس الذين يلعنونهم حتى يمكن استشكال التعبير بعموم الناس وهم من الناس<sup>(١)</sup> لأن من يخرجهم الناس فيلعنوه لا يكون داخلاً فيهم.

**﴿أَجْمَعِينَ﴾**

التأكيد بأجمعين يحتمل وجهين :

الأول: أنها تعود إلى المجموع-الله والملائكة والناس- فهم جميعاً وأجمعين يلعنونهم.

والثاني: أنها إلى الناس فقط- الناس أجمعين- أولئك عليهم لعنة الناس أجمعين وأي إشكال فيها؟ أولئك من الناس عليهم لعنة الناس أجمعين فلا يمكن أن يتبادر إلى الذهن سؤال: كيف يلعنهم الناس أجمعون وهم من الناس إلا على بارد الذهن ركيب السليقة.

**﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾**

(١) أنظر التفسير الكبير : ج ٣ / ص ٢٨٥ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### (خَلْدَيْنِ)

" الخلد: دوام البقاء ويقال: أخلد إلى فلان أي ركن إليه ومنه قوله تعالى: " ولكنه أخلد إلى الأرض" (١) والخلدُ: البال تقول: وقع في خلدي أي في قلبي (٢).

### (فِيهَا)

أي اللعنة أي مطرودين دائماً فليسوا من الذين تتجدد اللعنة عليهم وهذا هو الفارق بين قولنا- يلعنه الله- وقولنا- عليه لعنة الله خالداً فيها-، فإن التعبير بالفعل المضارع لإفادة التجدد وفيه زيادة التوبيخ وإسماع ما يؤلم وأما الثانية- التعبير بالاسمية- فهو لإفادة استعلاء اللعنة عليهم وخلودهم فيها بدون أن يتجدد لهم اللعن في كل وقت، وعبر عن علو اللعنة في أول الآية وعن مظلومية اللعنة لهم في بداية الآية التي بعدها للدلالة على نزولها- أي نزول آثارها- عليهم وإحاطتها بهم من كل جانب حتى صاروا فيها.

### (لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ)

خَفَّفَ يخفف تخفيفاً: التخفيف ضد التثقيل والثلاثي خَفَّ معناه صار خفيفاً (٣). فالتخفيف تفعيل مصدر خَفَّفَ ويطلق إذا جعل التثقيل خفيفاً مرة بعد مرة، والفارق بين لا يُخَفِّفُ العذاب ولا يُخَفِّفُ العذاب أن الثاني نفي لتكرير التخفيف لا لأصل الخفة والأول عكسه فقول الرازي: فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف (٤)

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) مختار الصحاح ص: ٨٣.

(٣) المصدر نفسه ص: ٨٢.

(٤) التفسير الكبير ج: ٣/ ص: ٢٨٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

غير سليم لأن صياغة النص على غير ذلك.

### ﴿عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾

تقديم النفي يفيد التخصيص أي لا يخفف خاصة عنهم العذاب وهذا لا ينفي شمولهم بنوع من التخفيف الذي يعمهم مع غيرهم، على أن نفي المضارع غير نفي الاسم فلو قال النص: لا خفة للعذاب عنهم لكان أشق بكثير فالتجدد الذي يفيد المضارع في الإثبات هو الذي يتوجه إليه النفي وهذه رحمة الله الواسعة في النص القرآني وهو يتحدث عن العذاب.

### ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

ينظرون: تحتمل وجهين: أن تكون من أنظر بمعنى التأخير ومنه قوله تعالى: "فنظرة إلى ميسرة" البقرة: ٢٨ وعليه جرى الرازي<sup>(١)</sup> وأن تكون من نظر بالبناء للمجهول أي لا ينظر إليهم أحد إما كراهة وإما لكونهم في كِنِّ اللعنة وأثارها فلا يراهم أحد.

### ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إلا: أداة استثناء مما قبلها وهم الذين حقت عليهم اللعنة من الله وملائكته والناس أجمعين جزاءً على كفرهم.

### ﴿الَّذِينَ تَابُوا﴾

### ﴿الَّذِينَ﴾

إسم موصول وهو يدل على العموم فكأنه يقول: إلا كل تائب.

(١) التفسير الكبير ج: ٣ / ص: ٢٨٥.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

**(تَابُوا)**

أي رجعوا من الكفر إلى الإيمان.

**(مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)**

أي من الكفر وإنما عدل إلى التعبير بالإشارة ولم يقل: من الكفر أو من كفرهم ابتعاداً من شبح التذكير بالكفر بعد التوبة لما فيه من الإهانة والتعبير ولهذا قيل: ذكّرُ الجفاء وقت الصفاء من الجفاء ولهذا جاء التذكير بالإيمان في الآية التي بعد هذه فقال: "إن الذين كفروا بعد إيمانهم" ولم يقل: بعد ذلك.

وانظر أيضاً كيف اختلفت صياغة النص والقرآن يتحدث عن التوبة عن صياغتها في النص السابق وهو يتحدث عن جزاء الذين كفروا بعد إيمانهم حيث استخدم الذين الدالة على العموم في التوبة بينما هناك استخدم النكرة - قوماً - واستخدم في التوبة الفعل الماضي الدال على وقوع الفعل بدون تجدد فأعفاهم من ذلك ليقول لهم التوبة مرة تهدم الكفر كله.

**(وَأَصْلَحُوا)**

تحتمل وجهين:

الأول: أنهم أصلحوا ما أفسدوا من عقائدهم وأعمالهم وحاولوا إصلاح الآخرين.

والثاني: أنهم دخلوا في الصلاح كما تقول: أصبح زيد إذا دخل في وقت الصباح أي أن الهمزة لا تكون فيه للتعدية<sup>(١)</sup>.

**(فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ)**

(١) الكشاف: ج ١ / ص ٤٤٣ .

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الغفر: التغطية ومنه المغفر للزرد الذي يغطي الرأس يلبس تحت القلنسوة ومنه أيضاً: استغفر الله لذنبه ومن ذنبه<sup>(١)</sup> وغفور مبالغة من غافر وهذا يعني أن غفران الذنب تغطيته وستره لا محوه وإعدام صورته وإذا غفر الذنب فلا يصل منه إلى فاعله سوء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والرحيم: مأخوذ من الرحمة والرحمة: هي الرقة والعطف واسم الفاعل راحم والرحيم: مبالغة<sup>(٢)</sup> وجميع الأسماء الإلهية يجب أن يراعى فيها ما يليق بجلال الله تعالى.

### ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

كأن الله يقول: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فأقبل توبتهم وأغفر لهم فإني أنا الغفور الرحيم، وإنما وصف الحق نفسه بهذين الوصفين ليقول لهم إنما أنا الغفور الرحيم دائماً وهذه صفتي وهذه أسمائي فلا تقنطوا من مغفرتي ورحمتي، هذا تحليل ألفاظ الآية وأما تحليل الموقف منها فنقول:

إن هذا النص يسقط من حساب الدعاة إلى الله نظرة اليأس والقنوط إلى أي إنسان مهما كان دينه وطائفته ومذهبه وأخلاقه فباب التوبة مفتوح على مصراعيه ويكفيهم أن يتعلموا من هذا النص أن لحظة خير وتوبة إلى الله كافية في إسبال ثوب الستر على الماضي وما فيه من سيئات، بل هي كافية لوقاية المذنب من شر ذنبه في الدنيا والآخرة، وأيضاً فإن النص يجعلنا أمام حذر شديد في إصدار أحكام على الناس في الماضي والحاضر فأصدار حكم بالكفر أو الفسوق على أشخاص بأعيانهم يجعلنا أمام مسؤولية كبيرة وحساب عسير إذا لم تكن أحكامنا يدعمها

(١) مختار الصحاح ص: ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص: ١٠٥ .



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

أليقين أن أولئك الأشخاص قد غادروا الحياة ولم يتوبوا مما كانوا عليه من انحراف، ولهذا لزم أهل التقوى الحذر فإذا حكموا فإنما يحكمون على الوصف لا على الشخص فإن كان الوصف متحققاً في ذلك الشخص لحقه الحكم وإلا فلا. وإضافة إلى ذلك كله فالنص يعلمنا كيف نراعي مشاعر التائبين فلا نذكرهم بما كانوا عليه من إثم أو انحراف طالما أن المسيرة قد اعتدلت والسلوك قد استقام والله من وراء القصد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

﴿الَّذِينَ﴾

اسم موصول لإفادة العموم أي: كل من كفر بعد إيمانه.

﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا﴾

ازدادوا: أصلها ازتادوا من باب الافتعال مثل اكتسبوا واجتهدوا فقلبت التاء دالاً لتقارب مخرجيهما، أي أنهم كفروا بعد أن آمنوا أي ارتدوا عن الإيمان ثم اجتهدوا في زيادة الكفر والازدياد من الكفر يقع في صور كثيرة فالدعوة إلى الكفر والقتال من أجله والتحرُّب عليه تزيد الكافر كُفْرًا إلى كفره وكذلك الإيمان يزداد بمثل ذلك.

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾

فهم كثير من المفسرين معارضة هذا لما تقرر عندهم أن الكافر بعد إيمانه إذا تاب قبلت توبته وإن ازداد من الكفر أضعافاً فحاولوا تأويله بما ينسجم مع ما تقرر عندهم فقال الزمخشري رحمه الله: "لن تقبل توبتهم" عبارة عن الموت على الكفر

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتوں على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبته<sup>(١)</sup>.

وذكر الإمام الرازي وجوهاً خمسة في تأويل هذه الكلمة "لن تقبل توبتهم" وجعل ما ذكره الزمخشري واحداً منها وأما الوجه الثاني فهو: أن عدم القبول ناتج عن وقوع التوبة عند الموت والوجه الثالث: أن توبتهم باللسان فقط والرابع: أنهم تابوا عن الزيادة فقط والخامس: نقله عن القاضي والقائل وابن الأنباري وهو: أن الله تعالى لما قتم ذكر من كفر بعد الإيمان وبين أنه أهل للعنة إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة وتصير كأنها لم تكن قال أي القاضي وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وبعد أن سرد الرازي هذه الوجوه قال: "جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله: "إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً" على المعهود السابق لا على الاستغراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونة بالإخلاص في زمان التكليف؟ فأما الجواب الذي حكيناه عن القائل فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق<sup>(٢)</sup>

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾

بعد أن سردنا ما قاله الزمخشري والرازي رحمهما الله نعود إلى تحليل

(١) الكشاف ج: ١ ص: ٤٤٣.

(٢) التفسير الكبير ج: ٣/ص: ٢٨٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كلمات النص فلعلها تسعفنا بشيء من النور نتبين فيه ما أراد هذا النص الكريم، فنقول:

( ل ن ) حرف يدل على تأييد النفي في المستقبل.

﴿ تَقْبَلُ ﴾

بالبناء للمجهول وهذا البناء يفيد الدلالة على عموم الفاعل أي فلن تقبل توبتهم عند أحد.

﴿ تَوْبَتُهُمْ ﴾

توبة لفظ مفرد وقد أضيف إلى الضمير ومن المعلوم أن المفرد المضاف يفيد العموم فيكون التقدير: لن تقبل كل توبتهم أي أنها تكون مقبولة في جانب وغير مقبولة في جانب آخر إن هؤلاء كانوا قد آمنوا ثم ارتدوا ثم ازداد كفرهم فهل تكون توبتهم مقبولة فتهدم جميع ما تعلق بهم من حقوق في زمن الردة؟ أو أن هذه التوبة تكون مقبولة في جانب الإيمان غير أنهم يطالبون برد المظالم والحقوق إلى أهلها؟ فهم الكثير من الفقهاء من هذه الآية أن المرتد إذا عاد إلى الإسلام يُطالب بجميع ما ارتكبه من مظالم بل أوجبوا عليه حتى إعادة ما فاته من العبادات فقبول إيمانه شيء وإسقاط الحقوق عنه شيء آخر، ولولا هذا النص الكريم وهذا الفهم منه لكان لكل من يريد العبث بحقوق الآخرين أو التخفف من القيام بالواجبات الدينية سواء العبادية منها أو الاجتماعية أن يرتد عن الإسلام ثم يعود من جديد!! إنه خطر على الإسلام سدّه هذا النص.

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾

ضل الطريق: أي ضاع فلم يعرفه أين هو وهذه هي حالة المرتدين فإنهم

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

كانوا على الطريق ثم تاهوا عنه فلم يعودوا يعرفونه فإن رجعوا إلى الإسلام عادوا إليه بعد تيههم والله غفور رحيم.

**(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَا  
أَفْتَدَى بِهِمْ أَوْلِيَاكُم لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)**

**(فَلَنْ)**

قال في الكشاف: فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين "لن تقبل" بغير فاء وفي الأخرى "فلن يقبل" أي بالفاء؟ قلت: قد أوزن بالفاء أن الكلام بُني على الشرط والجزاء وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب كما تقول: الذي جاعني له درهم لم تجعل المحيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: الذي جاعني فله درهم<sup>(١)</sup>، فصار الأول اعترافاً والثاني جُعلاً.

**(مِنْ أَحَدِهِمْ)**

أي من أي واحد منهم؟

**(مِلَّةُ الْأَرْضِ)**

أي كل ما يصح أن يُملأ في الأرض "ذهباً" أي نوع من أنواعه.

**(وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِمْ)**

أي وإن افتدى به فلو هنا بمعنى إن لتعلقها بالمستقبل<sup>(٢)</sup> قال في الكشاف:

(١) الكشاف ج: ١ ص: ٤٤٣.

(٢) البحر المحيط ج: ٣ / ص: ٢٥٦.

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

"فإن قلت: كيف موقع قوله: "ولو افتدى به"؟ قلت: هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً"<sup>(١)</sup>.

**(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**

**(لَهُمْ)**

أي خاص بهم لأنه جزاء عملهم ونتاجه، وقوله "عذاب أليم" أي عذاب مؤلم جداً لأن أليم من صيغ المبالغة.

**(وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصِيرَةٍ)**

تقدم تحليل هذا النص فارجع إليه إن شئت<sup>(٢)</sup>.

وبذلك نختم ما بدأناه من محاوراة النصوص ومناغاتها ومعاناة التحليل ولأوائها سائلاً المولى جلّت قدرته أن يتقبلها على ما اعتراها من علل وتعاورها من زلل وأن يجعلها من مفاتيح الخير لخدمة كتابه وإعانة طلابه إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) الكشاف ج: ١ / ص: ٤٤٣-٤٤٤.

(٢) انظر ص: ٥٥-٥٦. من هذا المجموع.





# المصادر والمراجع



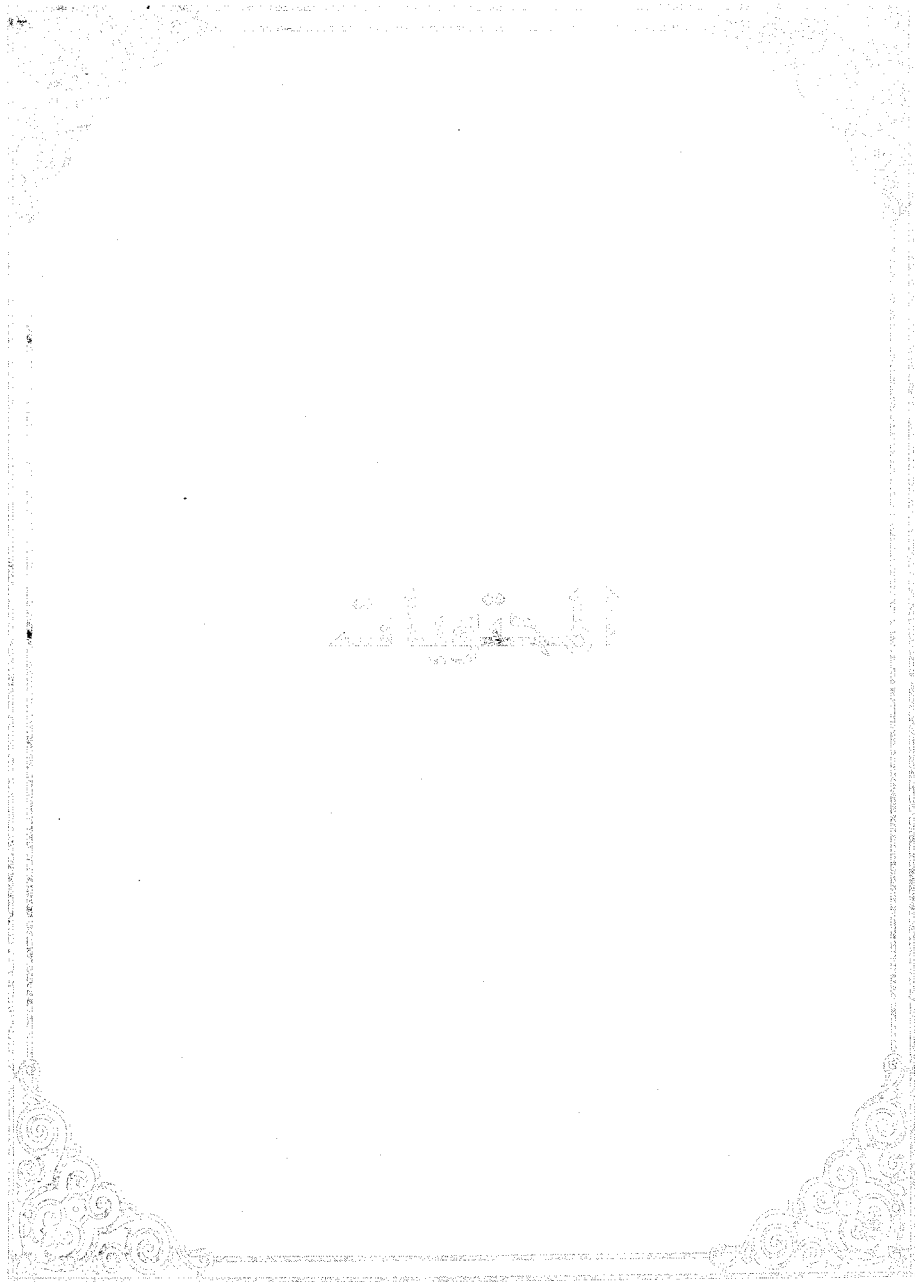


## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

### جريدة المراجع

١. الكشاف ، الزمخشري، دار الكتب بيروت.
٢. التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣. البحر المحيط أبو حيان، دار الفكر بيروت.
٤. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصاوي، دار الجيل، بيروت.
٥. الجامع لإحكام القرآن، القرطبي، دار الفكر، بيروت.
٦. مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني دار الفكر، بيروت.
٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية دار الرحمة، القاهرة.
٨. مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية، بيروت.
٩. لسان العرب ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠. مختار الصحاح ، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١. حياة الحيوان الكبرى ،الدميري دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢. الأحاديث القدسية د.أحمد فارس دار الفكر، بيروت.
١٣. زاد المعاد ،ابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، بيروت.







## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

الصفحة	الموضوع
٣	الإهداء
٥	المقدمة: في طريق البحث ونظمه
١١	التمهيد: في معنى "التفسير التحليلي"
١٣	الفصل الأول: في أدلة الوجدانية والرسالة وفيه:
٢٣	أ- معنى الفرقان
٢٨	ب- لا النافية إذا دخلت على المضارع
٣٠	ج- لا التي لنفي الجنس
٣٣	الفصل الثاني: في المحكم والمتشابه وفيه:
٣٦	أ- معنى المحكم
٣٨	ب- معنى المتشابه
٤٠	ج- ابتغاء الفتنة
٤١	د- التأويل
٤٢	هـ- كل القرآن مفسر
٤٩	و- لا يخلف الميعاد
٥١	الفصل الثالث: في مصير الذين كفروا وفيه:
٥٣	أ- لن تفيد نفي المستقبل على التأييد
٥٧	ب- ستغلبون وأثرها النفسي
٦١	ج- يرونهم مثليهم وأثرها في المعركة
٦٥	الفصل الرابع: في زينة الحياة الدنيا وزينة الآخرة وفيه:
٦٧	أ- اختلاف المفسرين في تعيين الفاعل في قوله: "زين"
٦٩	ب- الذي زين حب الشهوة لا الشهوة
٧٤	ج- الفارق بين: حسن المأب والمأب الحسن
٧٨	د- جنات تجري من تحتها الأنهار مقابلة جمع بجمع: جنات وأنهار

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

٧٩	هـ- وأزواج مطهرة معنى التطهير ما هو؟
٨٧	الفصل الخامس: في الدين والاختلاف فيه وفيه:
٩٠	أ- النفي أبلغ من النهي والفارق بينهما
٩١	ب- إن الدين عند الله الإسلام، معنى الإسلام
٩٣	ج- معنى "سريع الحساب"
٩٧	د- قتل الأنبياء والمصلحين
٩٨	هـ- معنى البشارة ومناسبة التسمية
١٠٠	و- وما لهم من ناصرين، الفارق بين: من ناصرين ومن ناصر
١٠٥	ج- الفارق بين الافتراء والكذب
١٠٩	الفصل السادس: في مالكية الله للكون وفيه:
١١١	أ- أصل: اللهم
١١٢	ب- قواعد العقيدة الثلاث
١١٥	ج- معنى: "على كل شيء قدير"
١١٦	د- ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، ما هو الولوج؟
١١٧	هـ- رأيي في التوالج
١١٨	و- إخراج الحي من الميت، كيف هو؟
١١٩	ز- سبب تقديم الليل على النهار والحي على الميت
١٢٠	ح- لماذا علقت بعض الجمل بالمشيئة دون غيرها؛ وبيان العلاقة بين مشيئة العبد ومشيئة المعبود
١٢٣	الفصل السابع: في موالة الكافرين وأثرها على الإيمان وفيه :
١٢٥	أ- "لا يتخذ" وبيان أن النهي عن الشيء يقتضي القدرة على القيام بالمنهي بخلاف النفي
١٢٧	ب- أنواع الموالة وأحكامها
١٢٩	ج- التقية محكومة بالقواعد العامة وبيان الجانب الشخصي فيها للمجتهد والمفتي والمقلد

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

١٣٢	د- هل يختلف العلم الإلهي بالشيء قبل وقوعه عما هو بعد وقوعه ؟
١٣٧	هـ- تود لو أن بينها وبينه.. ما هو سر لو هنا ؟
١٣٩	الفصل الثامن: في الحب بين الخالق والمخلوق وفيه:
١٤١	أ- بيان آثار الحب
١٤٣	ب- لماذا سميت الأعمال السيئة ذنوبا وسر الإضافة في: "ذنوبكم" ؟
١٤٣	ج- "فاتبعوني يحبيكم الله" "أطيعوا الله والرسول" ما هو الفارق بين الأمرين
١٥١	الفصل التاسع: في قصة حنة أم مريم عليهما السلام وفيه:
١٥٤	أ- نذرت لك ما في بطني عام يشمل الذكر والأنثى
١٥٦	ب- من أسرار الدعاء بهذين الأسمين "السميع العليم"
١٥٧	ج- الأنثى وصف زائد على وصف المرأة
١٥٩	د- الفارق بين "أعيذها" و"اللهم أعذها"
١٦٣	هـ- لا يشترط في الكرامة أن تكون نادرة بدليل "كلما دخل"
١٦٦	و- "من عند الله" والفارق بينها وبين من الله
١٦٩	الفصل العاشر: في قصة زكريا عليه السلام وفيه:
١٧٢	أ- ولية نبهت نبيا بحالها لا بقالها
١٧٣	ب- الفارق بين: من عندك وبين من لندك
١٧٥	ج- الملائكة تفرح في قبول دعاء زكريا ولهذا نادته بالبشرى
١٧٨	د- إتيان المولود على الصورة التي في خيال والديه
١٨٣	هـ- قوله "واذكر ربك" ليس داخل في الآية
١٨٥	الفصل الحادي عشر: في قصة مريم عليها السلام وفيه:
١٨٧	أ- الفارق بين قصة مريم وقصة زكريا من حيث المحادثة وعدمها
١٨٩	ب- ما معنى توجيه الملائكة الأوامر بالعبادة ؟
١٩٣	ج- ليس الإنباء بالغيب خاصا بالأنبياء والمرسلين وإخبار شيخ الإسلام ابن تيمية بأمور قبل أن تقع
١٩٧	د- خاطبت مريم ربها "رب أنى يكون لي ولد.." وخاطبها "قال كذلك الله.." كيف

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

	كانت هذه المخاطبة !!!
٢٠٣	هـ- معنى "كن فيكون" والوجودات الثلاثة
٢٠٧	الفصل الثاني عشر: في قصة عيسى عليه السلام وفيه:
٢٠٩	أ- استعداد الإنسان لتلقي العطاء الإلهي
٢١٠	ب- التعليم لا يتحدد بصورة
٢١٤	ج- العلامة الأولى: نفخ الروح في الصور
٢١٥	د- الخوارق متوقفة على الأسباب
٢١٧	هـ- "فيكون طيراً" والفارق بينه وبين: "فأجعله طيراً"
٢١٨	و- العلامة الثانية: إبراء الأكمه والأبرص كيف؟
٢١٨	ز- القدرة على الشفاء توجد عند كثير من الناس
٢٢٠	ح- العلامة الثالثة: إحياء الموتى
٢٢١	ط- إحياء الموتى وقع لبعض الصحابة
٢٢١	ي- العلامة الرابعة: الإنبياء بالغيب
٢٢٢	ك- إخبار ابن تيمية بأمور قيل أن تقع ووقعت كما أخبر
٢٢٢	ل- الفارق بين الأكل والادخار
٢٢٣	م- الإيمان بالله أصالة- وبالمرسلين والكتب تبعاً لأن الإيمان بالملوكية لله هو واسطة عقد الإيمان
٢٢٧	ن- هل نسأل: كيف أحس عيسى منهم الكفر
٢٢٨	س- "من أنصاري إلى الله" النص مكتشف المعنى...!! وقضية الإيمان بالله أولاً
٢٢٩	ع- عيسى عليه السلام مأمور بالجهاد
٢٣٣	ف- كيف يكون مكر الله..؟
٢٣٥	ص- ورافعك إليّ كيف؟
٢٣٧	ق- أتباع محمد ﷺ هم أتباع عيسى على الحقيقة
٢٤١	ر- والله لا يحب الظالمين سلب عموم لا عموم سلب
٢٤٣	الفصل الثالث عشر: في محاجة الذين كفروا وفيه:



## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

٢٤٩	أ- إن مثل عيسى... كمثل آدم
٢٥٢	ب- "فلا تكن من الممترين" النهي عن الفعل يقتضي وجود القدرة على فعله لا على وقوع الفعل وهو بحث مهم جداً
٢٥٥	ج- تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم كيف انحرف البعض في تفسير النص
٢٥٦	د- نبتهل بين الابتهاال والمباهلة
٢٥٨	هـ- معنى القصص
٢٦٠	و- لا اله إلا الله أبلغ في نفي الشريك من ما من اله إلا الله
٢٦١	ز- استعمال كلمة الوجدانية أسلم وأصح من كلمة التوحيد
٢٦٣	ح- من هم المفسدون؟
٢٦٤	ط- دعوة القرآن إلى عالمية الإيمان
٢٦٥	ي- "أن لا نعبد إلا الله" معنى العبادة
٢٦٦	ك- "ولا تشرك به شيئاً" معنى الشرك
٢٦٧	ل- "ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً" كيف؟
٢٧٢	م- "كان حنيفاً مسلماً" و "وما كان من المشركين" ما الفارق بينهما
٢٧٧	الفصل الرابع عشر: في مكاييد أهل الكتاب وفيه:
٢٧٩	أ- "ودت طائفة... لو يضلونكم" ويأس أهل الكتاب
٢٨٤	ب- الفارق بين تلبسون وتلبسون بكسر الباء وفتحها
٢٨٥	ج- آمن بالله... تحليل مهم للكلمة
٢٨٧	د- آخر سموم أهل الكتاب "أمنوا وجه النهار واكفروا آخره"
٢٩٢	ز- إن الله تلطف بأهل الكتاب لعلهم يعودون إليه
٢٩٤	ح- العرب في الإنجيل كلاب وفي التوراة رجس
٣٠١	ط- "لا خلاق لهم" نافية للجنس
٣٠٢	ي- "ولا يكلمهم" لا النافية إذا دخلت على المضارع لا تفيد التأييد
٣٠٣	ك- "ولا ينظر إليهم" معنى النظر: تأمل الشيء بالعين لا مطلق الرؤية

## التفسير التحليلي للشطر الأول من سورة آل عمران

٣٠٥	ل- "ولهم عذاب أليم" يصدق بلحظة
٣٠٦	م- يلوون ألسنتهم بالكتاب" وليس: يلوون الكتاب بألسنتهم والفرق بينهما
٣٠٧	ن- "لحسبوه من الكتاب" لا نلعمه أو لنستيقنه فإنهم يأسون من ذلك
٣٠٩	ع- "ما كان لبشر" تدل على نفي الحدث مطلقاً
٣١١	ف- "عبادا" جمع عبد وتستعمل للمدح والتكريم بخلاف عبيد
٣١٢	ص- العيد والرب متضايقان كالأب والابن
٣١٧	الفصل الخامس عشر: في أخذ ميثاق النبيين وفيه:
٣٢٢	أ- العقائد لا يعتد بها النسخ والتبديل.
٣٢٤	ب- احتمال في النص على كيفية أخذ الميثاق
٣٢٥	ج- لم يستعمل العرب كلمة فاسق مع أنها عربية
٣٢٦	د- "فمن تولى بعد ذلك..." تحمل روحاً استعلاتية عظيمة وتخصيصها بنبيينا محمد ﷺ لا يقتضيه النص بل هو ﷺ واحد مما ينطبق عليه النص
٣٢٩	هـ- "السموات والأرض" رأيي الخاص في ذكر السموات بالجمع والأرض بالإفراد
٣٣٣	و- "لا نفرق بين أحد منهم" والفارق بين: لا نفرق ولا يفرق
٣٣٣	ز- معنى الإسلام في "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً..." وهو بحث أصيل فارجع إليه
٣٣٨	ح- "والله لا يهدي القوم الظالمين" تحليل مفيد جدا
٣٣٩	ط- "أن عليهم لعنة الله" خبر لا إنشاء
٣٤١	ي- "لا يخفف عنهم العذاب" لا تنفي أصل الخفة ومثلها: "ولا هم ينظرون"
٣٤٢	ك- "إلا الذين تابوا..." "فإني أنا الغفور الرحيم"
٣٤٥	ل- "لن نقبل توبتهم" أي كلها فتوبة المرتد لا تسقط عنه حقوق الأدميين ... الخ وهو رأي يسانده الفقه بخلاف الآراء الأخرى فقد نبت عن النص
٣٤٨	م- الفارق بين: الذي جاءني له درهم وبين الذي جاءني فله درهم
٣٥١	المصادر
٣٥٥	المحتويات



طبع بمطبعة هيئة إدارة واستثمار الوقف السني